رواية
آشا
ياسمين ثابت
كيان
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أشيا

(رواية)

ياسمين ثابت

إهداء

إلى أبي، فخورة أني أُشبهك.

إلى أمي، أتمنّى أن أكونكِ يومًا لأولادي.

إلى أخي...أعشق معك وقت المزاح، ووقت الجَدّ، وما بينهما.

إلى صديقتي آشيا، أهديتني حياتكِ في بضع جُمَل، فخلقتُ منها كتابًا، وعشت بكل حرف فيه آلامك وأفراحك.

إلى سوريا، وأعلم أنها ستنتصر.

إلى القارئ، اقرأها بقلبك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدّمة

للوجع أوجهٌ عجيبة
بعض الأحلام تتحقق أوجاعًا
وبعض المشاعر تُنبِت آلامًا
ويبقى الوجع الأكبر
وجع الحياة.
وكأنني قد متُّ قبل الآن ...
أَعرفُ هذه الرؤيا، وأَعرفُ أَنني
أَمضي إلى ما لَسْتُ أَعرفُ، رُبَّما
ما زلتُ حيًّا في مكانٍ ما، وأَعرفُ
ما أُريدُ ...
سأصيرُ يومًا ما أُريدُ

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

لا أحد تعرفه حولها، الكثير من الظلال، أصوات تتحدث بلغةٍ لا تألفها، عيون ملوَنة بالغضب تنظر إليها، تُبكيها، أجسادٌ تقترب، تفوح منها رائحة الطحين، أذرع قاسية تمسكها، تشدها، وتلك الصرخة، بعد الصفعة، أمها على الأرض تبكي، أصوات صراخ إخوتها، كلهم في صورٍ غير واضحة، تتقاذف أمام عينيها. بقيت كلمة واحدة واضحة وصريحة، مدوية جارِحة مؤلمة، والدها يقذف أمها بكلمة عاهرة، فتاة شقراء مراهقة تصرخ فيه، وتدفعه مؤكدة أنها ستجعله يقضي بقية عمره في السجن، تشعر باختناق، تفر منها حبات الهواء، تشهق عدة مرات، وهي غير قادرة على فتح عينيها، يثقلهما الفزع، تسمع صوت امرأة تهدهدها، ترجع من طريق كوابيسها المظلمة، الأذرع التي تضمها تغني، تحميها وتهدئ من تشنجات روحها، شفتان تمسحان الدمع بالقبل، تفتح عينيها الصغيرتين متوجسة، ترى وجهًا تملؤه تجاعيدٌ حزينة، عينان واسعتان شَهْديتا اللون، تنظران لها بأمومة، خصلاتٌ بيضاء فرَت من غطاء رأس مربوط ببداية العنق، الشال الصوفي الملون يلف ما تحت رأسها، جسد الصغيرة بين ذراعي جدتها، تسند رأسها على صدرها وهي تهدهدها بأغنية لا تفقه شيئًا منها، تنظر إليها بتمعن فتطمئن، تنظر إلى يسارها فتجد أخويها نائمين على السرير بجوارها، وقد قربتها الجدة إليها بعد كوابيس جعلت وجهها وعنقها يغرقان في بركةٍ من دموع الذعر، ترفع الجدة كفها بطرف شالها، وتمسح ما تبقى من الدموع عن الصغيرة، تعود لتنظر إليها من جديد متسائلة، فتجيب الجدة عليها قائلة:

- آشيا... ما تخافي يا صبية... ستك ما بتتركك تنامي لحالك منوب ([1]).

- .... ماما؟

- أمك راح تيجي ما تخافي... هلق ([2]) إنتي نامي وبفيقك بكير لما تيجي الماما وتلعبي معاها..

تبقى الصغيرة صامدة بعينيها التي لن تناما في وقت قريب.. فتسألها جدتها من جديد:

- شو بدك يا حلوة؟ بدك أحكيلك حكاية؟ ها؟

لا ترد الصغيرة، لا تستوعب كل كلام جدتها، ولكنها تفهم أنها تقول لها قولًا لطيفًا، فيخفت صوت الجدة، وتحكي لها هامسة بشيء يشبه الأغنية:

- كان ياما كان، كان محمد الهيكان، فتحلو دكان، حط فلفل وقرنفل ومن جميع الشكال.

ابتسمت الصغيرة من صوت جدتها الذي صار طفوليًا بطريقة مضحكة، وهي تسير في طرقات سمعها بكلام لا تفقه منه شيئًا، حكاية موسيقية لا تعرف أبطالها، لا تشبه الحكايات التي كانت تحكيها لها والدتها المليئة بالأميرات والقصور. قاطع ذكرياتها صوت الجدة وهي تكمل:

- من جنح بقة ([3]).. طبخنا ست سبع قدور.... والشحم واللحم ع السطوح منشور.... ومن عضاما.... عمرنا قلعتين وسور.... وحيا الله بلاد الكذب.... وين هادا بيزرعوا!!

ضحكت الصغيرة من تتابع تعبيرات الجدة المختلفة باختلاف معاني الكلمات، ففرحت الجدة بتفاعل الصغيرة، وظلت تقبلها يمينًا ويسارًا، ووضعتها بجانب أخويها، فسقط الأرنب الرمادي الصغير الذي كان في حجر آشيا -كانت تدعوه بوني- مما جعلها تحدق به وهو مستلقٍ على الأرض الخشبية، والبكاء يتسلل رويدًا رويدًا لملامحها، لحقتها الجدة وانحنت لأسفل بحركة رشيقة، لا تناسب عمرها، الذي يزيد على نصف قرن، ووضعت الأرنب الصامت بين ذراعي الصغيرة، فاحتضنته بلهفة، فهو اللمسة الوحيدة المتبقية في غرفة لا تشبه غرفة نومها، نامت آشيا دون أحلام، بعد بقاء جدتها معها على أمل لقاء أمها في الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ مازن على خوار بقرة، تكاد تكون ملاصقة له، وحين نظر إلى النافذة فوق سريره وجد رأسها يكاد يدخل الغرفة، أصابه الذهول، فهو لا يتذكر أنه رأى بقرة في الأحد عشر عامًا التي عاشها، كاد يصرخ، لولا أنه لاحظ أن صوتها المزعج لم يفك شِباك النوم عن أختيه الصغيرتين، فاطمة وآشيا، لم يعرف ماذا يفعل وتلك البقرة تحدق به، وهو غير قادر على النهوض، أو ترك أختيه، أو حتى الصراخ، نظر حوله فوجد كوبًا زجاجيًا يقف وحده على الطاولة التي تجاور السرير العريض، فنهض على أطراف أصابعه، ومال بجسده فوق رؤوس إخوته، أمسكها ونظر للبقرة بتوجس، فوجدها تطلق خوارها المرعب من جديد، فرفعه إلى أعلى ورماه بين عينيها، فارتطم بها، وسقط خارج الدار محدثًا ضجة، فتحركت البقرة بعنف معلنة تمردها على هذه الضربة المفاجئة، شعر بانتصاره، لولا دخول رأس رجل من النافذة بعد دقائق قائلا:

- الله يلعنك يا ولد... شبك أنت انجنيت؟

-That Caw scared me.

- ولك عاملي حالك أجنبي.. قوم نضف الوَسَخ اللي تركتو.

- التفت الرجل ناظرًا إلى الأرض المكسوة بقطع الزجاج وقال منفجرًا:

- العمى..... شو هالطلطميس؟ ما بيعرف الجمعة من الخميس! ([4]) ثم مد يده فجأة من النافذة، حين وجد الصبي يحدق به دون أي حراك، شده إلى الحائط قائلًا بغلظة:

- تعا لهون يا كلب.

صرخ الصبي، وهو لا يعرف من هذا الرجل الذي يلف الشعر وجهه، محدثًا دائرة سوداء تتوسطها عينان حادتان، وشارب غير مهذب، فاستيقظت الفتاتان صارختين، وخوار البقرة الغاضبة يشاركهما، حتى دخلت الجدة العجوز، ودفعت يد الرجل، فأفلت الصبي، فاجتمع الأطفال الثلاثة خلفها، وهي تصيح بعبارات لا

يفهمونها، ويبادلها الرجل الصياح، حتى ابتعد وشد البقرة بعيدًا، التفتت لهم محاولة تهدئتهم قائلة:

- ما تخافوا يا صغار... هاي بقرتنا أمونة... بعد ما تفطروا راح خليكن تلعبو وياها.. ما تزعل يا مازن هاد عمك محمود، اول ما تطلع الشمس بيعصب شوي... ماتخافوا.... تعالوا مشان تاكلوا كانت نبرة صوتها كفيلة بتهدئتهم جميعًا، خرجوا ممسكين بأيدي بعضهم بعضا، وكأنهم خارجون من زلزال أطاح ببيتهم، وبكل ما يعرفونه، فيطمئنون أنفسهم بأصابعهم المتشابكة خشية أن يفقدوا بعضهم بعضا.

خرجوا من الغرفة التي اتضح لهم أنها في آخر المنزل، يسبقها ممرٌ طويل حتى الصالة، ساروا في الممر خلف جدتهم، وعيونهم تنتقل بين باب وآخر، يطالعون ما بداخل الغُرف الأخرى، نساء وأطفال لا يعرفونهم، البيت ليس لهم وحدهم، فالجدة تتحدث مع الكثيرين، كأنها توزع المهام عليهم في أثناء مرورها، فيجيبونها دون التفات إليها، لانشغالهم بما بين أيديهم، أخذتهم لطاولة خشبية كبيرة، يغطيها مفرش قديم باهت اللون، كان عليه طعام تفوح منه رائحة شهية، ولكنهم عندما اقتربوا ونظروا داخل الأطباق، لم يتعرفوا على أي طعام سبق لهم تذوقه أو حتى رؤيتها، تفاخرت الجدة بأنها صنعت لهم الزطة، وحين لم يفهموا معنى الكلمة التي ذكرتها، تألمت لأنها كانت الوجبة المفضلة لوالدهم، فحاولت فتح شهيتهم بذكر أنها خليط من اللبن والبرغل والطحين واللحم، لم تتركهم معداتهم يفكرون، فتناولوا ما استطاعوا مع تشجيع جدتهم، ووقوفها قربهم.

لاحظت الجدة أن مازن أكثر من يفهم لغتها بين الثلاثة، بل ويجيبها أحيانًا بلغتها السورية، فاطمة التي تصغره بثلاثة أعوام، أقل منه قليلا في الرد والاستيعاب، أما آشيا الصغيرة فلا تتحدث سوى الإنجليزية، ولا تفهم ما تقوله لها، أسِفت العجوز لحال الصغار، وظلت تحيطهم بجناح اهتمامها وحنانها طوال الوقت، ملاحظة أنهم لا يتحركون إلا خلفها، ولا ينتمون إلا لها، طلبت من ابنها الصغير محمود صاحب الدائرة السوداء حول وجهه أن ينادي أخاه رامي، لعله يطمئن أطفاله، فجاء بعد عدة ساعات من استيقاظهم، ضاحكًا على ما حكاه له محمود عن مازن والبقرة، حين دخل الصالة، كان الأطفال يجلسون بطريقة مهذبة دون حراك، بجانب جدتهم التي ظلت تمارس الحياكة، وهي تحكي لهم حكايات لا يفهمونها، تشغلهم حتى تمر الساعات دون تأفف منهم، لم يجرؤوا على الحركة إلا حين جاء والدهم، فنهضوا جميعًا وارتموا في أحضانه، أدرك مازن أنه لم يسبق له أن احتضن أباه، لكن غربتهم في المكان تستدعي التصاقهم به حتى لو لم يكن قريبًا لهم، فيما سبق من حياتهم، لم يكلف الوالد أصابعه مهمة احتضانهم، واكتفى بأن ربت أكتافهم الصغيرة، ودفعهم ليجلسوا في أماكنهم، وهو يزف لهم نبأ أن هذا بيتهم الجديد الذي سيعيشون فيه دائمًا، صمت مازن من الصدمة، وارتعشت شفتا فاطمة، محاولة كتم بكاءها، أما آشيا الصغيرة فنطقت:

-Where is Mom?

لم يجبها والدها مباشرة، ولكن ظل يحدق بوجهها بنوع من التأنيب، وأرسل نظراته إلى أمه العجوز، فعاتبته، وتطلعت إلى الأطفال بشفقة، فقال باللغة الإنجليزية التي يفهمونها مصطنعًا ابتسامة:

- أمكم عادت إلى أمريكا مؤقتًا، وستأتي قريبًا لتبقى معكم.

احتضنت فاطمة أخاها مازن، وهي تنادي أمها، فرد مازن على والده:

- فلنسافر لنلحق بها.

تجاهل الأب نافد الصبر نبرة الألم في صوت ولده، وتطلع بعينيه بعيدًا، وهو يشرح لهم أن إقامتهم ستدوم في هذا البيت، حتى يتمكن من إنهاء أعماله في أمريكا، ثم وجه كلامه لوالدته:

- هادول الصغار مابيعرفوا غير أمريكا، بدي ياهم ينسوا أنهم بيوم حملوا الجنسية الأمريكية.... من هلأ صاروا أمانتك... علميهم كيف يصيروا سوريين.

هنا انضم عمهم محمود الصورة بتعبير وجهه الغاضب، فنقل رامي نظره بين أخيه وابنه، وشد ابنه إليه قائلا:

- تعا لهون مازن.. اعتذر لعمك محمود على اللي سويته الصبح.... وخليك مؤدب واسمع كلامه وياويلك لو زعلته مرة تانية.. فهمت؟

- بس أنا ما سويت شي.

فقرصه بحدة في خده، وقال:

- عم قلك اعتذر. لا تتفلسف فتمالك الصبي دموعه وقال مكرهًا:

-I'm sorry Uncle.

خرجت ضحكة مستهزئة من فم عمه، فشعر رامي بالخجل، وأوصى جدتهم أن تعلمهم كيف يتكلمون لغتهم، وينسون تلك الإنجليزية اللعينة، ونهض دون أن يضم أيًا من أولاده، ظل يدخن بالخارج، أما محمود فنظر إلى ابن أخيه بتشفٍ، ورحل.

بقي الثلاثة ثابتين من أثر الصدمة، يتفرجون على كل ما يحدث حولهم، كأنهم يشاهدون فيلمًا سينمائيا عن شعب آخر، يبعد ملايين الأميال عنهم، النساء يخرجن ويدخلن الدار، يقمن بالكثير من الأعمال، يمسك بأطراف أثوابهن أطفالهن، لم يجرؤ أحد منهم على القيام من مكانه ومشاركة أحد الأطفال اللعب، ولا هؤلاء الأطفال اهتموا بوجودهم، كأنهم غير مرئيين، تتجاهل نساء العائلة النظر إليهم، بينما يأكل الفضول نسوة الجيران، وهن يحدقن في الزوار الجُدد، سمع مازن امرأة تهمس لأخرى قائلة:

- شوفي كيف الأمريكية الخبيثة ربتهم... ماعم يحكوا عربي، ولا يعرفوا شي عن دينهم، سمعت أنها كانت زانية وعندها بنت من علاقة غير شرعية قبل ما تتزوج رامي، شوفتوا المرة اللي ماعندها حيا.

تقول الأخرى:

- الواد طالع أشقر لأبوه... شوفي كيف البنتين بشعين..... لونهم أسمر متكدر.... والصغيرة مقصرة شعرها متل الصبيان... ما ورثوا حتى عيون بيهم الزرقا.. يلعن أمهم الزنجية القبيحة.

فنهض مازن مُهانًا، وهو ينظر إليهم بحنق، فسكتوا مندهشين، فهم يدركون أنه لا يفهم العربية، لكن الجدة الواقفة في نهاية الممر صاحت:

- تعالي أنتِي وهي شو بتعملوا؟

أما مازن فأمسك بيد أختيه، وسحبهم للخارج، دافعًا أجساد تلك النسوة بسرعة جريه، دخلوا عدة غُرف حتى وصلوا للباب الذي يقودهم نحو الحديقة الخلفية للدار، الكثير من الأشجار كثيفة الأوراق تلتف حول الطريق، أزهار ونباتات مزروعة يغلفها سياج معدني قصير، غرف مكونة من طابق واحد، متناثرة حول البيت الذي خرجوا منه، الهواء يحمل رائحة لم يشموها من قبل، الأفق أمامهم لا يحمل أي ناطحات سحاب، أو أي شيء يحول بينهم وبين لون السماء، لا يصدقون أنهم يسمعون صوت العصافير، يحدقون بانبهار في لطبيعة التي تعانقهم، لامست فراشة أصابع آشيا الصغيرة، فابتهجت بضحكة طفولية، ركضت خلفها فابتهجت فاطمة كذلك، وركضت خلفهما، ظلت أرجلهم تتلمس العشب من تحتهم، غير مصدقين أنها حديقة ملحقة بالبيت، بينما كان عليهم في أمريكا أن يقطعوا أميالا بالسيارة ليصلوا إلى بيت الطبيعة، حيث تسكن الأشجار معًا في حديقة مخصصة لهم، تحمل عشبًا كسجادة تفترش بيتهم.

ظلوا يركضون بفضول، ويحدقون بكل شيء، يلمسون الزهور بحذر، يشمون أوراق الأشجار، عكفت فاطمة على جمعها ووضعها في جيب سترتها، وكأنها ستفقدها، أخذهم فضولهم خارج السياج، ساروا في ممرات مرسومة بالطين بين دفتي عشب، وحده مازن حاول تحذيرهن من اتساخ ثيابهن، بينما تأرجحت ضفائر الصغيرتين وهما يقفزان ويدفعان بعضهما، توقفوا قليلا لمشاهدة البيوت حول بيتهم، الماشية، الكلاب ونباحها، الطيور الداجنة بمختلف أطوار نموها، الناس وملابسهم المختلفة كليًا عنهم، والسلاسل الجبلية التي تلف القرية كسوار، لم يدركوا أنهم يسيرون مبتعدين عن المكان الوحيد الذي يعرفون، أوقفهم رجلٌ خمسيني بشارب بني كثيف وشعر يمتزج فيه البني بالأبيض ونظرة هادئة قائلا:

- أنت مازن... والصبية فاطمة... وهاي العفريتة أكيد بتكون آشيا!

نظروا لبعضهم، ثم اجتمع الثلاثة في عيون الرجل، وضحكوا لظُرفه، دفعهم من ظهورهم وأدارهم عائدين للبيت قائلا:

- لوين رايحين يا ملاعين؟ فيقتوا وصرتوا تهربوا من البيت؟ يلا امسك يا مازن ساعد عمك... قديش بتشبه بيك... تعالو وراي.

أسقط العم الكبير أكياسه في يد مازن، معتمدًا عليه، فأثار فيه شعورًا بالرجولة، مما جعله يحملها كلها دون أن يُظهر أي تعب، وأمسكت كل فتاة بكف عمها، عائدات

إلى المنزل، لم يكن العم محمد يعرفهم أو قابلهم من قبل، لكن حبًا كبيرًا جمع بينهم منذ ذلك اللقاء، أحبوه أكثر من والدهم لأنه منذ اللحظة التي أعادهم فيها لمنزلهم كان يتصرف تجاههم بشعور الأب، حين عاد، حضرت زوجته، فقبلها قبلتين على كل خد، نظرت للصغار - الذين يتبعون زوجها- نظرة احتقار، لم يغفلها، فسارع بمناداة أولاده، حضر ثلاثة أولاد، يكبرون مازن بالترتيب معتز وموسى وأكرم، كلهم شقر مثل أمهم، ظل أبوهم يوصيهم، واصفًا الصغار الثلاثة بأنهم إخوتهم، وأنه سيعتمد عليهم منذ الآن لرعايتهم، لكن نظرتهم لهم لم تقل احتقارًا عن احتقار أمهم، مما جعلهم لا يتبادلون الحديث مطلقًا!

اجتمعت الأسرة كلها على مائدة العشاء، الأسرة كلها ما عدا والدهم رامي، فهم مازن من كلام عمه محمد أنه سافر، سافر دون أن يودعهم، نقل الخبر لأختيه بالإنجليزية، فبكتا، فاحتضنهم عمهم محمد بحنو وقال:

- الصغيرات الأميرات ما بينزل على خدودن إلا حبات اللؤلؤ... شو بكُن كأنه سافر.. رح يرجع وجايبلكم ألعاب كتير معه.... ومن هون ليرجع نادوني بابا.

قالتها آشيا وحدها لعمها (بابا)، فنالت قبلات لا تنتهي منه، وحملها ووضعها على فخذه الأيسر، مما أغاظ ابنه الصغير، فاندفع إلى والده حاشرًا نفسه، ليجلس على الفخذ الآخر، حتى لا يتسنى لها للحظة أن تفكر أنها ستأخذ والده منه، فانسحبت إلى حضن الجدة بعد قليل مستسلمة.

جاءتهم عمة أخرى شابة، بشعر بني أشعث، نادوها سمية، لتغير لهم ملابسهم، كانت تعاملهم بحيادية، وتحاول بين الحين والآخر أن تكلمهم، خلعت عنهم ثيابهم الغالية المنسقة، وتوقفت قليلا لتتطلع لزخرفتها بحسرة، ثم دخلت محروسة، زوجة عمهم محمد، ورمت على السرير بعض بقايا ثياب أطفالها ليلبسوها، ورحلت دون كلمة، لبس الصغار هذه الثياب، معتقدين كما قالت لهم عمتهم أنها ستقوم بغسلها، ثم تعيدها لهم، لكنهم في الأيام التالية رأوا ثوب مازن يلبسه أكرم، أصغر أولاد عمهم محمد، وثياب الفتاتين ذهبت لبنات عمتهم رولا، عمتهم التي تملك من الأولاد والبنات ما يزيد على قدرتهم على العد، أما هم فاستعملوا هذه الثياب التي فارقت لونها الأول الناصع، لم يتمكنوا من قول شيء، لأن ثيابهم لم تكن أول ما فقدوه في هذا المكان، حين لاحظت الجدة هذا، دمعت عيناها، وحاولت مشاغلتهم بحكايتها من جديد، فاستمع لها الثلاثة بفضول وفرحة، فاستمرت تحرك كفيها بحركات مسرحية وهي تضخم نبرة صوتها قائلة:

- نادى دلال ([5])... نادى حراج... بالسوق بعتونا.... وقبل ما ننسى نسيتونا.... هيك أنا وبقول... يا مالك الدنيا بعرض وطول.... يحرم عليي لاتقارشني ([6])..... يحرم عليي يا ظريف خشني.... لا تشوف الناس بفعالك..... بعده بنتزق لو كان العزيز خالك!

ضحك الصغار بمرح وقالت فاطمة:

- شو اسم ها القصة ياناانا؟

- فتنهدت الجدة، وذكرت لهم أنه تراث قديم، كانت تحفظها وهي صغيرة عن والدتها، واسترسلت في وصف حياتها وهي صغيرة، واصفة نفسها بأنها كانت الطفلة الأجمل على الإطلاق، وأن شعرها كان يصل لنهاية ظهرها، بسواد يشبه الليل، وذكرت كيف تختلف طفولتها عن حياتهم الآن، وحين نظرت إليهم، كانوا قد غطوا في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل تصلي؟ جملة لم يكن محمد يتوقع أن يسألها لأولاد أخيه، وخصوصا مازن، بعد بلوغه الحادية عشرة، دون أن يدرك أنه مسلم، وأن عليه أن يصلي، فقد لاحظ أنهم ينظرون بعدم استيعاب لأي فرد في البيت وهو يصلي كأنه يؤدي حركات سحرية رياضية لا يعرفون لها معنى، كان أول ما علمهم عمهم محمد هو الصلاة، أدرك أنها غلطة والده قبل أن تكون غلطة الأم الأمريكية، التي لا تنتمي للدين الإسلامي، حتى تعلمهم، تابعوا حركة عمهم بأعينهم وقلدوه، شيئًا فشيئًا صار إمامهم هو مازن، اعتادوا البيت وأهله وأعمامهم وزوجاتهم وأولادهم، إن لم يسكنوا البيت فإنهم يسكنون بيوتًا قريبة جدًا من بيت الجدة ويعملون بالزراعة، عمان وعمتان وأزواجهم وأولادهم، لم يكونوا على وفاق مع أطفال أعمامهم، شيء ما من التعالي كان كالجدار يفصلهم عنهم، كأنهم ينتمون لفصيلة أقل من فصيلتهم، ربما بسبب لونهم المختلف، وملامح الفتيات التي تشي باختلافهم، لم تفلح محاولات العم محمد في جعل الأطفال يشاركونهم اللعب، لا أولاده ولا أولاد إخوانه، حتى ابنة العمة رولا التي تُدعَى هالة، والتي تتميز بحبات نمش على وجهها وحمرة في استرسال شعرها، كانت تماثل آشيا في العمر، لم يحدث أن قبلت إعطاءها أيًا من ثيابها أو دُماها مهما نهرتها أمها، لا تستجيب، لم تهتم حتى بالضرب الذي تلقته حين فصلت رأس أرنب آشيا بوني عن جسده، ورمته في الطين لتغيظها، دون سبب وجيه لهذه العداوة، لم يكن يدرك أحد سر كره هالة لآشيا، والذي يجعلها تسيء إليها حين لا تتجه إليها الأنظار، تشدها من شعرها أو تمزق ثيابها، وأخيرًا ذبحت أرنبها، الصديق المقرب الذي يساعدها على النوم، شهقت آشيا محدقة برأس أرنبها الأنيق، الذكرى الوحيدة المتبقية من أمها، ومن عالمها الماضي بأمريكا، بكل بساطة تقطعه، ولا تعلم ماذا يعني بالنسبة لها، فلقد كان السبيل الوحيد لنومها بهدوء وهي تحتضنه، فهو يحمل بقايا من رائحة أمها، بكت بهستيريا وصفعت هالة ودفعتها أرضًا، وانهالت عليها بالشتائم الإنجليزية التي لم تفهمها هالة مطلقًا، فركضت إلى البيت باكية، تحكي أحداثًا لم تحدث لأمها، لكي تجعلها تعاقب آشيا، لكن الجدة احتضنت آشيا الباكية مطمئنة وقالت لها:

- ما تخافي يا صغيرة.... راح أخيطلك أرنوب أحلى من الرمادي... خلاص لا تبكي... تعي نامي اليوم معي بالتخت.

منذ تلك الليلة، صارت آشيا ظلًا للجدة، تتبعها أينما ذهبت، كان هذا كافيًا لجعل بقية الأحفاد يغارون من آشيا، أحضرت الجدة بعض بقايا قطع القماش، متباينة الألوان، وقامت بخياطتها بما يشبه أرنب، لكن جسده لم يأخذ شكل جسد الأرنب، بل بدا مثل الإنسان بأذرع متباعدة وأرجل طويلة، إنسان بأذنين طويلتين مثل الأرنب، وجلده لا

ينتمي للون محدد، حين نظرت إليه آشيا بإحباط، حكت لها الجدة حكاية الأرنب، وكأنه ولد منذ سنوات رغم أنه ولد بين يديها منذ ساعة، وقالت إنه كان أرنبًا أبيض، بينما لونت السماء جزءًا منه بلونها، وكذلك العصافير والأزهار والكرز والريحان والفستق والليمون، كلٌ لون جزءًا من جسده حتى يتذكره دائمًا وهو يسير إلى نهاية الطريق، راقت القصة لآشيا التي أدركت فقط حروف جدتها، لم تكن تستمع لها بأذنيها، بل بقلبها، وأحبت الأرنب الوليد كما الفقيد، بل أكثر، وظلت تحمله معها في كل مكان، منادية إياه بوني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أحد الصباحات التي لا تُنسى، أخذهم العم محمد للخارج، قائلا إنه سيجعلهم يكلمون والدهم هاتفيًا، فابتهج الأطفال، وحين سأله مازن عن وجهتهم قال:

- نحنا هلأ في قرية اسمها دير مقرن... رايحين على ضيعة مجاورة لأن مامعنا مصاري نجيب تليفون بالبيت... لهيك بنستعمل الهاتف اللي بالضيعة.

- شو معناتا مقرن يا عمي؟؟

- هاد اسم راهب قديم بنى دير بها المنطقة، ومات لما قامت معركة بينه ومن معه من الرهبان ضد الرومان... بعدا سموا القرية مقرن على اسمه... راح فرجيك المكان بس نحكي مع والدك.

الغرفة العتيقة عالية السقف والحوائط المتآكلة والهاتف القديم، حفرت في ذهن الأطفال، تحدثوا لوالدهم، كأنه طوق النجاة الأخير، لم يكن بصوت والدهم أي لهفة، كأنه حدثهم للتو، لم ينتبه أنه مر قرابة الشهر دون أن يعرف أخبارهم، تذرع بانشغاله بالكثير من الأعمال، سألوه عن والدتهم التي حُرموا من أخبارها، وكأنها تبخرت فجأة، ولكنه أجاب بعدم اكتراث أنها نائمة، شعرت آشيا بكذبه، فلا يمكن لأمها أن تنام وتتركها دون الاطمئنان عليها، أخذ عمهم محمد سماعة الهاتف، وانشغل مع والدهم بتفاصيل تخص إدخالهم مدارس، وما يحتاج من أوراق، نقل محمد الصورة للصغير مازن بنبرة حنون - وهم عائدون- ليفهمه سر تأخرهم في الدخول للدراسة الجارية، وهم يحملون الجنسية الأمريكية، واحتياجهم لبعض الأوراق المهمة التي سيرسلها والده إلى سوريا، انتقلت علامات الإحباط من وجه مازن لأختيه، دون أن يفهما سرها، حتى فشل عمهم طوال الطريق في إخراج أي كلمة من أي واحد منهم، مهما بالغ في مداعبتهم، أدرك حجم اكتئابهم، ولكن لم يكن بيده أي حيلة، سوى مداعبتهم واحتضانهم، حتى أهمل أطفاله، فلا يوجد سواه في حياتهم الآن، حين وصلوا المنزل، ورأوا جدتهم التي حضرت لهم طبق كبة البطاطا، الذي يفضلونه، أكلوه بلهفة متناسين.

اشترى لهم عمهم محمد ملابس جديدة للمدرسة، من ماله الخاص، منتظرًا الظرف الذي يحمل أوراق شهادات ميلادهم ووثائق الزواج، أما عمهم محمود فلم ينفق عليهم سوى لعناته، ولم يكن يناديهم سوى يا صغار اليهودية! يرد عليه مازن دومًا قائلا:

- أمي ما كانت يهودية... كانت مسيحية.

- أصلا أمك باعتك وإخوتك لأبوك بخمسة وأربعين ألف دولار... مو بس يهودية ها المرة، ما عندها قلب، عندها المصاري أهم من خلقتك وخلقة أخواتك.... أبوك أخدهن كلياتهن وما نابنا شي من المصاري لحتى نستحملكن!!

يحب دائما أن يذكره بهذه الجُملة التي لا يمكن لذكرياته الحنون مع أمه أن تسمح بتصديقها، فيرد بصراخ:

- كاذب!!

فيرد عليه بصفعة، حتى تأتي الجدة، وتعارك ابنها صارخة، وتأخذ حفيدها بعيدًا لتهدئه، لماذا اليهودية هنا إهانة هكذا، سأل مازن نفسه، كان الكثير من زملائه بالمدرسة من اليهود، وكانوا يتعاملون معهم دائمًا بحب واحترام، لكن كلمة يهودي هنا أمن قبح الشتائم، لم يشعرهم أحد بأنهم في بيتهم، بل كانوا يتناوبون على الإساءة للصغار، وهذا ما لم تفهم له الجدة سببًا، كلما تحدثت لأبنائها ردوا بنفس الحجة (يكفي أن أمهم كافرة)، فتذكرهم أن والدهم هو رامي، أخوهم، لكن دون جدوى!

تمر الأيام دون أن يقدر الأطفال على محادثة والدتهم أبدًا، كأنها نسيتهم، كأنها ما كانت يومًا في حياتهم، في كل مرة يتحجج والدهم بانشغالها أو خروجها، لم يعد الأمر مستساغًا بالنسبة لهم، خصوصًا بعد أن سمع أولاد أعمامهم حديث الكبار عن انفصال محتمل بين رامي وزوجته الأمريكية، وكانت ضحكة العم محمود المتشفية ما أكد لهم صحة الخبر، باتوا يحومون حول مازن وآشيا وفاطمة، سائلين بخبث، هل حقا تطلق أبواهم؟ فينفي مازن ذلك بعصبية، آخر ما تبقى في بيت أمانيهم، لا يمكن أن يقبلوا أن يتهدم، أملٌ بأن تعود الحياة كما كانت في أمريكا، هم الخمسة سويًا، لينسوا ما عاشوه من غربة ووحدة ومعاملة سيئة في مكان يدعي والدهم أنه موطنهم الحقيقي، أملُ بأن يصحوا يوما على لمسة من أمهم تقول لهم:

-I missed you.....let's go Home.

تحملوا الكثير ليحظوا بهذه اللحظة، حتى جاء عمهم محمد ذات صباح، حاملًا المغلف القادم من أمريكا، اقتربوا منه، وشموا رائحته، كأنه يكلمهم نيابة عن أمهم، فتح محمد الظرف، ونظر داخله في بعض الأوراق، وتوقفت حركته حين أمسك بورقة معينة، ثم فجأة أعاد كل الأوراق إلى المغلف، وعلقه أعلى الحائط، بشكل يثير الريبة، كأنه لا يريد لأيديهم أن تصل إليه، عبثًا حاول مازن سؤاله عما بالمغلف، وما إذا كانت أمه قد أرسلت أي خطاب لهم، لكنه قال مصطنعًا الابتهاج أنه سيُلحقهم غدًا بالمدرسة، وأن المغلف يحتوي فقط على شهادات ميلادهم، وأن رسالة والدتهم لا بد وأن تأتي مع المظروف القادم.

لم يستطع مازن النوم، غافل الجدة، ونهض عند الفجر، سار متحفزًا ببطء، حتى وصل إلى المظروف المعلق، حمل كرسيًا ووضعه أسفل المظروف، وقف عليه، ورفع ذراعه فأمسك بالمغلف، يدفع المرء ثمنًا باهظًا دائمًا لفضوله، فلقد كبر في

هذه اللحظة سنواتٍ عديدة من الحزن، فتحه تحت ضوء شمعة صغيرة، وكانت هناك فعلا كما خمن، وثيقة الطلاق!

عندي عتابٌ يا أبي عندي عتابْ..

أبتاه قد علمتني حب الترابْ

كيف الحياة أعيشُها رغم الصعابْ..

كيف الشبابُ يشدني نحو السحابْ

حاسبتُ نفسي عمرها حتى يئست من الحسابْ

وضميري المسكين مات من العذاب

أبتاه..

ما زال في قلبي عتابْ

لمَ لمْ تعلمني الحياة مع الذئاب؟!

فاروق جويدة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

عصافيرٌ جريحة محبوسة في قفصٍ بلا أم، ولا أمل في الطيران من جديد، الآن أفاقوا من أحلامهم، وبدأوا يتأملون الواقع الذي وُضعوا فيه، ما زال والدهم يحتفظ بحياته هناك، رماهم هنا في بلد يُقال إنها وطنهم، لكنهم لا يشعرون فيها بأمان الوطن، وطنهم هي أمريكا التي ولدوا بها، رائحة الهواء التي يحنون لها هي تلك التي تحملها نسمات مدينة باتون روج، عاصمة ولاية لويزانا، لا يزال في مكان ما في ذاكرة آشيا، ذاك البيت الصغير، سريرها الخشبي المطلي باللون الأحمر، الذي كانت تنام عليه، تذهب إليه بسلم مزين بقرود محوشة معلقة على طرفه، لتُضفي لونًا طفوليًا للمكان، وتنام فاطمة في سرير أسفلها، ابتسامة والدتها الدافئة، التي كانت تختفي بحضور والدها، شيء ما ممسوح في ذاكرة آشيا، تتذكر أشلاءه فقط، تتذكر أن والدتها كانت تبكي كثيرًا، تتذكر أن يدي والدها كانتا ترسمان بالضرب على جسد أمها، تذكرت كذلك بعض المشاهد المتفرقة التي لا تعرف كيف تجمعها أو ترتبها، أما فاطمة فلم تكن تحاول تذكر الماضي حتى لا تتألم، كانت تدرك جيدًا أن أمها مظلومة، لا بد تبحث عنهم، لا بد ستعود لتأخذهم، كانت الوحيدة التي تحمل هذا الأمل، رغم أنها تعلم - بعد أن حكى لها مازن عن الطلاق- أن كل السُبل التي تصل الأم بصغارها قد انقطعت، كانت تنتظر معجزة ما، أما مازن فشعر فجأة أنه صار مسئولا عنهم، يتفقدهم قبل أن يناموا، يسألهم ما إذا كان هناك من أساء إليهم من أطفال أعمامهم المشاكسين، فينتقم لهم، يتأكد من حصولهم على الغذاء الكافي، حتى إنه كان أحيانًا يحتفظ بجزء من طعامه ملفوفًا في قماش - تحت السرير الذي يجمعهم هم الثلاثة- بعد العشاء، الوجبة المفضلة لآشيا، وهي الرشتاية ([7])، فتحتضنه الفتاتان بفرحة، وتأكلان ما يحفظه لهما بنهم، متناسين أنهن قد تعشين للتو، لم يكن يحاول تذكر البؤس الذي يعيش فيه، كان فقط يشغل نفسه بمسئوليته الجديدة، أمانه النفسي حين يحتضنهما تحت ذراعيه، كان غارقًا في اليُتم، أبواه على قيد الحياة ويعيش في منزل جدته، وله من الأعمام وأولادهم عصبة، ومع ذلك كان اليُتم ينهش أي فرحة تلامس قلبه، كان خائفًا أن يكون هذا شعور أختيه الصغيرتين، هما أصغر من أن يختبرا اليُتم، ولم، وهو هنا معهما يحتضنهما؟ صار رجلًا بالغصب، وتخلى عن ثوب طفولته ليتسنى للفتاتين أن تحظيا بطفولة شبه عادية، ولكن كيف وهما تشفقان عليه، يداعبانه وهما تتألمان في أعماقهما، تضحكان في وجهه وتخفيان عنه الدموع التي تنساب بحرية حين تبدلان ثيابهما، وقت مستقطع للبكاء لا أحد يشاهدهما فيه سوى نفسيهما، أختان سرهما معًا في بكاء صامت، وقناع واحد من الضحك واللعب، يقتسمانه أمامه حتى لا يزداد جرحًا فوق جرحه، وقد صار الحائط المتبقي في كيان الأسرة، قرروا المواجهة معًا حتى يأتي أوان المعجزة.

انضموا إلى التقليد الأسري السنوي في موسم تجميع الزعتر ذي الأوراق الرمادية، أخذ محمد الأسرة لزيارة مقام سيدنا هابيل، كانت تلك بداية تعرفهم على كل ما تحمله بلادهم في طياتها من تاريخ، شعروا بغبطة شديدة منذ استيقاظهم، وحتى نهاية اليوم، لأنها المرة الأولى التي سيخرجون فيها خارج المربع الذي حُبسوا فيه،

لم يكن الطريق طويلة، لكن أعين الصغار ارتبطت بالكثبان الرملية وحديث الجبال فيما بينها، والسحب وهي تعانقها ساحبة قممها إلى السماء، حكى العم محمد للصغار في الطريق كيف قتل قابيلُ هابيلَ على طريق الزبداني، المكان الذي يجاور قرية مقرن، وقام بسحبه إلى جبل قاسيون، وحفر حفرة ودفنه فيها، توقفت الأسرة يمين الطريق، صعدوا الجبل في طريق ضيق، وهم يرتعشون نشوة وترقبا، فالهواء والصحراء رسما معًا جوًا مثيرًا من الرهبة، شاهدت آشيا الجامع والقبة البيضاء نصف البيضاوية، وشهقت لرقة المنظر وقدسيته، وصارت تسرع الخطوات لتصل إلى داخل هذا المكان، تطلع الأطفال إلى المكان بانبهار، وشعروا بالقشعريرة التي تسبق اكتشافًا هائلًا، لم يروا شيئًا روحانيًا كهذا في أمريكا، نزلوا الدرجات الرمادية المنحوتة في الصخر خلف الزائرين، ودخلوا من المدخل الصغير، وتطلعوا إلى اللوحة التي كُتب على اسم مقام نبي الله هابيل، دخل الأطفال وشاهدوا بأم أعينهم القبة من الداخل، تتدلى منها ثريا كبيرة، والإرشادات البيضاء الثلاثة المُزخرفة بالآيات المحفورة فوق النحاس البني، والرخام الذي تجمعت عليه أيدي الزائرين حول المقام، وقبر سيدنا قابيل كذلك، شاهدوا في تجمع كبير للناس ما كان أكبر من أعمارهم استيعابه، كانت قلوبهم الصغيرة تخفق سريعًا، وأعينهم تحاول استيعاب كل ما حولهم وحفظه بكل تفاصيله، أنهوا رحلتهم بالتطلع إلى مغارة الدم، واستمر العم محمد في وصف كل ما يخصها من حكايات وأساطير يمكن تخمينها من علامة اليد المحفورة في الصخر، وقطرات الدم التي تتساقط من السقف، والجدران الصغيرة الملطخة بالدم، أو هكذا بدت للوهلة الأولى لهم، حُفرت هذه الرحلة في ذاكرتهم، خرجوا من المكان إلى المحلات الصغيرة المجاورة للمقام التي تبيع القماش والملابس المصنوعة يدويًا، فاشترت الجدة عزيزة لحفيدتيها الصغيرتين آشيا وفاطمة عباءتين باللون الأسود، مزخرفة أكمامها برسومات ذهبية لزهور وفراشات، فرحت الفتاتان كثيرًا بهذه الذكرى من المكان، وتلك الرحلة الصيفية قبل بداية العام الدراسي، وتخيلوا أن كل شارع يحمل لهم ذكرى تاريخية ما، ترتبط بأسلافهم، بعكس أمريكا التي لا تحمل من الذكريات سوى ما لأقوامٍ هندية سبقتهم، لا تنتمي لهم بدم، أو حتى تشابه ملامح.

جاءهم أيلول بالصدمات، كلٌ منهم في مدرسة، فرقتهم ساعات الصباح، ومذاكرة المساء، كانت آشيا أتعسهم في أول يوم دراسي، الصامتة في طابور الصباح الذي أُجبرت على الوقوف فيه مع الصغارً، الذين يغنون بصوت طفولي واحد قوي وشجاع:

حُماةَ الدِيارِ عليكمْ سلامْ

أبَتْ أنْ تذِلَ النفوسُ الكِرامْ

عَرينُ العروبةِ بيتٌ حَرام

وعرشُ الشموسِ حِمَىً لا يُضَامْ

كبرت الكلمات عليها، لا يحضر في ذهنها سوى دخولها فصلها في مدرستها في أمريكا، لم يكن عليها قبلها أن تقف كالصنم لمدة لا تقل عن نصف ساعة، منشدة

أغنية ما، بل كانت تذهب مباشرة لغرفة الطعام، حيث يتناول الجميع الفطور قبل بدء الدروس، شكت إذا كانت هذه الكلمات حقًا عربية.

ربوعُ الشآمِ بروجُ العَلا

تُحاكي السماءَ بعالي السَنا

فأرضٌ زهتْ بالشموسِ الوِضَا

سَماءٌ لَعَمرُكَ أو كالسَما

حدق بها المدرسون بغلظة، انكمشت على نفسها، ونظرت حولها محاولة توقع الكلمات التالية من حركة شفاه من حولها.

رفيفُ الأماني وخَفقُ الفؤادْ

على عَلَمٍ ضَمَ شَمْلَ البلادْ

أما فيهِ منْ كُلِ عينٍ سَوادْ

ومِن دمِ كلِ شَهيدٍ مِدادْ؟

لم تستطيع مجاراتهم، بدا لها أن لديها مشكلة ما، شعرت بالضآلة، حاولت تحريك شفتيها دون صوت، لتمثل أنها تشاركهم الغناء، ولكن حركة شفتيها لا تتناسق مع كلمات هذا النشيد.

نفوسٌ أباةٌ وماضٍ مجيدْ

وروحُ الأضاحي رقيبٌ عَتيدْ

فمِنا الوليدُ ومِنا الرشيدْ

فلمْ لا نَسُودُ ولِمْ لا نشيد؟

سكت الجميع، وتوقفت الآلات البدائية الصغيرة عن عزف موسيقى النشيد، فتنفست آشيا الصعداء، ولكن العيون ما زالت متعلقة بها باحتقار، سار طابور الأطفال الذي كانت تقف وحيدة بجواره، فدفعتها معلمة لترشدها أن تلحق بهم، داهمها سؤال، لمَ عليها أن ترتدي ثوبًا مشابهًا لهم جميعًا، مع أنها مهما حاولت لن تشبههم؟ كانت ترتدي ما تحب وهي تذهب مع والدتها إلى المدرسة، لم يكن هذا السؤال الوحيد الذي يجول بخاطرها، كل شيء كان يثير تساؤلها، ببساطة كانت تظن أن مدارس العالم كله تشبه مدرستها الجميلة، كادت تخنقها المباني الصغيرة المتقابلة، والفصول الضيقة، والممرات التي إن لم تُحسن السير فيها سيدهسها زملاؤها، ولم تحمل ساحة المدرسة الضيقة من الطبيعة ما تشابه به روعة مدرستها القديمة، وكانت صورة ذلك الرجل المتكررة في جميع أنحاء مدرستها، تثير تساؤلها، تعبير صارم بابتسامة مريبة ووجه نحيل، خصلات قليلة عند مقدمة الرأس، وشارب يحمل نفس لونها، تأملته طويلا وهي مندهشة من وجوده حتى بالفصل المجتمع فيه

الطلاب، دخلت المعلمة ووجدتها وحدها تقف تحت الصورة تحدق بها، بينما يحدق الجميع بها بتساؤل فقالت لها:

- الله يحفظه رئيسنا الأسد.... اهتفوا يا صغار يلا.

كأنهم معتادون على هذه الكلمة، فهتفوا بها جميعًا في نَفس واحد:

- إلى الأبد يا حافظ الأسد!

دق قلب آشيا بسرعة، بينما أكملت المعلمة:

- سلموا على زميلتكم الجديدة آشيا يا صغار.... ها الصبية لساتها راجعة من أمريكا.... ما تفهم عربي منيح، لهيك بنساعدها تا تبلش تصير متفوقة في دروسا وتلحقنا.... مين منكن تتطوع تجلسا جنبا؟

لم يجب أحد، بل تظاهرت بعض الفتيات بترتيب دفاترهن في حقائبهن المدرسية، حتى يشغلن المكان الفارغ جانبهن بالحقيبة، حدثت آشيا نفسها أن بطاقة النبذ لم تُشهر في وجهها فقط في بيتها، بل وفي مدرستها أيضًا، وربما في سوريا بأكملها، في الصف الثالث يمين الطاولة قبل الأخيرة، كان صبيٌ يجلس وحده، لا جليس بجانبه من اليسار أو اليمين، رفع ذراعه وقال:

- هنا في مكان فاضي.

أثنت المعلمة على الطالب الشجاع، وعرفت آشيا باسمه: عدنان، انحنت آشيا وأمسكت حقيبتها لتجرها إلى حيث يجلس، فنهض مسرعًا إليها، وشد الحقيبة من يدها، ووضعها على الكرسي، كأنها علامة تشير أين ستجلس، وانتظرها هناك، تطلع له الطلاب والطالبات كأنه خائن، سارت آشيا وجلست جانبه دون كلمة، وبدأت المعلمة الدرس، دون أن تحسب حسابًا لوجود آشيا التي لا تفقه شيئًا، وكأنها أنزلت عن كاهلها مهمة تعليمها بمجرد أن رفع عدنان يده، كأنها سلمته الأمانة وعليه أن يتصرف فيها كيفما يشاء، غير مراعية أنه يماثل الصغيرة سنًا، ولكن عدنان كان يشعر بغبطة لتلك الصغيرة السمراء التي رسم الخالق عيونها بما لا يشبه أي فتاة شاهدها من قبل، ولا حتى شعرها المجعد الأسود، لم تكن لغتها هي التي تشي باختلافها، بل شكلها أيضا، فقد شربت كل جينات أمها، جرب إنجليزيته الساذجة معها، فكانت ضحكتها أولى وسائل اتصالها به، وهو يصيغ الجمل بطريقة غير صحيحة، لم يكن يشعر بالخجل، فكلاهما أخرق في استعمال لغة الآخر، كان يعطيها الكلمة الإنجليزية بعدها الكلمة العربية فتحفظها، أدرك بالوقت أنها سريعة الحفظ، يشير لما حوله ويعطيها الكلمات العربية، وكأنها تفك الطلاسم، تجمع الكلمات في قاموس ذاكرتها، قلم، دفتر، كرسي، معلمة، درس، كل شيء يسير بسرعة، لم يستمع لا هو ولا هي إلى الدرس، ولم يكتبوا شيئا مما كتبته المعلمة بالطبشور الأبيض، بصوت خافت كان عدنان يعطيها الدروس الأهم، وما إن انتهت الحصة، حتى تجمع الطلاب حولهما في استراحة، مدتها لا تتجاوز الدقائق، لتبديل المعلمين، سألوها العديد من الأسئلة التي لم تفهمها، والتي كان يجيبها عدنان بالنيابة عنها بكلمة واحدة:

- تركوها لحالها!

ويدفعهم بيديه ليتركوها وشأنها، حتى صاح الطالب المتميز بالفصل قائلا:

- أمريكا وراء الباب.... وراء الباب أمريكا.... لأمريكا سنحفر ظلنا.... ونبول مزيكا... على تمثال أمريكا.

تذكر الصغار الأبيات، فشاركوا زميلهم الغناء، لم تكن آشيا تعلم الكلمات، لكنها أدركت قطعًا أنها إهانة، هي وحدها المعنية بها، عبثًا حاول عدنان إسكاتهم حتى تفرقوا وعادوا لمقاعدهم، بحضور المعلم التالي، لم تبك آشيا رغم توقع عدنان هذا، ولم تصرخ، ولم تتغير حتى ملامحها، كتمت كل شيء داخلها، تحت قشرة صلبة، فقط كان يكفيها تعاطف عدنان معها، لم يعد يستطيع أن يغيب عنها لحظة، مثل قط وليد في حوزته، وعليه رعايته، هكذا تشكلت الصداقة المتينة بينها وبينه، لم تكن تفهم لغته، ولا هو أتقن لغتها، فشكلا لغة خاصة بهما، مدمجة بين اللغتين، هو يعلمها ويحكي لها كل شيء وأي شيء، وهي تكافئه بابتسامة وضحكة وThank you Adnan، لم يعد تجاهل زملائها ونبذهم لها يؤلمها كما السابق، بل إنه من أجل صداقتها لعدنان كان على بعض الزملاء مصافحتها وملاعبتها، خشية أن يفقدوه، بعض الصبية كانوا يلاحقون عدنان بمداعبتهم السمجة أنه أحب الصغيرة، يلاقونه دوما بكلمة:

- وين غاطط ها الأيام؟ لا تكون الصبية الأمريكية السبب؟!

فلم يعد يشاركهم اللعب كثيرًا، لانشغاله بتعليم آشيا الحبو نحو سوريتها المفقودة، كان مازن يحضر دومًا في آخر النهار ليأخذ يد آشيا من يده مندهشًا لحب آشيا لهذا الصبي الذي يكاد يفوق حبها لأخيها نفسه، ولكن حين تقابله بالحديث بلهجة سورية صحيحة، مكررة كلام عدنان، ينشرح فؤاده، ويكملان طريقهما الطويل سويًا، ليأخذوا فاطمة من المدرسة، ثم يعودوا إلى بيتهم، هذه المرة سار مازن بهم إلى الهاتف الذي اعتاد أن يحادث والده منه، لم يخف من تأخره ولم يخف من هذه الخطوة الجريئة التي أقدم عليها وحده، المآسي تعلمنا شجاعة لم نُولد بها، كان يريد إجابات لتساؤلاته، هو وإخوته، لكن جواب الأب ونبرة صوته لم تكن أقل برودة من الوضع الذي هم فيه، لم يندهش حين واجهه ابنه بخبر طلاقه لأمه، فرد عليه كأنه قنبلة غضب موقوتة لاقت سبيلها لتدمر وتهشم ما حولها:

- طردتني القذرة لا تذكرني فيها.... العتب مو عليها العتب على اللي سلمها دقنو تنتف فيها.... الله يلعن اليوم اللي كتبت البيت فيه باسمها... تركتني عشان واحد تاني الخاينة وكمان طردتني من بيتي.... أمك هاي انساها دي مَرَة خاينة ما تتعاشر.

ترك مازن السماعة تسقط من يده، بعد أن قام والده بقذف حممه القذرة على صورة أمه داخله، لم يكن يريد أن يسمع المزيد، باب من القبح فُتح أمامه فجأة، فطارت براءته هاربة، تجمعت الدموع على صفحة مقلتيه، فأوقفتها رجولته المبكرة، وشعر بأطرافه ترتعش، ما أسوء التألم واقفًا، لا تسندك سوى خلاياك الموجوعة، متراكمة

فوق بعضها، لم يعرف كيف يجيب الفتاتين عن أسئلة صمتهم وعيونهم المحدقة فيه، باحثة عن إجابة، ولكنه قال ليقتل ما تبقى من الكلام:

- أمنا لن تعود.

ولم يعودوا كما كانوا أبدًا.

لاحظت الجدة عزيزة الوجوم في وجوه أحفادها الثلاثة، خصوصًا بعد تأخرهم بعد المدرسة، وجوم دام لأيام، فقررت التدخل من أجل التخفيف عنهم، لاطفت الفتاتين، لكن آشيا فاجأتها بجملة:

- أمي لن تعود.

تسمرت الجدة، وهي تحاول فك شفرة الجملة، الصبية محبطة لأن أمها اختفت من حياتها، نظرت إلى وجه فاطمة الشاحب حزنًا فقالت لهما:

- أنا بتذكر أمكن منيح يوم رجعت على أمريكا وتركتن هون.... خبرتني أنها رح ترجع.....

شهقت الصغيرتان للمفاجأة، فلم تعلما أن الجدة التقت أمهما من قبل، فتسابقا في طرح الأسئلة عليها، هدأتهما عزيزة، وحكت لهما بكلمات مختصرة كيف جاء بهم والدهم إلى هنا برفقة أمهم، وحين جاء موعد الرحيل مرضت عزيزة، وأخذوها إلى المستوصف الوحيد بالقرية، وذهبت الأم مع زوجها لنجدة أمه، حتى حان موعد الطائرة، كأنها تستبقيهم بمرضها، لكن رامي أصر على سفر زوجته، وصفت الجدة وجه الأم الممتقع وهي تبكي وذكرت:

- مسكت فيني وحكيتني بالإنجليزية... سبحان الله كيف فهمت عليها... وصيتني عليكن وعلي أني أعلمكن كيف تحبوا بعضكن، وأنها راح تدعيلي دوما بالعمر المديد مشان ما تضلوا وحيدين، ورديت عليها بس ماكان صوتي طالع.. خبرتا أنهم راح يصيروا أولادي، ابتسمتلي وكأنها بتفهم عربي وشكرتني ورحلت بعد إصرار رامي، وقالت أنها بترجع تاخدكن.

امتلأت قلوبهم البريئة بالفرحة، لم تكن أي من الفتاتين تتذكر كل هذا، فقط فاطمة كانت تتذكر وجودها بين الأغراب الذين يعاملونها معاملة سيئة، بعض وجوههم ثبتت في ذهنها حين رأتهم من جديد، وعرفتها جدتها أنهم أعمامها وزوجاتهم، أما آشيا فلم تذكر شيئًا بشكل واضح قبل تلك الليلة التي استيقظت فيها بين ذراعي جدتها، كأن كل ما سبق كان مجرد كوابيس، لم يعد لدى عزيزة المزيد من الأجوبة عن أسئلتهم، فحولت بؤرة اهتمامهما لمجموعة من الصور، أخرجتها من درج بجوار سريرها، صورة قديمة باللونين الأبيض والأسود لرجل يشبه كثيرًا والدهما، أو بالأحرى والدهما هو الذي يشبهه، أثار هذا اهتمام فاطمة، فظلت تلمس أطراف الصور بأناملها، كانت صورة جدها غسان، الاسم الذي كان دومًا يثير فضول زملائها نحوها في مدرستها الأمريكية، ما معنى غسان؟ أعادت السؤال الذي وُجه إليها كثيرًا على مسامع جدتها، فضحكت من قلبها وقالت:

- غسان هو الحب.... هو الحياة.... هو الدنيا... هو الهوا اللي عم تتنفسه.

- الهوا اسمه غسان؟

ضحكت الجدة طويلًا حتى سعلت، فسألتها فاطمة عن هذا الرجل الذي لم تكن تعلم بوجوده، أدركت فاطمة مقدار الحب الذي كان يجمع الجدة عزيزة بغسان، جدها الذي توفي قبل ولادتها، قلبت في الصور التي جمعت ملامح غسان مع بعض الأصدقاء، ومع زوجته عزيزة في صورة زفاف اصفر لونها من قِدمها، وتهرأت أطرافها، فيها غسان يلف ذراعه حول خصر عروسه التي بدت فاتنة، غيرتها السنين كثيرًا عن العجوز الجالسة أمامها، وكأنها فتحت باب الحنين على مصراعيه، فباتت الليلة تخطو رويدًا بين ذكريات جدتها، اندهشت حين علمت أن غسان كان في الأصل زوجًا لأخت عزيزة، كانت الجدة تضحك وتداعب خصلة شعرها وكأنها عادت صبية، حين تتحدث عن الماضي الذي يخص فترة زواجها، كيف كانت تنظر له كأخ في البداية حين كان يزورهم في فترة خطبته لعائشة، وكيف ظلت تضحك عليه وهو يرقص الدبكة في زفاف أختها، وكيف عاشت بمنزلهم حين حملت عائشة بطفلة، وماتت حين ولدتها، فكرت آشيا قليلا في عماتها هل هي العمة رولا؟ أم العمة سمية؟ أكملت الجدة أن غسان تزوجها في خلال شهرين، بعد موت أختها، لتهتم بالصغيرة بلا عُرس أو تردد، أكملت الجدة قائلة إن الطفلة التي جمعتها وغسان في زواج توفيت بعد أمها بشهور قليلة، مما جعل نساء القرية يتهمنها أنها قتلتها لتحظى بغسان الوسيم لها وحدها، تأففت عزيزة من كيد نساء القرية، وأكملت نسج خيوط حكايتها عن علاقتها بغسان التي تحولت من حزن على الراحلة وغرابة الوضع لحبٍ جارفٍ غذته طبيعة غسان التي تفيض حنانًا، فعزيزة كانت من أجمل نساء القرية، بشعرها الليلي الطويل الذي طالما أمسك غسان بطرفه حين تستدير حانقة عليه، فيقبله، يقبل أطرافه، ولا تشعر بقُبلته، ولكنها تسمع صوتها، فيدق قلبها بسرعة، لتعود إلى أحضانه، كان يعشق ضحكتها الرنانة وقوة شخصيتها، ويذبل وجهه حين يتملكها الحنق أو الغضب. كانت آشيا تراقب جدتها كالمسحورة، لا تستوعب فقط إلا الحب الذي تعزفه نبرة صوتها، بينما فكرت فاطمة أنها تفضل حكايات جدتها مع غسان، على أجمل حكايات الحب التي سمعتها في أمريكا، فكلهم حكايات منسوجة، أما جدتها فها هي بطلة الحكاية عجوز أمامها، تحكي لها من قلبها ما يجعله يدق متلهفًا وكأنها تعيش اللحظة من جديد، بقيت صورة جدها في أعماقها، تحمل الكثير من الحب والشوق، الشوق للقاء رجل لا يمكن أن تلتقيه إلا في حكايات جدتها، ولتشرب قليلًا من كأس حنانه الذي امتلأ وفاض حتى كفى أباها وإخوته والجيران وكل من يسمع سيرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يحب عدنان أن يداعب آشيا، دائما يلتقيها في الصباح قائلا:

- وردة مع أحلى التماسى لأعز وأغلى ناسى..... بالحلبى أبوس روحك وبالشامى تشكل آسى!!

فضحكت آشيا وشبكت يدها في يده، وكم كانت بحاجة إليه، لم يكن ذلك اليوم يحمل لها في طياته سوى المتاعب، حين جاءت حصة الرسم، وكان الموضوع هو رسم عَلَم البلاد، فأخرجتْ من علبة الألوان اللون الأزرق والأحمر والمسطرة التي تحمل فيها تجويفًا على شكل نجمة، رسمت مباشرة دون تفكير على الورقة، وشعرت بالسعادة لأنها أخيرًا ستتقن شيئًا اعتادت فعله، وما إن انتهت من رسم الخطوط الحمراء والمستطيل الأزرق، وشارفت على الانتهاء من التلوين بين النجوم لتصنع مساحة زرقاء على اليسار من العلم، حتى سمعت شهقة عدنان إلى جانبها قائلا:

- هاي علم أمريكا يا عيب الشوم.... يا بت شو دخلنا في اللون الأزرق راح تفضحينا.... شوفي شكل العلم تبعنا تلات خطوط واحد أخضر والتاني أبيض والتالت أسود والنجوم بالنص... شوفي كيف؟... ارسمي غيرها بسرعة.

اقترب منهم زميل، بعد أن اكتشف الحكاية، فصرخ:

- بنت الإسرائيلية... رسمت علم أمريكا.

فتطلع إليها الصف كاملًا، كل أوراقهم بها نفس العلم، إلا هي، جاءتهم المعلمة قائلة:

- شو ها العجئة ([8])؟....

وحين رأت العلم، نسيت أنها هي بنفسها من أحضرها إلى الصف ذات يوم، وهي لا تعرف شيئًا، تعاملت معها بحقد جاهل، ولم تقدِر أي شيء يخص خلفيتها قائلة:

- العيب على أهلك اللي ما ربوكي منيح لحتى ما تقدري تعرفي شو شكل علم بلدك، كيف رح بتكبري وتحبي وطنك وإنت لحد ها السن مابتعرفي نحنا وين على الخريطة!

- راح تصير جاسوسة لما تكبر!!

ضحك الطلاب حين سمعوا تعليق زميلهم على كلام معلمته، كانت آشيا تتألم، هي حقًا لم تكن تحفظ غير رسم خريطة أمريكا، وأسماء ولاياتها الخمسين، بل كانت تتباهى بقدرتها على حفظهم جميعا وترتيبهم، وتتذكر جيدًا الأغنية التي كانت فيها جميع أسماء الولايات، تحفظها عن ظهر قلب، بينما حاولت الشهور الأخيرة أن تحفظ النشيد الوطني السوري الذي سمعته في طابور الصباح في أول يوم دراسي، حتى تتمكن من نطقه مثلهم، مع أنها لم تستسغ فكرة أن تُثبِت وطنيتها بحفظها لهذا النشيد، ولا تفهم سببًا لإجبارها على ترديده كل صباح، كأنه تعويذة تحفظ الوطن بأصوات أطفاله، كانت طوال ساعة الطعام تسترجعه مع عدنان، الذي حاول جاهدًا أن يجعلها تحفظه دون جدوى، فتحت كتابها الدراسي وتطلعت لشكل الخريطة التي تضم سوريا، تطلعت إلى النجمة التي رسمها لها عدنان على محافظة ريف دمشق التي تضم قريتها، قرية دير مقرن، وكيف تحيط المحافظة كدائرة خارجية بدمشق، وكيف أن سوريا بأكملها في قارة، وأمها الآن في قارة أخرى تمامًا، لم تكن تعي حتى وجود سوريا، ولم تر يومًا هذه الخريطة، لم تعلم إنجازات الثورة السورية، ولم تكن تعرف من هو حافظ الأسد، وكيف أوصله انقلابه العسكري - وهو علوي-

إلى كرسي الحكم، ولم تعلم شيئًا عن تاريخ الاحتلال الفرنسي في سوريا، كان كل درس بالنسبة لها طلسمًا، بينما بالنسبة لأقرانها، مجرد تذكرة لحكايات يحكيها لهم آباؤهم يوميًا بفخر، كان عدنان يدرك ذلك، ويحاول دومًا تعويضها عما فاتها، من شخصيات لا تعرفها، تراث لا تعرفه، أغانٍ حفظوها عن ظهر قلب منذ الصغر، ولم تسمع هي بها، حتى جاءها يومًا منشدًا:

يا الأسمر اللون.... يا الأسمراني

تعبان يا قلب خيو.... هواك رماني

يابو عيون وساع..... حطيت بقلبي وجاع

بعطيك سبع رباع خيو..... من عين رسمالي

ثم مال برأسه، وابتسامته مشرقة، مشيرًا إليها وهو يكمل مندمجًا:

يابو كمر فضة..... وعليش هالبغضة

بعطيك لترضى خيو..... من عين رسمالي

لبس خاجيتو..... شلح خاجيتو

ماني محاكيتو خيو..... هالأسمراني

وحين سألته عن الأغنية، بضحك ممزوج بدهشة، قال لها بدهشة أكبر:

- ما سمعتي صوت صباح فخري فيها؟ والله أغاني تراثنا بتطير العقل.

- ها الغنية اللي بتطير العقل؟ ولا سماري طيرلك عقلك؟!

- الله الله.... أيوه طبعا... قولي بيضا واسكتي وقولي سمرا ووصفي!! ([9]) بقيت آشيا تلك الليلة تردد خلف عدنان كلمات الأغنية، لتحاول حفظها، ثم فاجأت جدتها في المساء حين دندنت بها، احتضنتها الجدة فرحة، كأنها أحدثت إنجازًا، فها هي حفيدتها تزداد سوريةً يومًا بعد يوم، فهي التي تأخرت عن إخوتها حتى في استيعاب اللهجة السورية، أما الآن فقد تقدمت عليهم، وباتت تعرف حتى أمثالًا لم يسبق لهم أن سمعوا بها، يتحاكى بها الأهالي كأنها جزءٌ لا يتجزأ من هويتهم، حتى هالة ابنة عمتها التي لم تتوقف يومًا عن مشاكستها، رمتها - وهي خارجة من الحمام تربط شعرها المبتل- بقولها:

- مثل القردة وشاكلة براسها وردة!

فما كان من آشيا إلا أن تطلعت لها لثوانٍ، تستحضر ما قاله لها عدنان، ثم ردت بثقة:

- الكويسة كويسة من فيقت مناما والبشعة بشعة من طلعة حماما!

صحيح أنها تلقت صفعة من عمتها، حين جرت هالة باكية إلى أمها، قالبة حقيقة الموقف، لكنها شعرت بارتياح كبير، أنه لم يعد هناك همز ولمز ورمي بالكلام الذي

لا تفهمه، تلك اللعبة التي كانت تمتهنها هالة، وتستمتع بها مستغلة جهل آشيا، ابتسم مازن لهذه الحكاية، فما كان لها بدٌ من أن تحكيها له، حين رأى آثار الضرب على وجهها، ولكنه شعر بالارتياح، فلم يعد عليه أن يحميها بعد اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برودة آذار التهمت أطراف الصغار، فكانت الجدة تخيط لهم بعض الصوفيات لتقيهم سم الثلوج، كانوا يلتصقون بالمدفأة الصغيرة في الغرفة الخلفية، محاولين اصطياد النوم، وعزيزة تضيف العديد من قطع الخشب الذي لا يحتاجونه للمدفأة، كانت تقول لهم دائما محذرة مما ينتظرهم من برودة في الجو:

- خبي فحماتك الكبار لعمك آذار.

وكان العديد من أفراد الأسرة يتجمعون حول المدفأة، صامتين دون حراك، كلٌ يغوص في أفكاره، فالأفكار في الليالي الباردة تتدفأ متجاورة في عقولنا، لا ننجو منها إلا حين نمر عليها جميعًا، حتى جاء مساء دخل العم محمد على الصغار وهم نيام، أيقظهم ببطء، وأخذهم للصالة ليقابلوا الزائر المتأخر، والدهم حضر من السفر، لم يرتموا في حضنه كما السابق، تغيرت صورته في قلوبهم، بعد أن سبق أبوته جفاؤه للقائهم، وصار لا يختلف في نظرهم عن عمهم محمود، الذي لا يضيع فرصة ليحرق قلوبهم، تطلع إليه مازن بوجوم وحذر، وأمسكت الفتاتان بطرف قميصه مختفيتين خلف ظهره، شجعهم عمهم محمد، ودعاهم للجلوس، لم يحضر معه هدايا ولا عبأ أصابعه بالحب، ولا وجهه بابتسامة، حتى لو كانت فارغة، شعرت آشيا أنه ينظر لهم كما كان ينظر إلى أمهم، لم ينجح في إخفاء احتقاره، حاول محمد تلطيف الجو بالترحيب به بكلمات لينة، وإخباره بمدى شوق أطفاله للقائه، كلمات وضح كذبها في أعين الأطفال المتوجسة، تراجع محمد وتركهم مع والدهم الذي لم يروه كل تلك المدة، بدأ في الحكاية دون أن يسألوه، كيف أخذت أمهم أمواله وخانته مع رجل أمريكي، واصفًا تصرفه بالشهم حين تنازل لها عن المنزل ورحل، وأكمل ليستدر عطفهم قائلا إنه اضطر أن ينام على قطعة كارتون في الشارع، التفت إليه مازن باندهاش، لقد أخبره في الهاتف إنها طردته، فكيف يقول الآن إنه هو من تنازل لها عن المنزل بعد الطلاق ورحل، إذن كل هذا كذب، هو لا يتذكر ماذا قال منذ أشهر، لهذا يحيك لهم قصة مختلفة، لكن الخيانة موجودة في القصتين، تلك الحكاية التي حُفرت في ذهن الصغار، لم يحاول حتى أن يختصر في تفاصيلها القذرة، مراعاة لشعورهم، بقي تلك الليلة كاملة وهدفه واحد، أن يشوه صورتها بداخلهم، حتى ينسوها، وحتى يبقى اسمها جرحًا فيهم، حتى يشاركوه كرهه لها، فما كان منهم إلا أن صموا آذانهم، تذكر مازن أغانيها قبل النوم، صوتها لا يزال حيًا وكأنها تغني الآن أمامه، هو أكثر إخوته احتفاظًا بذكرياتها وذكريات بيتهم القديم، تابع الأب كيف خسر كل أمواله بسببها، وأنه يحتاج البقاء هناك سنوات أطول ليعيد تكوين أموالٍ تسمح له بالعيش في مستوى محترم، حتى إنه تجرأ وقال إنه يضحي من أجلهم ببقائه هناك دونهم، فسيصعب عليهم الحياة في هذا الوضع، واستطرد قائلا:

- هون بتعرفوا هويتكن الحقيقية.... شوف يا مازن كيف أختك آشيا تحكي عربي... جبتكم هون لحتى تتعلموا دينكم صح... تتعلموا الإسلام ولا تمارسوا عادات وتقاليد ما تناسبنا...

دمعت فاطمة، وأمسكت بيد آشيا، وضغطت عليها، فنظرت آشيا لها، ثم نقلت نظرها لأخيها الذي بقي يحدق بصرامة في والده، سكت للحظات ثم قال:

- بابا أنت بتعرف كيف تصلي؟!

تطلع الثلاثة إلى مازن باندهاش، فهمته فاطمة، فهي قبلًا لم تر والدها يومًا يصلي، فهمت الرسالة، أن كل هذا الحديث كان محض هراء، لم يُعدهم لسوريا ليتعلموا الإسلام، فهو نفسه لا يعرفه ولا يعمل به، أما الأب فنظر إلى ابنه بغضب وقال:

- شو دخلك أنت يا كلب.... راح ربيك هون من الأول...

وحال العم محمد بين الأب وابنه، بعد أن بقيت علامات الضرب على ظهره وكتفيه ووجهه، بكت الفتاتان، ولم يجمعهم حديث بأبيهم طوال أيام إجازته، حتى عاد من حيث أتى، تاركًا بينه وبينهم شرخًا لا يُمحى، وظلوا يحاولون محو هذه الذكرى الأليمة من نفوسهم، فترة طويلة من الزمن.

دائمًا هو الحب الأول خرافيٌ مجنون،

حتى ولو تأخر إلى آخر العمر،

يجيء مراهقًا

محمد حسن علوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

في السابع عشر من نيسان من كل عام، كان الجميع يحتفل بعيد الجلاء، يوم سحبت فرنسا جيوشها من سوريا، القنوات التليفزيونية تعيد إحياء هذه الذكرى، بما يتناسب معها من أغنيات شعبية ومسلسلات وأفلام، اعتادت آشيا خلال السنوات التي قضتها في سوريا أن تستيقظ قبل الجميع في يوم إجازتها المدرسية، لتشاهد على التلفاز مظاهر الاحتفال الشعبي، لكن جدتها جاءت بخطوات سريعة وأغلقت التلفاز البني العتيق، وقالت لها قبل أن تستاء إنهم اليوم ذاهبون في رحلة جميلة ستسعد قلبها قطعًا، هكذا كانت الجدة عزيزة لا تخبر آشيا بخبر إلا ليفرحها، فهي تعرف ما ينقصها في هذا البيت، الفرح والحنان اللازمان لهؤلاء الأولاد التائهين، ذهبت أسرة غسان كلها من الصباح الباكر لزيارة بحيرة زرزر، بسهل الزبداني، البحرية الصغيرة التي أسرتْ قلب آشيا منذ التقطتها عيناها في بداية الطريق، اندهشت لمياهها التي لا تؤثر فيها الرياح، قطراتها في سبات عميق لا تشكل أمواجًا، وأشجار الصنوبر سوار يلفها، سارت تحت ظلها منبهرة، وتلمست جذعها، احتوت أطراف البحيرة بعينيها، وتطلعت لصورتها منعكسة في مياهها، اقتربت بوجهها لمرآة المياه، ومدت يدها، لكن عزيزة جرت بسرعة لا تتناسب مع سنها، وأمسكتها، وشدتها بعنف بعيدًا، حتى فزعت آشيا وصرخت، بالغت عزيزة في تضخيم حكايات الغرق التي شهدتها هذه البحيرة بسبب مياهها الطينية الراكدة، وكأن الذي يتطلع إلى سطحها عليه أيضًا أن يحذر، صورت البحرية وكأنها وحش أسطوري، وأن النباتات المائية في القاع تلتف حول أرجل السباحين، فتمسك بهم لتشدهم أكثر وأكثر إلى القاع، ولهذا مُنعت السباحة في البحيرة، وقف مازن عند البحيرة متمعنًا فيها، وهو يتخيل قصص جدته، إذن ففي هذا المكان لقي الكثيرون حتفهم، تُرى كيف يبدو الموت؟ أهو مخيف؟ أم أنه حقًا راحة؟ أخرجته من أفكاره فاطمة وهي تمسك بيده، نظروا للجهة الأخرى، حيث يلعب أكرم ومعتز وموسى الكرة الطائرة مع أولاد العمة رولا، وشاركتهم هالة اللعب، فبقيت آشيا وإخوتها تحت ظلال أشجار الصنوبر يتطلعون في البحيرة، كان المكان ساحرًا، وكأنها جنة صغيرة، واحة ظهرت لهم في الصحراء، جوها رغم ما يحيط بها من أقاويل الموت مثيرٌ للسكينة، كأنك يمكن أن تتطلع إليها وتغوص بأفكارك دون أن تغرق، ولا حتى في حيرة الكون، بل إن التفكير مندمجًا مع رائحة مياهها وظل أوراق أشجارها يُشعرك بلونٍ آخر للحياة، راقبوا تجمعات السياح واستمتاعهم بالمكان. بينما الرجال مهتمون بشي اللحوم، كانت عزيزة - تشاركها نساء العائلة في تحضير التبولة والسلطات والخضروات- تراقب اندماج مازن وفاطمة وآشيا من بعيد بنصف عين، لاحظت أنهم يلعبون وحدهم، ونبهت العم محمد لذلك، مما جعله يناديهم وينادي أولاده، وقال:

- معتز خذ أولاد عمك يلعبو في فريقك.

- منا محتاجين لاعبين.

- عم قلك خليهن يلعبوا معكن لا تكون أناني.... يلا يا مازن روح العب معهن... وأنتِ كمان آشيا وفاطمة روحوا العبوا معهن.

تأفف الجميع لهذا، خاصة محروسة زوجة محمد، وقالت:

- مو مستاهلة كل شوي عيونك عليهن، أبوهم ما عطانا مصاري لحتى نعطيهم كل ها الاهتمام الزايد.... كرمالهم بتعمل أشياء ما بتعملها حتى لأولادك ليش عم تسوي هيك؟؟ هن كبروا خلاص وإنت عم تدلعهم زيادة خليهن يتعلموا يتكيفوا لحالهم...

- كيف بيتكيفوا والصغار عم يسيروا ورا مشاعر الكبار؟ لو كنتِ علمت أولادك كيف يعاملوهم مثل إخوانهم ما كنت اضطريت أزود من اهتمامي فيهن.... لا تنسي أنهم عايشين هون بدون أب ولا أم.... مو كل شي لازملها مصاري هادول أولادنا ومن دمنا....

- قصدك من دم الأمريكية...

- يا ستي اللي بيدخل بين الحرير والشال مابنوبه غير تعب البال... الرجل ومرته طلقها ولا ما طلقها شو دخلنا إحنا؟ ولا شو دخل الأولاد في جنسية أمهم.... وشو دخلك إنتي بها الموضوع حاطيتها في بالك كأنها ضرتك....

- لا ضرتي ولا شي، الله يسعدها ويبعدها... بس الأولى تكون محروق هيك على أولادك اللي من صلبك مو أولاد الغير...

- محروسة هاي آخر مرة بسمحلك تتكلمين عنهم كأنهم أغراب... هادول أولاد أخي لازم إنتي كمان تهتمي فيهن وتعامليهم مثل ولادك وأحسن!

- ماعندي وقت لحتى أهتم بعيالي ليش بأتعب حالي مع أولاد الغير؟

وهنا تدخل العم محمود، حين احتد النقاش وقال:

- زوجتك معا حق يا محمد.... دلعك الزايد لهدول الصغار مخليهن مو متحملين المسئولية.... شوف كيف أولادك بيساعدوك بالشغل وأولاد رولا بيساعدوني في المرزعة.... كله عم يكون إلُه دور بالبيت والأسرة، وأنت ما بدك تخليهم يعملوا أي شيء ولا يشاركوا بأي شيء...

- لما تشاركهم أنت بالأسرة وتخليهم يحسوا أنهم وسط أهلهم ماكنت استنيت كل ها المدة...

- خلاص من بكره خلي مازن يجي يساعدني بالمزرعة بعد المدرسة.

فأشرقت محروسة للفكرة وقالت:

- إيه صحيح هاي فكرة منيحة وبتخلي الأولاد يتعاملوا مع بعض في الشغل، وكمان بتبعده عن أولادي، وتقلل من مناقرتهم لبعض... شوف كيف حتى بيتناقروا باللعب...

تطلع محمد إلى مازن وهو يتلقى الدَفعات من معتز، كأن الآخر قد نسي أنه من فريقه وليس الفريق الآخر، تنهد بحزن وانصاع لكلام أخيه، نادتهم الجدة عزيزة لتناول الغداء، تناول الجميع طعامه بلذة لهذا التغير الذي طرأ على يومهم بتناولهم الطعام في الهواء الطلق مع المياه والأشجار، مما أضاف مذاقًا جديدًا لكل شيء تناولوه، ولم ينغص عليهم سوى دعوة عمهم محمود لمازن لمساعدته في عمله، كان العم محمود فظًا في معاملتهم كأنهم أعداءه الصغار، لذا لم يكن مازن مرحبًا بالفكرة، خصوصًا أن عمه محمود اعتبره أمرًا لا سؤالًا، كان يلكزه بنظراته وهو يخبره بهذا الطلب، لم يكن العم محمود محظوظًا قط في حياته على حسب ما عرف مازن، كما لم يكن محبوبًا كذلك، لا من أسرته ولا من أصدقائه ولا حتى جيرانه، بدا له أن تلك القسوة ناجمة عن النقص، فلم يستطع أن يرفض، وعادوا لبيتهم في آخر النهار متمنين ألا ينتهي اليوم، الذي بدا كساعة زمن، كانوا مثقلين بالذكريات وخائفين مما هو قادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت آشيا بوحدة غير عادية حين التحقت بالمدرسة الإعدادية، بعيدًا عن صديقها المقرب عدنان، لم يعد يجاورها في الكرسي، ولا تستعمل قلمه حين تنسى جلب قلمها، ولا تشاركه طعامها، مراقبة وجهه المشرق وهو يلتهمه، فتنفتح شهيتها للحياة، لكن ما ساعدها هو أنها في مدرسة جديدة وأناس جُدد وهوية جديدة، قابلتها الفتيات بترحاب، ولم تمانع أي منهن في جلوسها جانبها، كن يضحكن لتعليقاتها ويساعدنها على تفهم دروسها، كل شيء تغير، ولم يعلم أحد جنسيتها المنقسمة بين وطنهم ووطن أعدائهم، سرعان ما كونت صداقات، خصوصًا بعد انضمامها لنشاط القراءة في مكتبة المدرسة، فرغم أنها حتى السادسة من عمرها لم تكن تتحدث العربية، فقد عشقت اللغة العربية، ونهلت من الكتب، وكأنها ستطير من بين أناملها في أي لحظة، كانت آشيا تحس بهذا الشعور المؤلم في كل شيء في حياتها، أنها قد تفقده في غفلة كما فقدت أمها وحياتها ودميتها القديمة بوني، حصلت على جائزة أكبر عدد من الكتب المستعارة بين طالبات المدرسة، مما لفت النظر إليها، شاركت في مجلة المدرسة بمقالات تحليلية لما قرأته من كتب، حيث شجعتها بثينة صديقتها الجديدة، والتي كانت الفتيات يطلقن عليها لقب هتلر، نظرًا لحماستها في نشر الأخبار السياسية الداخلية والخارجية، وكتابتها عن آراء ومواضيع أكبر كثيرًا من سنها، صاحبة العيون التي تحمل لونين لا يمتزجان، الأخضر والعسلي، مما يجعل من الصعب عليك التركيز فيما تقول، لولا صوتها الذي يتغنى بالحماسة في نبرات موسيقية محفزة، وشعرها المائل للأشقر، الذي يشي أنها ستكون فاتنة حين تكتمل أنوثتها، كما حدثتها أنها تتمنى لو تصير صحفية في يوم من الأيام، لم يكن أهلها فرحين بهذا، بل كان الخوف يتملكهم خاصة بسبب انحياز ابنتهم الصغيرة للمعارضة، وقراءتها الناقدة لكل ما يخص حزب البعث الحاكم وأعضاءه وسلطاته، ولم تكن معجبة بشخص الرئيس حافظ الأسد، وحين كانت تذكر ما يشير إلى ذلك، تتلقى ردودًا متشابهة:

- ما راح تكملي معنا العام شكلك.... بتروحي وراء الشمس!!

مما دعا العم محمد لتحذير آشيا، بخصوص صداقة هذه الفتاة، ولم يكن عمها محمد وحده من يفكر هكذا، حتى إن عدنان نفسه أدهشها بفكره المعاكس تمامًا لفكر بثينة، بل إنه كان يمضي النهار يرد على اتهاماتها لعائلة الأسد، وكأنه أحد أفرادها، لم تجد آشيا مبررًا لهذا الدفاع المستميت من قبل عدنان، إلا حين شاهدت والديه، واستمعت لآرائهم، لقد تربوا على عبادة آل الأسد، ولكن آشيا كانت تحمل من العناد ما يجعلها لا تستمع لأحد تقريبًا، حتى إن عدنان أطلق عليها فجأة لقب آشيا مقص، وحين سألته عن السبب فقال لها:

- ما تعرفي قصة المقص؟ كان في ملك أمر وزيره في يوم أنه يحضر له أعند الناس، بحث الوزير وسأل، بعدين وجد رجل حكيو عنه أهل بلدته إنه أعند الناس، فخلاه يروح لعند الملك وسأله الملك في جيبي شيء مذكر نستخدمه للقطع فرد (مقص)، قام الملك قال لا مو مقص اختر شي غيره، قالو مقص، قالو عم اقلك مو مقص، قال مقص، طلع الملك من جيبه، فكان سكين، فالرجل العنيد اللي مثلك آشيا استمر عم يقول مقص، حكاله اتطلع فيه، قال مقص، قال الملك إذا ما غيرت إجابتك راح أرميك في البحر، قال مقص، قال الملك خذوه وارموه في البحر، ولما نزلوه في البحر، وقف الملك في شباك قصره ويسأله شو هو الشي؟ عنده أمل يغير إجابته وما يقول مقص، وحين غمرته المياه رفع إصبعيه السبابة والوسطى وصار يحركهم كأنه عم يقول مقص!!

بيذكرني فيكِ كتير يا صبية.

- هاد مو عناد، هاد غباء... بعدين أنا بستمع للي بحبه وبس.

- وأنا ما بتستمعي لي؟

- إي طبعا باسمعلك تقبرني - له له شو ها الحنية المفاجأة... كأن الحب غيرك... مو قلتي عم تحبيني؟

- أنا قلت هيك؟

- إي مو قلتي بتستمعي بس للي بتحبيهن.

- إيه عم حبك بس مثل مازن بالضبط.

- شو ها الحكي يا بنت؟ أنا أحلى كتير من مازن.

ضحكت آشيا، وتمالك عدنان نفسه محاولًا تغيير الموضوع بالمزاح، مطمئنًا نفسه أنها لا بد ستحبه في يوم من الأيام، ورد عليها مازحًا يترنح واضعًا يده على صدره وهو يغني:

- يا بنت دمع الولف نشف شوبكِ.... إحنا ابتلينا بحق إنتي شو بكِ..... حالف يمين عطر الندى رشو بكِ..... ليشم أهل الخلد ريحة وردنا!

- الله قديش بحبه وديع الصافي.

- بتحبيه مثل مازن كمان؟

فضحكت مرة أخرى، ودفعته في مكان قلبه، تسكعا في طريق العودة إلى المنزل، فبعد كل يوم دراسي كان يأتي ليصطحبها، ويختلس حديثًا دافئًا معها طوال الطريق، يجعله سعيدًا ما تبقى من اليوم، وقادرًا على التركيز في مذاكرته دون أن يشتته سؤال نفسه إليه: ترى كيف هي آشيا الآن؟ هل هي بخير؟ ترى ماذا تفعل؟ ولم يكن يعلم ما يحدث لآشيا حين تعود ويراها عمها، لم يكن محمود ليفوت فرصة كهذه لضربها وتحذيرها من كلام الناس، وأنها ما عادت صغيرة لتلعب مع هذا الولد، ولكنها كانت أكثر عِندًا مما يتسع صدر العم له، فلو أنه استمر بضربها كل يوم وحتى نهاية الكون، لما كفت عن الحضور كل يوم برفقته، كأن أحدًا لم يحذرها، عنادها هذا كان يصيب العم محمود بأقصى درجات الجنون، وهو يضربها كأنه يريد دفنها حيث هي، لم تكن تُحقق له ما يريد بصوت صراخها، فهي تتعمد كتمان ألمها من ضرباته وصفعاته المتلاحقة، حتى تخلصها عزيزة من يديه، وهي تلعنه، ثم يجعله هذا في النهاية يستسلم بنوع من الملل، فقد كان يتلقى الإهانات دائما من أمه وأخيه الأكبر، كلما تعرض لآشيا بالضرب، حتى إنه تمنى في لحظة غضب أعمى موتهما، ليتسنى له معاقبة هذه الشقية بما يليق بها، أما آشيا فكلما ازدادت وحدةً، ازدادت عِنادًا.

مازن الذي نسي العالم خارج قوقعته، فلم يعد يملك من الوقت ما يكفيه ليبقى مع أختيه، يعود من المدرسة لمساعدة عمه مباشرة، فيبقى يعمل طويلًا، حتى أثر ذلك على استذكار دروسه، مما أشعر أختاه بوحدة قاتلة دونه، وأتاح لأولاد عمه مضايقة فاطمة وآشيا كثيرًا، دون أن يُطلعا مازن على ما يحدث لهما، خشية أن يزيداه همًا على همه، يعود مدمرًا مرهقًا في المساء فيخلد للنوم حتى الفجر، يصحو بعدها ليذاكر، ثم مباشرة إلى المدرسة، حتى لم يعد يذهب مع فاطمة أو آشيا إلى المدرسة، أو يصطحب إحداهما عائدًا، فكان الحمل على أكتافه يذيقه من الألم ما يجعله ينسى آلامه الأخرى قلقًا على إخوته، لم يعد مازن يشارك أختيه غرفة النوم، فلقد نضجت أنوثة فاطمة وتفتحت وهي في الثانوية، لاحقتها عيون الرجال بمجرد خروجها من المنزل، تلوت رموشها واحمرت خدودها وباتت منحنيات جسدها واضحة، فردت جناحيها الملونين واختبرت الطيران بين نظرات الانجذاب، كانت تشعر بخوف وقلق من اتجاه العيون إليها، لأنها لم تألف التفاعل مع الجنس الآخر، فبدل أن يُشعرها اهتمام الرجال بها بالزهو، أضرم نارًا جديدة لمخاوفها، لم تكن فاطمة بقوة آشيا، بل كانت رقيقة ضعيفة صامتة، ترضى بالقليل في سبيل السلام النفسي، بعيدًا عن المشكلات، لهذا لم تستسغ تصرفات أختها الصغيرة ولا حتى آشيا كانت مقتنعة بنهج أختها في الحياة، اندهش الجميع في تلك الظهيرة حين صفع موسى فاطمة، فور رؤيته لها عائدة من المدرسة، متهمًا إياها بالتبرج، لم تكن تعرف حتى شكل مساحيق التجميل، أو كيفية استخدامها، لكن حرارة الشمس وردت خديها وزادها احمرارًا صفعة موسى، الذي تذكر فجأة أنها قريبته، لم ترد ولا حتى بكلمة، بل انهمرت دموعها وهي تركض باتجاه الغرفة الداخلية الخاصة بجدتها، بكت فاطمة كثيرًا في أحضانها، فأثار ذلك غضب آشيا، وعزمت على الذهاب لتلقينه درسًا، لكن عزيزة أوقفتها قائلة:

- يا حبيبتي موسى عم يغار.... يغار عليها مو هي بنت عمه وعرضه؟ ذكرني في جده غسان الله يرحمه... كان دومًا يتخيل أن حمار خدودي من المساحيق مو من الشمس، يومها صار يدعك خدودي بقطعة قماش، وكان كتير معصب، ويمسح فيهن وأنا أضحك وأحلفله أني ما استعملت شي وأقوله طلعت جلدي يا غسان.

- كيف يغار عليها ياستي؟ هاي أول مرة يتدخل في شؤونها.. شو مرة واحدة وقع في حبها؟

- اعذريه، فاطمة صارت عروس حلوة كتير... أنا تزوجت جدك يوم كان عمري تلاتعشر سنة.... وكانوا يقولوا علي عانس كمان.... لأنه البنت كان عندنا بتتزوج يوم تكمل عشر سنوات.

فضحكت الفتيات مع جدتهم واستمرت آشيا بسؤالها:

- جدي كان بيغار عليكي كتير مو هيك ستي؟

- إيه... كان يرجع من السفر يتطلع فيني ويقول.... كل يوم ترجعي أجمل وأصغر شو السر يا صبية سكرتي الباب عليكِ بعمر الشباب؟... آآه يا صغار كتير اشتقتله...

- جدي كان بيسافر كتير؟

- هيك وظيفته كانت بتخليه يسافر شهور طويلة ويرجع أسابيع يبقى معنا.... في بداية حياتنا ما كان معنا مصاري تكفي لولاد... لهيك أنا بعت جهازي العجمي اللي جبته من تركيا... واشتريت بقرة.

- بقرة؟

- كنت أروح أقطع عشب للبقرة مشان تأكل وسويت من لبنها زبدة وجبن وبعتن لحتى أجيب مصاري تعمر بيتنا.

- ياه مبين تعبتِ كتير ياستي.

- خمس سنوات تعبت فيهم، وماحاول أهل زوجي يساعدوني لأنن ماكنوا يتقبلوني.... مشان فكروني قتلت حفيدتهن.... حزني وتعبي ما كان يساوي شي بعد اللي أنجزته بها السنوات.... الله كرمه واسع يا صبايا يوم نجتهد بيعطينا من وسع لما تضيق حيطان الدنيا بصدورنا.... جمعت فلوس تكفي وشرينا تلات أراضي جنب بعض وبنينا عليها البيت اللي عم تشوفوه هلأ.

- كتير عانيتِ ياستي.

- كنت سعيدة وأنا عم أبني حياتي وياه... سعيدة أني ساعدته بشبابي وعنفواني... ومسكت أيده وشديت من أزره مشان مايواجه ها الحياة لحاله... هيك هو الزواج يا بنات.... ماتزعلي يا فاطمة مافي شي يستاهل دموعك يا عروس.

ثم قبلت عزيزة رأس فاطمة، وضمت آشيا لها، وقبلت رأسها هي الأخرى، ورحلت وصور حياتها وذكرياتها الماضية تتبدى أمامها، حتى طرفت دمعة حارة من

عينيها، وأمضت الليل جالسة على كرسي غسان، تتطلع لصورته وتدعو له بالرحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت آشيا تلعب الغميضة مع صديقاتها في المدرسة، حاولت الاختباء جيدا حتى لا تعثر بثينة عليها وتمسك بها، لفت بثينة المكان بحثًا، عنها حتى رأت طرف ثوبها المدرسي، فجرت باتجاهها، مما دفع آشيا للتحرك من مكانها لاهثة نحو الجدار، فمن تصله أولا وتلمسه تكون الفائزة، وتكون الأخرى هي الخاسرة، لكن بثينة لمسته قبلها وصرخت:

- مقتولة!

فتأوهت آشيا بخسارة، لكن صوتًا آخر قاطع لعبهم من عند مبنى الفصول، في تلك اللحظة بالذات جاءتهم زميلة أخرى تلهث وتشهق مرتعدة، وهي تنقل لهم نبأ موت الرئيس السوري حافظ الأسد، كانت ترتجف وكأنها رأت ملك الموت بنفسها، وتشهق وكأنها لم تعد قادرة على التنفس، ولم تستطع الخروج من هذه الحالة إلا بالبكاء، شاركتها الكثير من الزميلات البكاء، فامتلأ حوش المدرسة بعيون صغيرة دامعة من فتيات لا يعرفن ما يبكين عليه، ولكنهن يعلمن أنه يتوجب عليهن البكاء، رجل بقي حاكمًا قبل أن يولدن حتى ظنن أنهن سيمتن وهو حاكمهن، لم تخالج آشيا أي مشاعر تجاهه، لكنها اندهشت أن الموت في هذه البلاد هو الذي يرفع الحاكم عن عرشه، وليست السنوات المخصصة لفترته الرئاسية، كما كان في أمريكا، قاطعت بثينة أفكارها قائلة:

- الله لا يرحمه.... مات كثيرون بسببه كان حاكما ظالما.... تصوروا قتل حوالي 55 ألف شخص في عشر سنوات بس من 1980 إلى 1990.

أجابتها زميلة توقفت عن البكاء بغضب، كأن الخبر يمس سوريتها:

- من وين بتجيبي ها الأخبار يا معترضة على طول الخط...

- هاد شي معروف بس للي بيدور وحابب يسمع ويعرف الحقيقة... مو خايف من أشباح حواليه عم تراقبه.

- طيب حتى سوي حالك زعلانة ما تفضحينا.

بات الشعب يومها متعاطيًا الذهول، كلما أضيفت نقطة جديدة تصف ملابسات هذا الخبر، فكيف يمكن أن يصدق أحدهم أنه مات، وهو يتحدث هاتفيًا مع الرئيس اللبناني لحود، وصار يوم العاشر من حزيران في القرن الجديد ذكرى سيئة للشعب، الذي ما توقعت آشيا أن يتعاطف مع موت طاغية مثله بحسب وصف بثينة له، الخوف من الجار العبري الشيطان هو ما جعل مجلس الشعب يعدل الدستور، لكي ينصب ما تبقى من صورة حافظ الأسد حاكمًا، ومن يمكن أن يكون مثله، غير ابنه بشار، لتعود الحياة كما كانت قبل موته، فجأة صار الجميع يتحدث بالسياسة وأحوال البلد، كيف مات الرئيس السبعيني بنوبة قلبية مفاجئة، بعد حرب شرسة مع سرطان

الدم، تلك الملامح التي جعلتهم ينسون ملامح من قبله، ولا يهابون ملامح من بعده، ببساطة لأنهم لم يفكروا أن هذا اليوم سيأتي، كانوا مسيرين لا مخيرين، شعرت بحجم هذا الموت في ملامح عدنان الذي بدا وكأنه فقد مثلا أعلى.

لم يرتدِ الشعب ثوب الحداد طويلا، فلقد تزوج بشار، بعد موت والده بأشهر قليلة - حتى تكتمل صورته الحاكمة في أعين أعدائه وشعبه في كانون الأول من نفس العام- من أسماء بنت عائلة الأخرس، التي كان يعرفها ويلتقيها في بريطانيا منذ عام 1992، كما ذكرت الصحف، وكانت بينهما صداقة قوية، حتى طلب يدها بشكل مفاجئ بعد موت والده، ولكنه لم يكن يحب التحدث عن كيفية معرفته بزوجته مطلقًا، كانت البرامج التلفزيونية تحاول إرضاء فضول مشاهديها من الشعب عن حاكمهم الشاب الوسيم الجديد بهذه الحكاية، التي تحمل خلفية غرامية، فتعرض أي حديث يجعلهم يتطلعون إليه كأنه واحد منهم، يعيش تفاصيل حياتهم، بما فيها من غرام، عاش الشعب في قلق وترقب خوفًا من حرب وشيكة مع إسرائيل، مما جعلهم يرحبون بهذا الشاب الذي لم تبد عليه أي حنكة تميزه، أو تجعله خلفًا جيدًا لوالده الصارم المُهاب من الجميع، من أجل عودة استقرار الحياة من جديد، خصوصًا أن الانفتاح في بداية عهده، والتصالح مع الأحزاب الأخرى، كان مصافحة منه للشعب، ليبدأ صفحة جديدة بعيدًا عن تاريخ والده الدامي، لا يمكن أن تنسى آشيا هذه الأيام، وما شهدته الصحف والقنوات من تلميع في شخص بشار، وتحمس عدنان له، لكن بثينة كانت تنقل لآشيا دومًا تخوفها من رجل تربى في أحضان طاغية، لم تعطها آشيا آذانها، لأنها كانت مهتمة بمرض أختها فاطمة التي تزامن مع كل هذه الأحداث المتذبذبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصفتها عزيزة بأنها سيئة الحظ، بالفعل كانت فاطمة كذلك منذ ولادتها، جاءها سعال وبرد خفيف، استمرت لأيام تعاني منه، حتى جاء صباح حاولت فيه آشيا مساعدتها على النهوض للذهاب إلى المدرسة، همست في أذنها، ثم رفعت صوتها رويدًا رويدًا دون استجابة، صاحت تناديها، فلم تُجبها نهائيًا، دفعت كتفها طويلًا، أمسكت بكفيها، فوجدتها جافة وباردة بشكل مثير للرعب، فانتفضت آشيا وصرخت منادية مَن في المنزل، ولأنهم لم يتمكنوا من حملها، طلبوا لها طبيب العيادة الصغيرة خلف شارعهم، حيث هرع مازن لسحبه من مكتبه، إلى حيث ترقد فاطمة باردة الجسد، كانت فاطمة تعي ما حولها، لكن جفنيها ثقيلان، كأنهما التصقا ببعضهما ولم يستمعا إليها، شعرت بأيدٍ تقلبها لتنام على ظهرها، ثم بدأت هذه الأيدي بفك أزرار ثوبها، أجبرها خوفها على فتح عينيها، كان شابًا نحيلًا بشارب نحيل مثله، يقف قبالتها، ما إن اتسعت عيناها برعب حتى قال هامسًا لتهدئتها:

- مرحبا.. ماتخافي أنا الطبيب خالد جيت أطمن أهلك على صحتك... راح أكشف على صدرك هلأ... ما راح أتطلع...

كشف عن صدرها، واحتفظ بوجهه الرصين، أما هي فتجمدت من المفاجأة، تلك المرة الأولى التي تتكشف فيها أمام رجل، شعرت بطرف السماعة المعدني البارد

يجرح جلدها، فتأوهت، فارتعشت أطراف الطبيب قائلا:

- معذرة... آسف.. آسف.

لم تقو على التحرك مطلقًا، بالكاد أجابته حين سألها عدة أسئلة ليحدد حالتها، كانت تتطلع إليه بعينين ثابتتين واسعتين، دون أن تطرف خجلًا، ونظر هو إليها بعد أن حاول طويلًا تجاهل نظراتها له، بقيا هكذا لثوانٍ حتى قال لها منهيًا اللقاء:

- ارتاحي...

خرج ليُخبرهم أنه التهاب رئوي، ميكروب قوي قد يتسلل لأي جسد يقترب منها، فعليهم إبعاد الأطفال عنها، كتب لهم بعض الأدوية، ونصح بالاهتمام بها ورعايتها، لم يتذكر الطبيب تحديدًا ما حصل بعدها، نقل إليهم الكلمات دون أن يكون حاضرًا حقًا في الموقف بذهنه وشعوره، فهو لا يزال هناك بداخل هذه الغرفة الصغيرة، يحدق في تلك العينين اللتين يحملهما جسدها الواهن، ذلك الوهن الذي يُضفي عليها رقة تهزم رابطة جأشه، بقيت تحدق فيه في كل مكان يذهب إليه حتى حين تدثر في سريره، بقيت ذاكرته متعلقة بعينيها، أما فاطمة فكانت تشعر أنه كان حلمًا، صارت تهذِي وعيناها تحرقانها، سهرت عزيزة إلى جانبها، ومنعت أخويها من الدخول حتى لا تصيبهم العدوى، بقيت فاطمة في غرفتها الصغيرة المظلمة تتألم بوهن، وهي تحاول استرجاع ملامح ذاك الشاب الذي دخل حياتها فجأة، وشاهد منها ما لم يشاهده أقرب الناس إليها، بقيت طوال الليل تتذكر الكلمات الضئيلة التي احتضنها بها مواسيًا.

كانت دهشة الأسرة كبيرة حين طرق أحدهم الباب بعد يومين، وحين فتح محمد كان الطبيب الشاب يقف أمامه، تحمله أرجلٌ مترددة، حضر بحجة الاطمئنان على مريضته، مشيرًا إلى أنها ستبقى على هذه الحال، ربما لأسبوعين أو ثلاثة، أضاف أنه جاء ليتأكد بنفسه من حالتها واعتنائهم بها، سأله محمود بغلظة ما إذا كانوا سيدفعون ثمن هذه الزيارات، وأضاف دون تكليف نفسه أن يكون على أدنى درجات التهذيب:

- لو جيت هون مشان المصاري بدي أبشرك ماعنا شي.... راح تتحسن لحالها شوي شوي.

- لا ما بدي مصاري يا إستاذ... أنا جيت مشان أطمن وأباشر الحالة بنفسي.... هاد شي طبيعي بأسويه مع كل المرضى.

ترقبه محمود بريبة هامسًا:

- مو طبيعي منوب... بس خَلْ ببلاش ولا عسل بمصاري!

لم تكن فاطمة نائمة هذه المرة، وما إن طُرق الباب ودخل غرفتها، حتى شعرت بالنار تضرم في أعماقها التي كانت ساكنة، وماعادت كذلك، كيف ومتى ولماذا أتى هل هو نفس الحلم؟ هكذا طرفت بعينيها بسرعة، مع ما يجول بخاطرها من أسئلة

تتزامن مع خطواته السريعة باتجاهها، أمسك أصابعها، فشهقت حين صدقت بوجوده، فقال حتى لا تذهب أفكارها بعيدًا:

- لساتك باردة... حالتك مو منيحة.

بقي هناك لعشر دقائق فقط، كانت كفيلة لتعريفهم بهذا الإحساس العملاق الذي سيتغذى من الآن فصاعدًا، ما بين النظرات والكلمات الهامسة التي تتحدث حروفها عن المرض والعلاج، وتحمل مخارج الحروف من أنفاسهم بما يشير إلى مرض من نوع آخر، لا علاج له، نظر إليها في النهاية قبل أن يرحل وقال لها:

- جيت لحتى أطمن على حالتك يا فاطمة... راح أجي أطمن عليكِ من وقت للتاني.

شعرت بالقشعريرة وهي تسمع اسمها بصوته، بدا لها قريبًا جدًا، فتأملته وقالت بصوت غير مسموع كلمة، فانحنى ليقرب أذنه من فمها، فشمت رائحته النظيفة الخالية من رائحة السجائر التي يتعطر بها كل أفراد أسرتها من الذكور، قالت أخيرًا:

- شكرًا د. خالد.

فابتسم لها وابتسمت له، لم تعتد هذه المعاملة الحانية والاهتمام البالغ، أما هو فقد نسي نفسه على شاطئ أنوثتها، وظل يسبح في أوهام من تأليف قلبه، حول ما ستحمله الحياة لهما، وباتت هي ليلتها دون أن يسعها الكون بوعده الذي أعطاها أملا شفافًا رقيقًا لصباح آخر سيحمله لها، زارها مرتين أخريين، إحداهما جاءهم حاملًا دواءً كحجة لتحميه من تساؤلاتهم، وفي المرة التالية كانت قد شارفت على الشفاء، فجاءها ببعض النصائح المعلبة، التي يضعها في طبق أي مريض قائلا:

- نحنا مابدنا تتعبي من جديد.... بلشي اهتمي بحالك أكتر.

تمنت لو تجبه بأنها أحبت مرضها لأنه جعلها تراه، تمنت لو تستطيع أن تصف له كيف مرت الأيام طويلة عليها بين زيارة له وأخرى، كان هو النور الوحيد في ظلمة تعبها، أراح قلبها المتمني لمسة وداع من يده مصافحًا يدها برقة، وكأنها سنكسر بين أصابعه، ثم رحل.

شعرت آشيا بأختها، وبالمشاعر التي حملتها في أعماقها بسرعة فائقة لهذا الرجل، لكنها لم تفهم طبيعتها، لم تفهم ماذا يكون الحب وكيف يجيء،وكيف يذهب، تساءلت هل ما تشعر به تجاه عدنان هو الحب، هو دائما يلمح لها، ما تشعر به تجاهه أكبر من أن تصفه، لكنه لا يماثل وصف أختها فاطمة لطبيعة عالم الحب الذي يجعل المشاعر تتصارع فيما بينها داخل صدر واحد، بين الشوق والترقب والحنين والخوف من الفراق والتمني واليأس، خليط من مشاعر متنافرة حائرة لا تعرف وجهتها، ولا يجمع بينها سوى صورة الحبيب، كانت تستمع إلى أختها وهي تصف كل تفصيلة عادية فيه، فتضخمها وتتفن في تلميعها، ليبدو وكأنه فارس زمانه، وكأنه لا رجل مثله على وجه الأرض، لم تر فيه شيئا مما قالته فاطمة، بل رأته مجرد شاب بسيط هادئ ومتردد الخطى، يبدو عليه الشحوب والنحول، وكأنه لا

يعرف شيئًا عن الطب والصحة، وضحكت آشيا من قلبها حين سمعت أختها تتمنى أن تمرض من جديد لتراه.

لم يتركها قلبها في سلام، فمرت بضعة أيام، حتى اختلقت لنفسها عذرًا، ودخلت عيادته التي هي بالأصل عيادة والده، لم يكن هناك أي مرضى، ولم يكن هناك حتى ممرض، كان يجلس وحيدًا في غرفة الكشف، يقرأ كتابًا علميًا، حين داهمته بثوبها المدرسي الذي زاد جاذبيتها أضعافًا، لم تكن شاحبة واهنة كما كان يراها في زيارته، بل كانت في قمة حيويتها وجمالها حين دخلت وهي بالكاد تستطيع التنفس، فهذا هو التصرف الجريء الأول في حياتها، قلبها عذبها طويلًا فما كان لها بدٌ من الاستماع إليه، حين رآها، نهض من فوره، وكأن الأرض اهتزت من تحته، تردد في ذهنه سؤال، هل قدومها يحدث حقًا، أم أنه صار يهلوس! ابتسمت له مرحبة، فأدرك أنه واقع، قال وقد تصبب عرقًا بشكل مفاجئ:

- شو فيكِ إنتي منيحة؟!

أجابته بخجل وقالت:

- مسا الخير دكتور خالد... أنا منيحة ما تقلق... جيت لحتى أشكرك على كل اللي سويته معي فترة مرضي.

أدرك أنها زيارة شوق، فاقترب مبتسمًا، ودعاها للجلوس على الكرسيين الملاصقين لمكتبه، وجلس قبالتها، لا على كرسي مكتبه، انحنى بجزعه قليلًا إلى الأمام وظل يسأل عنها بصوت خفيض، كانت تلك الساعة بقربه، هي أجمل ساعة مرت بحياتها على الإطلاق، لأول مرة في حياتها لا تهاب ما سيحصل لها حين تتأخر كل هذا الوقت عن موعد عودتها للمنزل، فما أفاض به خالد إليها، كان كفيلًا بجعلها حتى تنسى من تكون، وكأن التردد فارقه مسحورًا بحضورها، قطعًا ما حملته له الحياة من مفاجأة هو أجمل من كل أحلامه وتخيلاته، حتى نهضت لترجع، وحاول متوسلًا استبقاءها وهو يعدها أنها مجرد دقائق يمضيها في تأملها فقط، وسيتركها تذهب، حين عادت إلى البيت كان عمها محمود ينتظرها بشغف الانتقام على باب المنزل، وكان السؤال الذي صفعها وأخرجها من عالم خالد هو أين كنت، لم تكن مصادفة جيدة تلك التي ذكرتها هالة وهي تقف خلف عمها، فلقد أدلت أنها رأتها خارجة من عيادة الدكتور خالد، صعقت فاطمة ولم تتوقع أن يكون أحدٌ قد رآها، خاصة هذه الفتاة الخبيثة التي تضيف من اختراعها ما يجعل الأحداث أكثر إثارة لكل الشكوك، لكن آشيا تدخلت قائلة:

- وشو يعني... راحت لتشكره شو مشكلتكن.

- مشكلتنا يالشاضومة أننا ماعرفنا نربيكن منيح... كيف بدكن تطلعو بنات محترمات من أم مثل أمكن.

- شو دخل أمي بالموضوع؟ إنت ما عم تضيع فرصة لتذكرها بسوء... شو ها الحكي اللي بلا طعمة... ماتسوي مشكلة من لا شي.

- كيف عم تحاكيني بها الطريقة يا كلبة... تعي لهون.

- تصطفل!

ثم أمسك محمود بشعرها وشدها إلى الساحة، هي وأختها فاطمة، وانهال عليهما ضربًا، حتى جاء مازن على أصوات صراخهم، وظل يدفع عمه، فضربه هو الآخر، كأن أصابه الجنون، ظل يضربهن بوحشية غير عابئ بأخيه محمد، أو أمه، أو أي شيء، كأن غضبه على العالم الذي لم يعطه شيئًا مما أراد جعله يصنع انتقامًا تمثل في هذين الجسدين اللينين، ومنع فاطمة من الذهاب للمدرسة أو الخروج من غرفتها، حتى إشعار آخر، شعر محمد بالحزن بسبب قلة حيلته في إيقاف اعتداء محمود على بنات أخيه بالضرب المؤذي، هرم جسده ولم يعد يعينه على مصاعب الحياة.

بقيت فاطمة محبوسة في المنزل جريحة القلب، تتوسل ربها في صلواتها أن ينقذها مما هي فيه، حتى سمعت صوتًا يحن إليه قلبها، هرعت إلى النافذة ورأت بعينيها حبيبها خالد قادمًا برفقة رجلٍ مسن، وزفت آشيا بعد دقائق إليها خبر قدومه لطلب يدها، كان خالد قد صار عبدًا لشوقه، يقف على باب يحمل خلفه الفتاة التي يحب، همست له الأماني بكلمات قديمة:

لكتب ورق وارسلك..... يللي مفارق خلك

في ديرتك بعد وجفا..... في ديرتي احسن لك.... فديرتي بترتاحي..... يابوالعيون ملاحي

عقلي شرد وراحي..... من شوفتي امسنلك..... من شوفتي بدارك.. وحرقت قلبي بنارك

ياخشف ماني جارك..... خلك معايا خلك..... خليك معايا ياخشف.. يادمع عيني مانشف

خايف لتروح وتنكشف... والناس تقضب شلك..... والناس تحكي علينا..... كتر مارحنا وجينا

بس انت حن علينا... خلك معانا خلك

زدني حزنًا فوق الحزن

قل لي شعرًا يزرع حلمًا في أوردتي

ينبت روحًا داخل روح

قل لي شعرًا يحفر صوتك في ذاكرتي

يحمل سرب يمام يشرب من أعماقي

يفتح باب الفجر بصدري

يهدي النور إلى أحداقي

عمرو صبحي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

تراقصت كلمات آشيا في وجدان فاطمة، فشهقت فرحةً، وشعرت أن باب الفرج فُتح على مصراعيه أمامها، التفت حول نفسها غير مستوعبة، وجرت إلى مرآة الغرفة الصغيرة الوحيدة الموضوعة في مقابل النافذة، نظرت إلى نفسها، وكأن حفل زفافها سيقام حالًا، بدأت في تسريح شعرها بحركة مرتبكة، هكذا يأتي الفرح فجأة، ولا نكون أبدًا متأنقين لاستقباله، رغم أن آشيا حاولت تهدئة حركاتها المبعثرة في أرجاء الغرفة، لافتة انتباهها أنهم قطعًا لن يدخلوها اليوم لملاقاتها، على الجانب الآخر من الحائط، كان خالد يجلس بقلب مفعم بالأمل، غياب فاطمة المستمر جعله يدرك أنها في أزمة ما، فمنذ لقائه الأخير بها في عيادته، وقد صمم على انتظارها يوميًا وهي خارجة من باب مدرستها الثانوية، ولكنها لم تحضر في اليوم التالي، ولا الذي تلاه ولا الأسبوع كاملًا، لو كانت مريضة لاستدعوه، ولكنها قطعًا محبوسة، هكذا حدث نفسه، ولكي يثبت حسن نيته من بداية الطريق، أطلع والده على كل شيء، مما شجعه أن والده وافق على الحضور معه مباشرة من أجل طلب يدها، وطمأنه طوال الطريق أن هؤلاء البسطاء سيطيرون فرحا بزواجه من ابنتهم، خاصة وهو يحمل شهادة الطب، ويملك عيادة، أخبره والده مطمئنًا أنه سيبني له طابقًا خاصًا به فوق منزلهم المكون من طابق واحد، وسيجعله هذا يعيش في راحة واطمئنان، لم يكن خالد يحمل احتمالًا ولو واحدا بالمائة أن يتم رفضه، بسبب كلام والده وبسبب حب فاطمة له، الذي أفضت به إليه في عيادته، لم يقابله محمد، بل جاء لمقابلته الشاب الفظ الذي سبق وشعر بالريبة من زياراته لفاطمة، كان هناك يجلس محمود ومحروسة، زوجة محمد، شعر خالد ببعض القلق، وسأل عن محمد بتودد، فردت محروسة وهي تتطلع إليه بطرف عينيها بأنفة:

- زوجي راح للشام.... عنده شوية أعمال بيخلصها هونيك وبيرجع بكره... ماحدا فينا كان بيعرف أنك راح تيجي اليوم...

- آسف إني جيت بدون موعد... الحقيقة أنا جيت اليوم لحتى...

ثم توقف لسانه عن صوغ ما في رأسه، تشوشت الأفكار بداخله، فنظر بسرعة إلى والده الذي قام بالمهمة نيابة عنه:

- ولدي الدكتور خالد من يوم إجا لعندكن وتطلع في عيون فاطمة الحلوين صار عاشق.

ثم ضحك متوددًا إليهم، لكن أحدًا منهم لم يشاركه الضحك، بقوا يتطلعون إليه، وكأنه قد أهانهم، مما جعله يسعل قليلًا، ثم أكمل:

- لهيك قلنا مابننطر يوم واحد.... جينا لحتى نصير عيلة واحدة... جينا لحتى نخطب بنتكن للدكتور خالد ابني.

تطلع محمود إليهم باحتقار، معيدًا كلام الأب بطريقة ساخرة:

- ابنك الدكتور خالد؟

- إيه... هو ابني الوحيد... مثل ما بتعرف هو طبيب وورث عيادتي، وكمان راح نبنيله طابق خاص فيه هو وفاطمة لحتى يعيشوا مبسوطين ومرتاحين.

تطلعت محروسة إلى محمود بابتسامة، فلم يتمالك نفسه من الضحك، تقطب جبين الطبيب وابنه وشعرا بالإهانة، فصاح الأب:

- ما بظن إني حكيت شي بيضحك...

تمالك محمود نفسه ورد قائلا:

- ماتآخذني يا دكتور... شوي اندهشت إنك جيت لهون تخطب فاطمة وهي بالأصل مخطوبة..

- شو؟!

نهض الأب من مكانه كأن الكلمة لدغته، والتفت إلى ابنه، فأكملت محروسة متطلعة في عيني خالد بشماتة:

- شو يا دكتور خالد... لما راحت فاطمة لعيادتك ما حكيتلك ها الشي؟!

بقي خالد يرتجف في مكانه، هل كانت خدعة، كانت تتلاعب بعواطفه، كل هذا الوقت، ألم تسنح لها الفرصة لتلمح له حتى، ربما خافت، ربما قررت أن تنتظر قليلًا، لأنها لم تتوقع أن يأتي لطلب يدها، لقد تسرع، إنه الآن في موقف مُحرج للغاية، فرد بعد أن ابتلع ريقه:

- لو كانت حكيتلي ماكنت إجيت لهون!!

بينما خالد يتحدث إلى أسرتها في هذا الوقت القصير جدًا من يوم فاطمة، كانت أسعد مخلوقة في الوجود وفتيات عماتها يتطلعن إليها بحسد، كلهن يتزوجن من رجال العائلة بناءً على اختيار آبائهن، ولكن هذا الطبيب وقع في حب تلك الأجنبية، أضافت مجلدا جديدًا من الأحقاد بأعماقهن، احتضنتها عزيزة بفخر وقالت لها:

- عم قلك جمالك سحر الزلمة.... ما تركه قلبه ينطر كام يوم خاف ليخطفك حدا تاني منه..... حظك بينعدل يا بنت رامي.

متشابكة كانت أصابع فاطمة وأختها آشيا، التي صمتت طوال الوقت، ناظرة إلى أختها وفرحتها التي انتشرت ذبذباتها في الهواء، لم يفرحوا منذ فترة طويلة، همست آشيا لأختها قائلة:

- أخيرًا راح تنفدي بجلدك من ها البيت... وراح تعيشي بعيد عن قرفهم مبسوطة.

لم تكن فاطمة قد استوعبت بعد أن زواجها من خالد سيخلصها من الحرب اليومية الباردة بينها وبين أفراد أسرتها، فأضافت آشيا لفرحتها بُعْدًا جديدًا، الحرية، الحب، الأحلام التي ستتحقق، ربما سيحق لها من الآن فصاعدًا أن تحلم، لقد نسيت في بؤسها ما كانت تريد أن تكون، أو حتى ماذا تريد أن تفعل بحياتها، ربما تعيش مع خالد خارج حدود هذه القرية، يستقرون بالشام، فهو طبيب ناجح ولا بد سيجد عملًا

بسهولة، الهمهمات التي تتحدث في سُمعتها لم تؤثر البتة على فرحتها، بنات عماتها يصفنها بالساحرة التي فعلت بهذا الطبيب كما فعلت أمها الأمريكية بخالهم رامي، لا بد أغوته، صاحت أخرى أنها لا بد كشفت نفسها له وهو يعاينها لتُوقعه في شباكها، وصفوها بالعاهرة همسًا، ولكنها لم تكترث، ولم عليها أن تفعل وقد شارف بقاؤها في هذا الجحيم على النهاية؟ ابتعدت الفتيات عن طريق مازن، دخل غرفة أخته متجهمًا محبطًا وكأنه قد سمع خبر موت أحدهم، تطلعت فاطمة لملامح أخيها، وفكرت أنه يمكن أن يكون حزين على فقدانها، أو ربما يغار عليها، وقف لثوانٍ لا يدري ماذا يقول ثم نطق أخيرًا:

- مشيوا من شوي..... فيكن تعرفوا الأخبار من عمي..

ذهبت عزيزة ولحقتها آشيا، ومشيت خلفهم فاطمة بدلال وخجل، ولم تدرِ أعليها أن تركض لتسبقهم، أم أن عليها أن تنتظر حتى يأتوا لها بالحديث كاملًا، سارت بخطوات بطيئة، وما إن وصلت غرفة استقبال الضيوف حتى سمعت صوت صياح آشيا:

- بدكن تزوجوها على كيفكن؟ ما بيكفي اللي عم تسوه فينا... هي بدها إياه وهو بده إياها شو قصتكن؟

أكملت عزيزة:

- شو قصتك يا محمود؟ كيف تاخد ها القرار بدون الرجوع لأخوك محمد...

- الموضوع مو محتاج.... كيف بدك أتصرف مع قلة أدب ها البنت.... كيف بدك أطاوعها وأخليها تروح للي كانت عم تمشي وياه... كأني عم قلها ما شاء الله كملي... كيف بدك تتصرف بنات العيلة لو عرفوا إننا عم نكافئها على وساختها..... شو بدك أسوي بدك هلأ أرحب بالبويفريند اللي جابته عالبيت؟ مو هاي أخلاق ماتناسبنا ولا تناسب تقاليدنا.

أضافت محروسة متدخلة:

- أولادنا أولى بيها... شو ما بيصير بنزوجهن لأولاد العيلة لحتى يكونوا في أمان.... والدهم رامي تركهن هون لحتى نحافظ عليهن وعلى سمعتهن ونهتم فيهن وراح يكون زواجهم بأولاد العيلة أكبر اهتمام فيهن.

- هلأ صرتي عم تتذكري أنهن من العيلة يا محروسة؟

الله يرحم يوم كان بدك ترميهم بالشارع.

- العفو يا حماتي شو عم تقولي.... بالعكس أنا بحبن مثل أولادي تمام.

قطع حديثهم جميعًا صوت ارتطام فاطمة بالأرض، بعد أن أغمي عليها، دوت بالغرفة صرخة آشيا لرؤيتها حال أختها، حملها مازن إلى السرير وهو يغالب دمعة، سقطت على خده رثاءً لحال أخته، والدهم رماهم هنا، وأمرهم أن يستمعوا لأوامر أهله، أمرهم أن يصيروا جزءًا من هذه الأسرة، هل على أختيه الآن أن

يتزوجا من الأسرة وفق ما يختارونه لهما؟ حتى وإن كان هذا ما يحدث في القرية ولكل أسرها، حتى لو كانت هذه هي التقاليد، حتى لو كانوا محبوسين في هذا البلد بلا أعوان ولا مأوى سوى هذا البيت، فهل عليهم أن يستسلموا لكل ما يحدث؟

ولكن ماذا بإمكان أحدهم أن يفعل؟ لو استنجدوا بوالدهم، سيكون أول الساخطين عليهم إذا لم يستمعوا لكلام أعمامهم! وإذا هربوا، فإلى أين؟ من يصرف عليهم؟ من يؤويهم؟ وأين يختبئوا في هذا البلد الذي لا يعرفون فيه أحدًا؟! كلمات آشيا أضافت له أملا جديدًا وهي تُطمئن أختها قائلة:

- اصبري تا يجي عمي محمد.... بترتاحي لما تشوفيه عم يصرخ لهالمحروسة.... راح ياخدلنا حقنا كلنا.... ماراح يقبل بزواجك غصب عنك من أي واحد من هدول المتخلفين... وراح أقابل خالد وأعتذر له وأفهمه كل القصة.... ماتخافي.

نظرت لهم فاطمة وهي تشهق، دون أن تُخرج أي صوت، لم تعد فاطمة تحمل أي كلمات في جوفها، لم يعد يخرج منها سوى الدموع، لم تعد تتحرك من مكانها، ولم تبالِ بكل الدروس التي فاتتها، فقط كانت تريد أن تموت حيث هي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن محمد في دمشق من أجل العمل، تظاهر بهذا حتى لا يقلق أحد، لم تعلم حتى زوجته الآلام التي يعاني منها مع اضطرابات دقات قلبه، يصحو في الليل وينهض خارج غرفته وهو يشعر بقلبه ينازع من أجل قيامه بعمله، على أكمل وجه، آلام في جنبه وصدره تجبره على البقاء دون حراك، فترات من الوقت على كرسيه، حتى اتهمته زوجته بالكسل، وأن الكسل لن يجلب المال، من حقها أن تخاف على المال وهو لم يؤمن بعد مستقبل أولاده الثلاثة، تحامل على نفسه ليذهب إلى هذه الرحلة المؤقتة، قابل صديقًا قديمًا فأرشده إلى طبيب جيد في هذا الاختصاص، سار في شوارع الشام المزدحمة، يتبع وصفة صديقه، ليصل إلى عيادته الخاصة، شهق بأسف حين وجدها مغلقة، حدق في الباب بدهشة، نزل الدرج وسأل أصحاب الدكاكين المجاورة، فأجابوه جميعًا أن الطبيب سافر لمؤتمر طبي في لبنان، جلس على الكرسي الخشبي عند بوابة ذلك الدكان يقلب حاله بين كفيه، أيعود ببساطة؟

سينتظره للغد، لكن ذاك الرجل أوضح له أن المؤتمر يستغرق أربعة أيام، تحسر محمد، فقد قطع كل هذه المسافة وأجهد نفسه حتى لا يعلم أحد بتعبه، وحتى يستطيع الأخذ بكلام طبيب يثق به، هم بالذهاب إلى طبيب آخر وما إن نهض من الكرسي حتى خارت قواه، فأسنده صاحب الدكان، وأحضر له شرابًا، ودعاه للمكوث معه بعض الوقت حتى يتحسن، لم يدرك محمد تدهور حالته إلا في اللحظة التي لم يطاوعه فيها جسده على النهوض، فبرك حيث هو متأوهًا، بعد ساعتين نهض من مكانه بعد تبادل أحاديث بسيطة مع صاحب الدكان آملًا أن يلتقيا بعد عدة أيام، كان الطريق طويلًا حتى يركب ما يُوصله عائدًا إلى قريته، ارتمى داخل السيارة وسط المسافرين وهو يلهث، قلبه يترنح بين دقات متتالية، ثم يقف ليلتقط أنفاسه، يطيل، ثم يهديه دقة بطيئة، عاوده الألم من جديد مثل السكاكين، شهق وظل يسعل وهو يمسك بصدره ناحية قلبه وكأنه سينفجر، انتبه إليه الركاب وصار جاره في الكرسي يمسك

بكتفيه، ويدعوه أن يتماسك، أغلق محمد عينيه بألم وظل يجاهد ليتنفس، فأخرجوه ومددوه خارج السيارة، بينما قلبه كان قد تعب واستسلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للفاجعة أوجه كثيرة، لكن وجهها القبيح بصق على أسرة غسان، بقيت محروسة تصرخ وتلطم أيامًا متواصلة، لم يوقفها أحد، ببساطة لأنه أقل ما يمكن أن يكون رد فعلهم تجاه هذه الفاجعة هو مس من الجنون، القرية كلها اجتمعت في حديقة دار غسان، يبكون ويتناولون الحكاية العجيبة، مات وهو في طريق العودة، كل منهم يضيف سطرًا من تأليفه في حكاية موت محمد، ليجعلوها تبدو أكثر تصديقًا وتأثيرًا، كان محمد محبوبًا من الكل، نوبة قلبية دفنت وجهه الباسم وعينيه الحنونتين تحت التراب، لم يصدق أحدٌ أن محمد بكامل صحته وعنفوانه قد يموت بهذه الطريقة، فقد أجاد في إخفاء تعبه، حتى إن زوجته نفسها تمرمغت في وحل الصدمة، وصارت تسير من غرفة إلى أخرى وهي تحادث أي شخص أمامها، أو تتخيل أنه أمامها، بما يحمل محمد من صفات، وبما كان يقوله لها قبل رحيله، أضافت لقصته أن قلبها أحس به وأحس بأن شيئًا كهذا سيحدث، ظلت تضرب بكفيها على كل مكان في جسمها، وليس فقط خديها، تبكي وتناديه وتصرخ، لم يفلح في مواساتها أحدٌ حتى إن عزيزة، وهو ابنها، كانت تحاول التخفيف من حدة الصدمة عليها، عزيزة فقدت غسان زوجها وها هي تفقد ابنه البكر، خافت من الدنيا وهي تمطر عليها وابلا من المصائب، وما عاد لها من سقف تحتمي به، كان محمد سقف هذا البيت وقد فقدته في لحظة، دون أن تملك ثانية تودعه فيها، أمسكت قلبها، وحافظت على خفوت صوت بكائها رغم مسابقة العويل التي تجري في منزلها بين نساء القرية، كل امرأة تجاملها بإطلاق حنجرتها بأعلى أصوات العويل والنواح، أما محمود فاقتصرت مهمته على جلب أخيه رامي من أمريكا، حتى لا تفوته الفاجعة، تولى معتز أعمال والده المتوفى على الفور، ولم يعطِ نفسه وقتًا ليحزن، وحضر عدنان العزاء على أمل التطلع لآشيا ومواساتها، أو محادثتها بضع دقائق، لكنه لم يفلح في لقائها، وقد سحبها الحزن منه أيامًا طويلة بانقطاعها عن الدراسة، حتى بثينة حضرت في جلسة النساء لتواسي آشيا، ولكنها لم تجدها، فقد كانت تحبس نفسها بغرفتها هي وإخوتها، احتمي مازن بنشيجه المتألم بين ذراعي أختيه المنهارتين، لو أن والدهم نفسه قد مات لما توالت دموعهم بلا نهاية بهذا الشكل، ابتعدت آشيا عنهم، ونهضت ووجهها مبتل، وارتمت على سريرها، لدهشتهم نامت نومًا عميقًا، بينما بقي مازن وفاطمة متعانقين يبكيان، يبكيان الضياع، يبكيان المستقبل الذي أُسدل عليه الستار، يبكيان السجن الذي صار بلا مُوالٍ لهما، بكوا يُتْمًا أضيف ليُتْمهم، وجرح أضيف لتشوهات قلوبهم، غرزت فاطمة أظافرها في صدر أخيها وهي تبكي بحرقة ما ضاع من حياتها ومن حبها، لن يتحقق زواجها من خالد مهما فعلت الآن، ستظل هي ومازن وآشيا أسرى لهذا السواد الذي غلف حياتهم إلى ما لا نهاية، لم يعد سهلًا تقبلهم لوجه الحياة وهو بهذا القبح، أما آشيا فقد نامت أيامًا، وكلما حاولوا إيقاظها هبطت دموعها، تركوها تنام كما تريد، لعل ساعاتها المؤلمة تمضي.

وكان ختام أيام العزاء بحضور رامي والدهم، لم يبكِ لفقدان أخيه، فلقد مرت أيام بين معرفته بالخبر وحضوره، فقط احتضن أمه المكلومة، وهدأ من روع زوجة أخيه محروسة ببعض الدولارات، قائلًا إنهم سيحتاجون إليها، كانت المرة الأولى في حياته التي يُخرج فيها مالًا يخصه، حتى لو كان قليلا، ليعطيه لشخص آخر، ولكنه شعر أنه مضطر لأن أخاه تكفل برعاية أولاده طوال تلك السنوات، تطلع محمود إلى المال في يد محروسة بجوع، حسد أخاه المتوفى وزوجته، وتمنى لو كان مكانهم، فبقي طوال أيام إجازة رامي يحكي له عما صار مع الأولاد، يضيف حكايات من عنده بتمرد آشيا وخروجها عن السيطرة بسبب دلع محمد لهم، وعدم اهتمام مازن بالمزرعة كما يجب متعللا بدروسه، وحكى له بالتفصيل عن فاطمة وأضاف من عنده لقاءات بتفاصيل مُخجلة فوق لقائها الوحيد بخالد، واصفًا إياها بالبنت الفالتة والتي يجب إعادة تشكيلها وتربيتها، كان محمود يشعر في أعماقه أن رامي يرسل مالًا كثيرًا إلى محمد، لأنه ربى أولاده، ولم يعلم أنها كانت المرة الأولى التي ترى فيه أسرته كاملة مالًا منه، حتى أمه نفسها، فاستغل الفرصة ووسوس له بأن يترك له مهمة تربية أولاده، وكيف يمانع رامي وقد هاله ما سمع، كانت بطاقتهم الأخيرة ليحتموا بها، فحكى الأولاد الثلاثة كلامًا مناقضًا لكلام عمهم محمود، واصفين إياه بالمتوحش، استمعت فاطمة بأذنيها لنصائح والدها بالزواج من أحد أقاربهم، متعللا بزيجته الفاشلة بأمهم، استمعوا لخذلانه وهو يعيد على مسامعهم كلام محمود قائلًا إنه صدم مما آلت إليه أمورهم، وصدق على قرار محمود بضرورة ترك فاطمة للمدرسة، لأن خروجها يزيد من مطامع الرجال فيها، وأضاف أن "العلام" لن يفيدها كثيرًا، فمستقبلها سيكون في منزل زوجها وأولاده، كان الباب بالأساس مغلقا في وجوههم ولكنه الآن أضاف قفلًا آخر ليفقدوا الأمل، شعر محمود أن لموت أخيه فائدة في النهاية، فهو ينظر إلى الفتاتين على أنهما الدجاجتان اللتان قد تبيضان له بيضًا ذهبيًا، وسيستطيع أخيرًا أن يضع حدًا لوقاحتهما، حتى إنه حسد محروسة وأخته رولا لأنهما تمتلكان من الأولاد ما يناسب أعمار الفتيات ليزوجوهم لهن، بينما هو لا يملك سوى طفل رضيع من زوجته الجديدة، يرميها وحيدة في الغرفة التي يملكها، ويمضي يومه كاملًا في بيت أبيه أو في المزرعة، ولا يعود لها إلا لحاجاته الذكورية، نشوة القوة والسلطة عليهم انتابته، حتى إنه خاف من وجود مازن، فهو قوة لا يستهان بها بجوارهم، فأسعفه عقله الذي لا يعمل إلا للخراب بأن ينادي بسفر مازن إلى أمريكا مع والده، كان رامي يستمع إليه كالمنوم، حتى إنه لم يبال بعلامات ضربه لهم على أجسادهم، مقنعًا ذاته أنهم لا بد فعلوا ما يستحق، وأن قسوة التربية ستجعلهم صالحين في النهاية. كان مازن على مشارف الجامعة، ولكن والده لم يكن من أنصار التعليم الجامعي بسبب نفقاته الباهظة، فهو لم يُكمل تعليمه كذلك، وسافر إلى أمريكا ليجد أي عمل، مهما كان وضيعًا، فالمال أهم لديه كثيرًا من العلم، راقت فكرة محمود كثيرًا لرامي، لأنه سيكون قادرًا على الاستفادة المادية من عمل ابنه معه هناك، ولأن مازن كان يحمل الجنسية الأمريكية، فسهل هذا من اصطحاب والده له برفقته.

نادى رامي ولده في الصالة، وحين جلسا، نأيا بنفسيهما بعيدًا عن الحزن، تطلع مازن لوالده ببطء، يدرس كل تفاصيله المنسية، رائحة والده وصوته وحديثه وحتى

التفاتته تحمل له من عبق الماضي الكثير، كأن قدومه المفاجئ وسفره المفاجئ في حد ذاته ما هو إلا استحضار مازن للماضي، ليس إلا، فلم يكن يشعر بوجود والده حقًا، لكنه أدرك أنه هنا لموضوع جاد، ولكنه لم يأبه لشيء فلن يخسر قطعًا أكثر مما خسر، بدأ والده الكلام مباشرة بالجملة التي تمنى أن يسمعها لسنوات ليطرق على الحديد وهو ساخن:

- وش رايك ترجع معي على أمريكا؟

جفل مازن واهتز في مكانه قائلًا:

- أرجع؟ كيف؟ متى؟

- معي على موعد نهاية إجازتي.

- .....

- شِبَك ساكت مستغرب مو هيدا كان اللي بدك ياه من الأول؟.... أملي كان كبير فيك هون خصوصًا بوجود عمك محمد بس هلأ مابتقدر تحقق شيء.... ممكن تبني نفسك بالعمل في أمريكا مثل ما أنا سويت.... هلأ أنا بشتغل محاسب في محطة بنزين.... وبأخليهن يعطوك وظيفة فيها.... أي وظيفة مؤقتة في الوقت الحالي لحتى تقدر تصرف على حالك..... وراح خليك تبيت معي..... خواتك البنات مصيرهن للزواج وأزواجهن هن اللي بيصرفوا عليهن أنما انت لازم تبدأ من الصفر.... جهز حالك لحتى تسافر معي.... وأنا بجهزلك كل الأوراق اللازمة.

لم يكن طلبًا لرأيه بقدر ما كان أمرًا، وثق رامي أن مازن لن يفوت هذه الفرصة، خصوصًا بعد تفقده لملامح وجهه، تلك الحيرة على وجه سجين يهرب ليلوذ بالحرية المنتظرة، ويترك عزيزًا خلفه، صراع بين استغلاله لفرصة النجاة، وتضحيته التي تفوق قدرته على التحمل وتفوق رجولته وأخلاقه، بالطبع اشتهى مازن التخلص من جحيم حياته حتى لو تخلى عن فرصة دراسته الجامعية في الوقت الراهن في سبيل حريته، أن يخرج من هذا البلد الخانق، لم يصدق أذناه في بداية الأمر حين عرض عليه والده أن يعود به إلى أمريكا، فقد الأمل بهذا الأمر لدرجة أنه نسي حدوث احتمال كهذا، شعر مازن كم هي الحياة غريبة حين نزهد شيئًا يأتينا متمنيًا، وها قد جاءه هذا التغيير الجذري في حياته دون أن يطلبه، بقي حبه لأختيه يكبله، وهل تتحمل الفتاتان فقدان ظهر آخر؟ لو أن والده انتظر بعض الوقت حتى يشفوا من جرح موت عمهم، لو أنهم يسافرون معه، ولكن كيف، ووالده مقتنع أن أمريكا تفسد أخلاق فتيات ساذجات مثلهن وعليهن أن يأتوها متزوجين على الأقل؟ عليه أن يخسرهم أو يخسر هذه الفرصة للأبد، قرار بين موت وموت أهون قليلًا، قطعًا من أصعب القرارات اتخاذًا، هكذا هي الحياة قبل أن تعطيك، تقتطع من لحمك أولًا.

لم يكن سهلا عليه إخبارهن، ولم يرد أن يعرفا الخبر من لسان والدهما الجاف الذي لا يهتم بمشاعر مستمعه، لم يدر كيف يخبرهما بهذا، ولا حتى إن كان هذا التصرف الصائب، كان بحاجة أن يفضي بما في قلبه، طرق باب غرفة جدته عزيزة، وحكى لها كل ما يجول بخاطره، لم تبتهج، ولكنها أجبرت نفسها على قول أن هذا هو

الأفضل له، لامت نفسها كثيرًا على ما يحصل للصغار في حياتها، إن كانت لا تستطيع حمايتهم ومساعدتهم فإن حمل ذنب شخصين غير ثلاثة، إن كان لا بد أن ينجو وحده فلا بأس، ربتت كتفه لتطفئ نار الحيرة بداخله، أفضى إليها بعدم قدرته على مواجهة إخوته بقراره هذا.

نهضت لتخبرهم بنفسها، كانتا جالستين على سريريهما بصمت، الدموع جفت، وبقيت آثارها خطين شفافين يصلان الجفن بالذقن على وجه كل منهما، نادتهما وأمسكت بهما بيديها الاثنتين وكأنها تسندهما في اللحظة الزلزلية القادمة، وطعنتهما سريعًا بالخبر، ثم قبضت على نزيفهن قائلة إن هذا أفضل بكثير، فربما استطاع أن يجد سبيلًا لحياة أفضل فيها النجاح والمستقبل، آزرتهما بعناق ذراعيهما، وبكلماتها الحانية، ألا يجزعا، وأنهن لن تكونا وحيدتين، فهي معهن وعليهن ألا يقفا في طريق سعادة أخيهما، باحت لهما بتردده وخوفه وتمسكه بهما، وطلبت إليهما أن يساعدنه على المضي في قراره، لم تكن آشيا ممانعة بقدر ما كانت متألمة، بعكس أختها فاطمة التي شعرت بالضياع وكان بكاؤها الهستيري رفضًا قاطعًا، آشيا شعرت أن أملها سيقوى بوجود أخيها هناك، صحيح أن والدها الآن صار في مدينة أخرى غير التي كانوا فيها، ولكن لا بد وأن يتغير كل شيء ذات يوم. لم تنته آشيا من ماضيها بعد، ورفضت المضي قدمًا، كانت فقط تبحث عن حليف هناك، لربما استطاعت هي الأخرى يومًا أن تذهب إلى هناك، دخل مازن الغرفة وهو لا يقوى على النظر في عيون أختيه، شجعته عزيزة بنبرتها الهادئة، ترددت الأختان في البداية، متطلعتين إليه بأفكارهن، ثم احتضنتاه دون كلمات، قبل رأس كلٍ منهما، ثم غابت الحروف، فلم تستطع صوغ ما في نفس كل منهم، فقط العناق، اختصر كل شيء.

كانت بضعة أيام فقط تفصلهم عن الفراق، لم يجد مازن شيئًا يأخذه معه في الحقيبة، ببساطة لم يكن هناك ما يستحق أن يحمله معه ليذكره بكل ما عاناه هنا، بكل شيء ضحى بأختيه ليهرب منه، حتى الوجبة التي أعدتها له عزيزة أكلها قبل رحيله، ملابسه التي يرتديها وثوب آخر هو ما حمله في حقيبته المدرسية القديمة، ليسافر بها، تمنى لو يسافر ويترك ذكرياته هنا، كأنه لم يأت قط، لم تتناسب المشاعر التي انتابته راحلا كأنه حكم بالبراءة مع مشاعر إخوته، كأنهم تعروا للتو ولم يعد هناك ما يغطيهم، هكذا شعروا بعناقهم الأخير لأخيهم، قال لهم مواسيًا إنهن أفضل حالًا منه، فكل واحدة منهما ستفتقد شخصًا واحدًا، أما هو فسيفتقدهما معًا، وكأن العدد يرجح دفة ألمه عن ألمهما، كانت فاطمة منهارة، أما آشيا فبقيت متماسكة جامدة على الأقل حتى يرحل!

سار خلف أبيه دون أن ينظر للوراء، هو على أعتاب حياة جديدة، يملك من الفضول والأمل ما يزيح شعوره بالفقدان جانبًا، أما هما فسيبقى مكانه فجوة في أعماقهن، تصير حياتهن مرة بغيابه دون أن يتغير شيء فيها حقًا، بمجرد خروجه من المنزل بقيت فاطمة تتطلع إليه حتى اختفى، ثم بقيت ودموعها خارج المنزل، كأن البكاء بداخله ممنوع، بقيت حتى هدأت وحدها، متطلعة إلى آخر مكان ظهر فيه أخوها، وأدركت في قرارة نفسها أن عليها هي وأختها آشيا في الفترة القادمة الاهتمام بتقوية لغتهما الإنجليزية، لعلهما ذات يوم تلحقان بأخيهما، أما آشيا فذهبت إلى غرفتها،

نامت ساعات طويلة، حتى ظنت فاطمة أنها في غيبوبة، امتد نومها يومين، فجلبوا لها الطبيب الذي قال بتأفف إنها فقط نائمة، لم يصبها شيء، وإن بعض أوجه الحزن يولد نومًا متواصلًا كهروب من الواقع، نقل لهم الخبر كأنه شيء مألوف رغم أنهم لم يسمعوا عن هذه الحالة من قبل، ففقدوا الاهتمام بعدْ ساعات نومها، لأنها ما إن استيقظت حتى لمسوا تحسنًا ملحوظًا في نفسيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت آشيا لمدرستها، مما أفرح صديقاتها، ساعدتها بثينة في كل دروسها التي فاتتها دون حتى أن تطلب منها، بثينة كانت الوحيدة التي تحكي لها آشيا عما يجول بصدرها دون خوف أن تظهر ضعيفة، الكل كان متألمًا حولها، وتركوا لها وحدها دور المتماسك، فالتزمت به من أجل الجميع، ولكن أمام بثينة تستطيع أن تعري جرحها وتصرخ كما تشاء، وتبكي كما يحلو لها، عدنان كان بانتظارها بشوق لا مثيل له، فما إن خرجت من باب المدرسة وابتعدت عن أعينها وانعطفت في طريق ضيق، حتى جاءها محتضنًا من الخلف، دفعته بحقيبتها المدرسية فأخفى جديته في معنى هذا العناق بالضحك، وظل طوال الطريق يقول لها كلمة واحدة (اشتقتلك) يعيدها ثم يعيدها، فيختصر نار قلبه في نفحة لهب وفي كل مرة ينطقها كانت تحمل كمية أكبر من عواطفه، كلما قالت له شيئا أجابها بهذه الكلمة، لم يقل أي كلمة أخرى، تأففت من تكراره، وظلت تسأله عن أيامه في غيابها، كيف قضاها؟ لكنه ظل متمسكًا بهذه الكلمة كيافطة يسير بها معلقة فوق كل شيء، في عينيه صدره ذراعيه ابتسامته الراضية، حتى وصلا إلى منزلها، ووعدها باشتياقه لها حتى الغد.

حين دخلت غرفتها تسمرت على الباب، لم تكن فاطمة وحدها، بل كانت هناك محروسة أيضًا، التي لا تحضر إلا للتأنيب أو الكوارث، هكذا حدثت نفسها.

هدأت حدة حزن محروسة وعادت لتصرفات وحديث منطقي طبيعي، لم تفهم سر وجودها تحدث فاطمة بخفوت، لكنها قطعًا فهمت مشاعر فاطمة التي ترتديها ملامحها، ملامح متجهمة يائسة والباقي صمت، أحيانًا يكون حضور الحزن خَرَسًا، يشل لسانك ويطفئك كأنه قد سحب طاقة روحك كلها، ما إن رحلت محروسة حتى عرفت من فاطمة كل شيء، العريس المنتظر، كان موسى ابن محروسة!

لو كان محمد عمها هنا، لكان أنقذها من تلك الوقعة، وماذا تعرف فاطمة عن موسى سوى صفعته؟ لم يتبادلا حتى الكلمات من قبل، لا تذكر حتى إنه تطلع في عينيها سابقًا، لم تفهم آشيا سر اختيار محروسة لفاطمة زوجة لابنها، لأنها كانت تعايرهم طوال حياتهم فكيف تقبل بنسبهم؟ تقبلت عزيزة الخبر بصدر رحب مذكرة إياهم بمميزات موسى، أقنعتهم أن موت محمد غير محروسة، وجعلها مرهفة أكثر، لكن هذا السبب لم يكن كافيًا لآشيا، فقد ذاقت الأمرين منها سابقًا، ومن المستحيل أن تقتنع أن ضميرها استيقظ فجأة، وصارت شخصًا آخر ذا قلب، كان جواب فاطمة الأول هو الرفض، سرعان ما غيرته صفعات محمود الذي صار سيدهم الآن، ذكرها قائلا:

- كبرت البتنجانة وتندلوا جراصها.... ونسيت قفا الوسخ يلي كانت على راسها.... شبكي نسيتي سمعتك اللي قصرتتي قدام الكل... وراح تأثر على كل بنات العيلة كلاتهن في زواجهن.... احمدي ربك أنه قبل فيكِ.... مسكين رح يشيل ها البلوة لحاله.... اسمعيني أمنيح إذا بتفكري أني راح أتركك تلعبي بشرف العيلة متل مابدك زي ما كان بيتركك عمك محمد بتصيري غلطانة.... على آخر ها الأسبوع بتكون خطوبتك على موسى... فهمتي؟... يلا انقلعى.

دفعها إلى فراشها ورحل، لم تقو على قول المزيد، أما عزيزة فواستها وهي تحتضنها بأنها لن تترك موسى وإلا وقد امتلأ رأسه بتوصياتها على عروسه أن يهتم بها ويرعاها، لكن هذا لم يُخفف من دموع فاطمة شيئًا، ضاقت آشيا بالمنزل، وصارت تتعمد أن تتأخر في طريق عودتها من المدرسة، لأن المنزل صار بالنسبة لها موحشًا للغاية، كل شيء يتداعى، لم تعد قادرة على رؤية أختها بهذه الحالة، كان عدنان يحس بها، يحس حتى بصمتها، كل ما حكى لها شيئًا ذهب نظرها بعيدًا، وفكرها إلى ما هو أبعد، لكنها كانت معه أفضل حالًا، كانت معه تشعر بالاطمئنان، كأن صوته تعويذة تخيف أحزانها، فيرحلوا جميعًا، إلى ما وراء النسيان، جلس صامتًا إلى جوارها فبادرته قائلة:

- عدنان شو فيك؟؟ صارلك كتير ما عم تحكي.

- شو بدك أحكي يا ها القلب اللي بصدري؟؟ أؤمريني وأنا بانفذ.

- شو رايك تغنيلي؟ من زمان ماسمعت أغنية من أغنياتك الحلو.

- شو بدي أغني؟ أمممممم كله اتخربط بعقلي... هاي أول مرة تطلبي مني غنيلك... شكلك وقعتي بغرام صوتي.

- إيه... يلا يا وسوف زمانك فرجينا الحنجرة.

وضحكت من قلبها، فطارت مع ذرات الهواء زهور مختلفة الألوان، لم يكن هو من يبهجها بقدر ما كانت هي كل سعادته، نظر إليها كأنه ينظر إلى لوحة ساحرة، وحضرته الكلمات الفيروزية فقال:

انتي وأنا عم يسالونا كيف..... منضل شو بيحلا لنا نغني

ما بيلتقا مرات عنا رغيف..... ومنعيش بأطيب من الجنة

عمترقي عحفة الشباك..... هالتاركو صبح ومسا مفتوح

ولو ماعاد تسالي شو باك..... ولاعاد ياخدنا القمر ويروح

نظرت إليه برقة وامتنان، ونظر إلى عينيها طويلًا، ثم قال بغموض:

- شو رأيك نهرب؟

- لوين بدنا نروح؟

- أي مكان مو مشكلة لوين نروح المهم نكون سوى.

- بتقدر تاخدني على أمريكا؟

- ..... يمكن أقدر في يوم من الأيام - كيف وأنت بدك تصير ضابط شرطة؟

- راح أقبض على عمك محمود وساعتها بتقدري تسافري مثل ما بتريدي.

ضحكت آشيا ملء قلبها، لم تكن تأخذ حديثه دائمًا على محمل الجد، رغم أنه كان دائمًا جادًا، يحول كلماته فقط إلى المزاح حين يكون صداها غير مقبول لديها، بغض النظر عن كل أحلامه كان هذا حلمه الأول منذ وقعت عيناه على آشيا، أن يهرب بها، إلى حيث لا عقاب لها أو له إن تحابا، كان يذيب قلبه الذنب وهو يسأل آشيا عن سر الكدمات على ما يظهر من جسمها، فتضحك بإجابة واحدة وهي:

- شو ما عملوا ماراح بعد عنك منوب.

كان يشعر بالإطراء والغبطة لأنها تتحمل كل هذا الألم من أجله، حتى وإن كان هذا بدواعي عنادها، لكنه كان يردد كلمات قلبه دائمًا بأنها تتحمل لتراه فقط، لكن سرعان ما يغرق في الذنب، لم يكن يريدها أن تشهد خطبة أختها، ولا توديع أخيها، كان يريد أن يهرب بها قبل كل هذا، كان يتمنى أن يكون ذا منفعة لها، ألمُها يضيف الكثير من الثقل الحارق فوق كاهله، لكنه لم يشتكِ، ولم يُظهر لها شيئا، فما كان فيه من ضجيج الحزن غطّى على كل الأصوات حوله.

وفي يوم الخميس، نفذ محمود كلامه حرفيًا، لم يكترث لدعوة أحد، ولم يكترث أن هذه الذكرى ستظل في ذهن فاطمة طوال حياتها، فأقام الحفل على عجل، وكأنه يؤدي مهمة، ولم يكترث لكلام الناس بعدم اتباعه الطقوس المتعارف عليها، فكانت خطبتها بلا مهر أو ملبوس البدن المال الذي سيساعدها في الجهاز، فلم يكن هناك أصلًا جلسة فصل الحق بين الأهلين لتحديد التكاليف على الطرفين، فلا أهل لها هنا، وكذلك اعتبر محمود أنها كفتاة لا تستحق المال، فيكفيها أن موسى قَبِل بها، هل كان هذا حفلا؟! البيت خالٍ من الزينة، ولا معالم احتفالية سوى المأكولات والمشروبات، الأطباق وحدها تحتفل، فاطمة المتجهمة التي تحرك أصابعها بعصبية على خاتم خطبتها، الشيء الوحيد الجديد الذي اشتروه لأجل المناسبة، والذي ألبسها موسى إياه دون اكتراث، وموسى الذي يتطلع لكل من يمر أمامه دون أن يرمي نظرة واحدة للجهة التي تجلس فيها فاطمة، لم يكن حتى ثوب فاطمة ثوبًا جديدًا، بل كان ثوب خطبة عمتهم سمية أعارتها إياه، ولم يكن مقاسها، فقد كانت أنحف كثيرًا من سمية، فربطت عزيزة حزامها حول خصر فاطمة لكيلا يتهدل عليها، آشيا وبعض بنات عماتها قمن بتصفيف شعرها، وتركنه يتلوى دون زينة على ظهرها، ورفض محمود أن تضع أي مساحيق، لم يكن هناك ضيوف سوى بعض أصدقاء موسى، ولم يكن هناك مظاهر فرح إلا بعض الزغاريد قصيرة العمر، لم تُرد آشيا أن تكون هناك، ولكنها اضطرت للوقوف على هامش الموقف، تتطلع للكل كأنها تشاهد فيلمًا مأساويًا، ولكن البطلة التي تتعاطف معها هي أختها، مرت الساعات بطيئة جدًا مثل الموت البطيء لوردة صغيرة مثل فاطمة انقطعت عنها المياه والشمس، تذبل رويدًا وتتساقط أوراقها، فهكذا دائمًا تمر الأيام القاتلة، ذهبت فاطمة مباشرة للنوم بمجرد نهوضها، لم تكن تريد أن تُحدث أحدًا حتى أختها.

تألمت آشيا حتى الموت لحال أختها فاطمة، مشوار الألف دمعة بدأ هناك في حديقة المنزل المظلمة، فجأة لم تعد وحدها، خرج موسى مع أصحابه وهو يودعهم، دون أن يلحظوا وجودها، تناهى إلى مسامعها حديث موسى وأصدقائه يداعبون غروره عند الباب، يدفعونه من كتفه ويحسدونه على الجنسية الأمريكية التي سيأخذها على طبق من فضة! فيرد عليهم بتشف قائلًا:

- ماراح أتذكر حمار فيكن يوم أسافر لأمريكا... راح يكون كل شي هون ورا ضهري وأبدا حياة جديدة مافي متلها...

وضحكوا جميعًا بجزل لمزاحه الذي كان فيه الكثير من الواقع، قرأت آشيا أخيرًا السطر الناقص وفهمت الحكاية، هكذا إذن رفضوا خالد، هكذا إذن تحاملت محروسة على نفسها وزوجت فاطمة لابنها، تلك الورقة الباهتة، حياتهم كلها عليها أن تسير على مسار أحلامها، حتى يتسنى لهم الاستفادة القصوى منها، من أجل الإشارة الخضراء في الدخول إلى أمريكا التي يتصارع على فرصة الذهاب إليها العَالم، حتى أخوها تخلى عنهم من أجلها، بقي وجه آشيا جامدًا، والكثير من الوجع يعصف بروحها.

أين كنت ذلك المساء

حين شاهدت آخر عود ثقاب في العالم

ينطفئ

وكنت وحدي؟

غادة السمان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

بعد الصدمات تتطلع عيوننا إلى الكثير من الأشياء، دون أن تراها مطلقًا، أمضت آشيا النصف الثاني من ليلتها معلقة بكلمات موسى، وهي تحملق فيما حولها في حديقة المنزل، أختها الوحيدة وهبت عمرها لرجل لا يريد منها سوى جنسيتها الأمريكية، مجرد ورقة صارت من الماضي يريد أن ينتفع بها، هل هكذا تسير الزيجات هنا؟ لهذا السبب وافق موسى إذن رغم البغض الذي يحمله لهن، لم تتمكن من النوم ليلتها، ولم تعرف كيف تُخبر أختها بما سمعت، تحملها قدماها جيئة وذهابًا وهي ترتعش، سارت بخطوات خرساء إلى غرفة جدتها، حتى لا يهتدي لاستيقاظها أحدٌ، دخلت الغرفة التي نامت بها أولى ليالي قدومها لوطنها، قبضت على طرف الغطاء الذي يلف جدتها في سريرها، ارتعشت آشيا وهي تتنفس الكلمات زفيرًا وشهيقًا دون أن تنطقها، تحركت أنامل عزيزة ببطء، والتفت حول وجه آشيا، شعرت بدموعها الحارة، ظنت في البداية أنها حزينة على خطبة أختها، فشدتها واحتضنتها بجانبها على الفراش، حنت أطراف آشيا الباردة لدفء الاحتواء، بكت كثيرًا في البداية وظلت تشهق بأسى، أدركت عزيزة مقدار ألمها، فهي تعلم أن دموعها عصية، وليس من السهل ضبطها بهذا الوجه، خففت عنها ووشوشت لها، لكن آشيا كانت مصممة على البوح لأنها كانت تشعر أنها ستنفجر:

- ستي... موسى بده يتزوج أختي مشان الجنسية الأمريكية.. مو مشان بيريدها.... مابيصير هيك يا ستي.... لازم تخليه يبعد عنها... لازم يا ستي.

- هدي حالك يا صغيرة... ماتاخذي أي قرار وإنتي معصبة.... مين حكالك ها الكلام يا حبيبتي؟

- أنا سمعته بنفسي يا ستي.... مافينا نتركه يسوي اللي بده إياه.

صمتت عزيزة لدقائق وهي تسير بأصابعها على خصلات آشيا، حتى انتظم تنفسها، ظل عقلها يدرس كل الاحتمالات، حتى لاطفتها قائلة:

- يا صبية فيه كتير أسباب للزواج... بس بالنهاية الزوجين هنن اللي بيحددوا طبيعة علاقتهم ببعضن... مثل أبوكي كان بالبداية تزوج الماما مشان الجنسية، لكن استمر معها سنوات وجابكن وكبرتو وصرتو حلوين كتير... موسى لساته ولد طايش وما بيعرف شو بيحكي..... بده يغيظ رفقاته..... ماتاخدي كلامه جد هلأ بكرا بيصير زلمة مسئول وبيبني بيت ولما ينقفل عليهن باب واحد بتختلف نظرتهن لبعضن... الزلمة ياللي بدون مَرَة مثل الخاتم بلا جوهرة... وأختك فعلا جوهرة وبيحس بقيمتها وراح تشوفي.

- لا ياستي لازم نخليهن يتركو بعضن من هلأ.

- مو كويس على سمعة أختك ولا سمعة بنات العيلة يا آشيا... نحنا مو بأوروبا ولا أمريكا، نحنا بقرية في بلد عربي شرقي ما بيقبل للمرأة إلا النهايات السعيدة، وإلا بيحاسبها طول عمرها على أي شيء فشل بحياتها.... بيضل عالق بوجهها كأنه انخلق مع ملامحها.. لساتها صغيرة فاطمة على أنها تواجه هيك مشكلات.... راح

يندمجوا مع بعضن..... لساتنا في أول يوم خطوبة ما تقلقي... انتي بس نامي هلأ وأنا بأفيقك ع المدرسة مابقي إلا ساعتين يلا.

ومرت بأصابعها برفق على جفون آشيا، كأنها تُطفئها كما ينطفئ المصباح، رغم أن ضوء النهار طرق نافذتهم، لم تفلح آشيا في اجتلاب النوم، لأنها انشغلت بالطعم المر للدموع، كان حالها مزريًا في المدرسة، وشعرت بثينة أن ليلة البارحة لم تكن احتفال خطبة وإنما كأنه مأتم، حكت آشيا لها كل شيء، وأفضت إليها بأنها لا تستطيع أن تخفي عن أختها مثل هذا الأمر، ولكنها لا تعرف كيف تنقله لها، وكيف ستتلقاه، باحت بخوفها من أن تؤذي أختها وهي بالأساس لا ترقص فرحًا لمسألة الخطبة، ضغطت بثينة على ذراع آشيا مفكرة ثم نصحتها بتواطؤ قائلة:

- شوفي إنت ما تحكيلها وما تتركي الموضوع يمر... خليها تنتبه للموضوع.

- كيف؟

- يعني لمحي إلها وشوفي كيف بيكون رد فعلها.

اطمأنت آشيا لفكرة بثينة، واستطاعت أن تركز في دروسها ما تبقى من نهارها، وقبل رحيلها عرضت بثينة عليها أن تحضر معها في زيارة لأهلها بدمشق، والمكوث معهم بضعة أيام حتى تطرد حزنها، لم تدر آشيا كيف تجيبها، لكنها كانت بحاجة ماسة للخروج من هذا المكان ولو ليوم واحد، مما جعلها تقرر الذهاب مهما كان رأي أهلها، وعادت طريق منزلها صامتة مع عدنان، لم يشأ سؤالها وألمُها يطل عليه من عينيها الذابلتين وشفتيها ووجهها الشاحب، نبهها صمته لتقصيرها في حقه، فهو عادة ثرثار، يقابلها بباقة من الكلمات والأغاني والضحكات وكل ما يجلب البهجة، لكنه وقف حائرًا أمامها ذلك اليوم، مدركًا أن حزنها أكبر من مقدرته على مواساتها، بادرته قائلة:

- عم فكر أروح مع بثينة الشام أغير جو... يمكن رح غيبلى شي يومين تلاته.

- ترجعي بالسلامة.

قالها متكدرًا مستسلمًا، تحسُن نفسيتها قطعًا أهم لديه من عذاب فراقها بضعة أيام، شعرت آشيا بالأسى أن حزنها معدٍ، وانتقل إليه دون رغبتها فصارحته:

- انت الوحيد اللي باشتقله يا عدنان...

تلك الجملة أعادت إليه ابتسامته وعنفوانه وحيويته، فقال لها:

- إذا بتشتاقيلي خذيني معك... في جيبك... بتعرفي أنا خفيف متل الريشة!

ضحكت آشيا ضحكة عالية، غير مبالية بنظرات الناس حولها، وهي تسير بجانب عدنان، نظرات مليئة باللوم والريبة، حادثت نفسها أنهم مُحقون، فقد ازداد طول عدنان ونضجه، فصار رجلًا، لا بدَ أنهما ما عادا صديقين إلا فيما بينهما فقط، وهما في نظر الجميع عاشقان، يحملان رغبات شيطانية، أخرجها من أفكارها توقف عدنان عن السير عند أول الزقاق الذي يحمل منزلها، وودعها بابتسامة، سائرًا

بظهره إلى الخلف، وهو يتطلع فيها، وبعد عدة خطوات يلتف ناظرًا أمامه كما لو أنه يُحيي ملكة، لم تلمه فهو يحاول أن يقلل من عقاب أهلها لها، كان المنزل هادئًا على غير العادة، ثم اكتشفت أن عمها محمود في منزله، ولا ينتظرها ليبث في وجهها سمومه، استغربت أن يتخلى عن متعته اليومية الوحيدة بهذه البساطة، فلا بد أن زوجته تنعم بها الآن بدلا منها، قالت لنفسها همسًا تلك المسكينة.

دخلت المطبخ وتطلعت لوجه أختها فاطمة الخالي من التعبيرات، وهي تساعد عزيزة في الطبخ، كانت عمتها سمية منشغلة برضيعها الذي لم ير أباه، لأنه مسافر بدوام كامل منذ كانت حاملًا فيه، كأنه يقتطف الرزق على الطريق، اندهشت لما على النساء هنا أن ينتظرن، فقط ينتظرن، كأنه الشيء الوحيد الذي خلقن لأجله، كأنه معلق بهويتهم، ها هي سمية تنتظر فرجًا، وأختها تنتظر ما يحمله لها موسى من مفاجآت، حتى جدتها عزيزة تنتظر أن تلحق بزوجها الراحل إلى سلام أبدي، تساءلت في أعماقها هل انضمت إلى حزب الانتظار كذلك بانتظارها معرفة أي أخبارٍ عن أخيها؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فزع مازن على صياح والده باسمه، ودقه بغلظة على الحائط الرقيق الذي يفصله عنه، ساعات العمل تبدأ مبكرًا مع أفراد شعب لا يتعرفون على ملامح التأخير، ارتدى ملابسه مثقلًا بالنوم دون إفطار، سحبه والده معه إلى محطة البنزين التي تبعد عن شقتهم الضيقة، لم يسكنوا فيها وحدهم، بل روائح عديدة خانقة تلازم المكان، لم يفلح مازن في دفعها عن جسده مهما تحمم، ولا عن ثيابه مهما غسلها!

كانت لا تلبث أن تضايق مشاعر زملائه في العمل، لكنه لم يكن متكلمًا على أي حال، فقد اعتاد الصمت مصاحبًا للعمل منذ كان في المزرعة، جفل لذكرياته المداهمة وحاول طردها، كما حاول طردها مرارًا وتكرارًا بمجرد قدومه مع والده إلى أمريكا، أغمض عينيه قليلًا في انتظار السيارة القادمة، تحدث إلى إخوته في ذهنه، سألهم ما إن كانوا بخير؟ هل اشتاقوا إليه؟ هل حالت دموعهن دون مسامحته؟

تذكر طعم أول رشفة حرية تذوقها حين وصل المطار، لم يتطلع أحد لثيابه القديمة، لكنه تطلع إلى كل ما حوله وهو يخجل أنه لم يغير ثيابه قبل وصوله، لكنه لم يملك غيرها، الهواء اتسخ بذرات التراب العالقة بثيابه، ورائحته علقت بكرسي الطائرة المريح منافسًا السرير الذي كان ينام عليه في بلد الماضي كما يسميها الآن، الجميع يسير حوله على عجل وباستقامة، ولا أحد يتطلع بفضول وريبة إلى الآخر، شعر وكأنه لم يولد هنا، فالسنوات التي قضاها في سوريا أنسته ما كانت عليه الحياة، لم يستطع أن ينسى كيف يتدخل الجميع في شئون بعضهم، ويطالعونه، ويسألونه فيما لا يخصهم، نسي كيف كان طعم الهواء في رئتيه الممتنة لنظافته، يمكنه أن يكون ما يريد كيفما يريد ومتى يريد، خصوصًا في مدينة كبيرة مثل نيو أورلينز، فهي حتى كانت أكبر من المدينة التي عاش فيها سنوات طفولته، نسي كيف يهتدي وحده لـ طريقه دون أن يُملي عليه الجميع ماذا يجب أن يفعل دون حق في الاعتراض، هكذا تربى، الطاعة أو النبذ، ركب الحافلة يكاد يدمع فرحة، يتطلع إلى الأرصفة

والشوارع والمباني الفخمة فارهة الطول، حتى إنه لم يكترث لوالده الذي لم يتبادل معه كلمة حتى وصلوا الشقة، كان منشغلًا بمتابعة ما فاته في هذه المدينة التي لا تهدأ، ابتسم مازن بسخرية وهو يتذكر سذاجة أفكاره في لقائه الأول بأمريكا بعد سنوات، أدرك أن المدن الأولى تظل في الطفولة أبهى مما نجدها عليه حين نعود إليها، فهي تحتفظ بأناقتها بناءً على ذكرياتنا الجميلة فيها، وحين نعود لنكون فيها ذكريات جديدة، نكون قد خلعنا عنها ذاك الثوب الوردي من سذاجتنا وبراءتنا، فلا نراها، لا نجد أبدًا المدن التي نسير في شوارعها في ذكرياتنا، أو هي التي لا ترانا ولا تتعرف علينا، ولا تشتاق إلينا بنفس الحنين الذي لحق باسمها فينا لسنوات، شيئًا فشيئًا تبددت هذه الفرحة بعد أن حاصره شوقه إلى أختيه، احتياجه لشخص يحبه ويضمه ويبتسم له، لغة لا يعرفها والده الذي يتكلم ويحب ويكره بالمال، والذي بادره بأنه سيحتفظ بمرتبه مؤقتًا، مشاركة منه في تحسين الوضع المعيشي، لم يصدق أن والده بعد كل تلك السنوات لم يحتفظ بشيء يجعله يخرج من هذه الشقة الخانقة، لم تكن هذه المفاجأة الوحيدة له، فلقد توالت عليه الصفعات، حين شرح له والده صعوبة أن يستكمل دراسته في الوقت الحالي، وأن عليه تأجيلها حتى يحصل على وظيفة تكفل له ما يتبعها من مصاريف، لأنه لا يملك ما يساعده به، لاحظ أن طباع والده ازدادت سوءًا عما كانت في طفولته، شربه للخمر بكثافة، وغيابه لأيام عن المبيت في الشقة، حتى كان يتساءل قلقًا عن مكان وجوده، رغم حضوره في اليوم التالي للعمل مشرقًا، لم يجرؤ على السؤال لأنه تأكد في أعماقه أن الموضوع يخص امرأة، امرأة جديدة غير أمه، ما أكد له تخمينه أنها ظهرت في مكالمات هاتفية يتلقاها أبوه في أثناء وقت الاستراحة، ظهرت في ابتساماته وحركة يديه في أثناء تلك المكالمات، وبات وجودها منطقيًا لتكتمل صورة الوالد في ذهن ابنه، الذي كان يعرف ما لا تذكره أختاه، علاقاته النسائية التي لا تنتهي والتي كانت تصيب أمه بالأرق، فيصحو أي ساعة ليلا ليجدها هناك جالسة تضع وجهها بين يديها، ما إن تشعر بوجود مازن حتى تخلع وجهها الباكي وترتدي قناعًا متفائلًا لتقابل ابنها به، تخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام، وتقبله بشفتيها المكتنزتين على خده، قابلته بصقة على نفس الخد حين سأل والده عنها، وباح برغبته في رؤيتها، نظر مشدوهًا إلى أبيه بعد أن أهانه وبصق في وجهه غضبًا بوقاحة، ثم بات يصفها بكل الأسماء القذرة كالمجنون، كأنه بسؤاله هذا أساء إليه بإهانة لا تغتفر، صارت العلاقة متوترة بينه وبين أبيه، لم يعد رامي يترك أي تصرف لابنه إلا وينتقده، حين يتأخر بعد ميعاد عمله عائدًا إلى المنزل، حين يأتي رامي إلى الشقة دون وجود مازن يستشيط غضبًا، لم يكن ليرتاح إلا بمكوث ابنه طوال الوقت في الشقة، حتى إنه طلب إليه أن يطلب ساعات عمل إضافية، حتى لا يملك وقتا ليحتاج شيئًا سوى النوم.

كان لا بد أن يأتي ذكر الموضوع أمام والده، ذكر مازن بحذر أنه يريد أن يطمئن على أحوال أختيه، تلقى من والده ردًا متبلدًا، وحاول مماطلته بعض الوقت حتى جاءه مساءً باتصالٍ قصير من الضيعة، أحد أفراد أسرته قد قطع المسافة ليتحدث إليهم، مط رامي شفتيه وألقى بالهاتف إلى مازن، فاتصل بهم، ونبضات قلبه تتسارع، كان يعلم أنهن إخوته، وفعلا كانت فاطمة على الجانب الآخر بصوتها

المبحوح، كانت وحدها دون آشيا، بادرته بكمٍ من الأسئلة عن صحته، وأحواله منذ وصوله وبادرها بقلقه:

- كيف حضرتي للضيعة لحالك؟ مين معك؟

- ..... معي موسى..... موسى وافق يوصلني لهون.

- موسى؟

- إيه.... صار خطيبي.

ابتلع مازن غصته محاولًا إخفاء شعوره بالخيبة والخذلان أمام أخته، حاول أن يبدو مرحًا، لم يدرِ كيف يبارك وكيف لا يبارك، فاكتفى بالكلمة نفسها «مبروك»، ثم اختصر الحديث بانشغاله بالعمل، ليس لهدوءٍ في شوقه بل لانقضاء الوقت الذي يمكنه فيه أن يتمكن من التمثيل، موسى ذلك الغليظ يتزوج أخته وردية الأحلام والقلب؟ كيف يمكن لزيجة كهذه أن تشق طريقها وسط صعوبات الحياة؟ ولم بهذه السرعة؟ ها هو ذنب آخر يضاف لذنوبه التي تؤرقه في أثناء نومه، بدأت كلمة «لو» في مصارعته، لو كان هناك لما وافق على هذه الزيجة، ولكن هل كان هذا سيردعهم؟ على الأقل كان سيؤخرها، بقي يحدق في الهاتف بين يديه محاولًا استنشاق بعض الصبر أو التصالح مع النفس، فنفسه لا تزال غير راضية عن قرار سفره، لا تزال تحن إلى ضم أختيه بين ذراعيه، لا تزال تحن إلى مدينة الدفء في عيونهم الباسمة رغم آلامهم المشتركة، كم يشتاق هذه الدنيا الآن، وقد حمله سفره لحرية قارصة البرودة، ذكر نفسه أنه لم يسافر بأكمله، فما زال هناك جزء لم يسافر معه، يسير خلف دموع أختيه.

مسحت فاطمة دمعتها المشتاقة، ومسحت من قلبها كل عتب على أخيها، بمجرد سماع صوته، لم يكن مستساغًا أن تشارك أحزانها مع خطيبها الذي يقف خلفها متأففًا لضياع الوقت المخصص له مع أصدقائه في نزهة لا فائدة منها، من أجل حديثها مع أخيها، كلماته الوحيدة التي تبادلها معها كان من أجل توجيهها في أثناء السير، غلظته في أول فرصة كانا فيها بمفردهما كسرت خاطرها، فبقيت تسير بمحاذاته، وعيناها متعلقتان بطرف حذائها، شمت رائحة السجائر وهي تنبعث منه، وخافت أن تتعلق بثيابها، ركبت إلى جانبه عائدة، كان ملتصقًا بها، مما أثار تساؤلها، لكنها عللت لنفسها ذلك بضيق الكرسي، لم تدر أهو الاحتقار سبب صمته أم عدم اعتيادهم على بعضهم، أم خلافهم القديم بخصوص حَمار خديها، كان يأكل بعض الفول السوداني متظاهرًا بالانشغال عنها، تعلقت عيناها السارحتان بملامحه وشعره الأسود الفاحم الذي يغطي حاجبيه، وشاربه الكث رغم صغر سنه، طوله وعضلات جسده، أصابع يديه القاسيتين الخشنتين من العمل الدائم بهما، شعرت أنها تتطلع إلى تفاصيله للمرة الأولى في حياتها، فلم تسنح لها الفرصة - رغم أنهما عاشا بالقرب من بعضهم لسنوات- أن تتطلع إليه وإلى عينيه، وأن تُدقق في تفاصيله، ثم تعلقت عيناها بما في يده، فقال زاجرًا:

- خدي.... لحتى ما أموت من وجع بطني... الله يستر من عينك.

- آسفة... مابدي... كنت عم فكر.

- مسوية حالك مستحية ياخبتك.... خذيها يلا ما بحب أعيد كلامي.

ودفع الكيس في يدها بعنف، فأمسكت به بخوف، تطلعت إليه وكأنها تأخذ الإذن منه، فدفع مِرفقها فآلمها، أكلت منه اثنتين بسرعة ابتلعتهما وهو يحدق بها، حتى أعاد الكيس ليده بشراسة وقال:

- بيكفي.

لم تدرِ أكان يقصد مداعبتها أم إزعاجها، فهي لم تكن تفهم بعد تعابير وجهه، لكنه بقي بمزاج رائق طوال اليوم، حين وصلا البيت، جذبتها عزيزة جانبًا، وسألتها ما إذا كانا قد تبادلا الكلام وارتاحا لبعضهما بعضا، لم تعرف بما تجيب، لكن ملامحها المحبطة أجابت، فردت عزيزة:

- أصبري يا حلوة... ماحدا بيقدر يقاوم جمال ها العيون الحلوين.

ظهر شبح ابتسامة على وجهها، ثم رحلت إلى غرفتها، أعطت الحرية لخصلات شعرها ثم بدأت تمشيطها، هكذا تفعل حين تريد أن تسير بفكرها في أزقة عديدة، لفت زر المذياع القديم بغرفتها، فانطلقت أميمة خليل تشق طريقها في أحزانها، وتلعب على أوتار روحها بكلماتها الحانية وصوتها الذي يعرف مفاتيح القلب، في تواطؤ معها قالت:

عصفور طل من الشباك

وقال لي يا نونو

خبيني عندك خبيني

دخلك يا نونو

فأغلقت فاطمة عينيها بأسى، وهي تتحسس جناحيها المكسورين، تابعتها بشفاه تتحرك بصمت:

قلت له خايف من مين

قال لي من القفص هربان

قلت له ريشاتك وين

قال لي فرفطها الزمان

ونزلت عا خدو دمعة

وجناحاتو متكيي

وتهدى بالأرض وقال

بدي إمشي وما فيي

أمسكت وجهها واستسلمت للبكاء، رأت آشيا العائدة للتو من المدرسة انعكاس وجه أختها الباكي في المرآة، فجَرت إليها، واحتضنتها بقوة من الخلف، لا تسأل ولا تتكلم، بادرتها فاطمة وسط البكاء قائلة:

- بدي أطير يا آشيا... بدي كون محبوبة سعيدة.... بدي أضحك من قلبي.

- شو بدك كمان؟.... احكي ياللي بقلبك كله.

تمالكت نفسها المنفعلة، وبدأت تفكر بهدوء، وقالت وعيناها معلقتان بحلم:

- بدي فستان عرس أبيض ذيله يوصل لآخر القرية... وبدي طرحة ملفوفة على شعراتي وتاج مذهب... وزوج يحبني ويحميني ويحن علي..

- راح نخلي يوم عرسك هو أجمل يوم بالوجود.... شو بدك بعد؟

- بدي في أطفال كتير يلعبو معي... مثل عمتي رولا... على قد ما معذبينها على قد ماهي مكتملة بوجودهن.... ماهي محتاجة حدا فينا يسليها ولا يواسيها ولا يفرح معاها... عندها عيلة متكاملة.... نحنا هون وحدنا مقطوعين كأن جذورنا تاهت ماعدنا عارفين كانت بالأصل من وين.... بدي يصير إلنا عيلة وعزوة ونصير أقوى.

مالت آشيا برأسها على رأس أختها، وضمتها إليها، لم تتمكن من السكوت، فسألتها وهي تخاف التطلع إليها قائلة:

- فاطمة كيف بيعاملك موسى لهلأ؟

- مالقينا وقت نحكي... أصلا مافي مجال ما انت بتعرفي عمي محمود متواجد على طول وأحوال البيت.

- باتمنى لو يحبك.

- برأيك يكون حكى لأمه محروسة أنه بده ياني لأن بيحبني؟ مثل ما حكيت ستي يوم صفعني كان عم يغار؟

- أنا بس خايفة يكون داخل على طمع.

- ضحكتيني والله ياخيتي... وشو بأملُك أنا لحتى يطمع فيه؟.

- الجنسية الأمريكية مثلا.

لم تتطلع آشيا إلى وجه أختها في تلك اللحظة، لكنها شعرت بوقع الصدمة عليها، تأكدت أن عينيها تقولان كيف لم أفكر في هذا من قبل، صمتت للحظات ثم قالت بانكسار:

- بتظني هيك؟

لم تعد تهم الإجابة، فاكتفت آشيا بمعانقة أختها، سارت معها بأحلامها ومخاوفها ودليلهما صوت أميمة وهي تختتم لتنسحب:

قلت له لا تخاف أتطلع

شوف الشمس اللي راح تطلع

واتطلع عالغابة وشاف

أمواج الحرية بتلمع

شاف جوانح عم بتزقزق

من خلف بواب العلية

شاف الغابة عم

بتحلق على جوانح الحرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت آشيا أنها تعيش لحظة من اللحظات المعجزة، بركوبها إلى جانب بثينة، فيما يسمونه قطار المصايف، متجهات إلى الشام في الصباح الباكر، تذكرت وجه عمها محمود حين أعطتها عزيزة بعض المال مذكرة إياها بورقة مزيفة للطلبات فقط، لتقنعه أن ذهابها للشام سيفيدها، ولم يستمع أحد لاعتراضه أن تبيت لدى أغراب لعدة أيام، بل إن سمية وورولا بادرتا بطلبات كثيرة منها وهي راحلة للشام، مما عزز بقوة ذهابها، وجعلها تتعرف على هذه المدينة التي كتب عنها الكثيرون ووصفوا جمالها، شعرت بالخجل لأنها المرة الأولى التي ستزور فيها الشام وهي على مشارف الثانوية، رغم أن قريتها لا تبعد الكثير عن دمشق، انطلق صوت صباح فخري - من المسجل الذي كان بيد أحد الراكبين بجانبها- وهو يصيح بغبطة وحب:

يا مال الشام يالله يا مالي

طال المطال يا حلوة تعالي

فاندلعت حماسة آشيا، وظلت تغني أغنية حفظتها من سماعها لها بالمذياع القديم في منزلهم، وشاركتها الغناء بثينة ومعظم مَن بالقطار، لم تشعر بكلماتها تندس في خلاياها لتوقظها إلا في تلك اللحظة، تصفقان وتتدافعان في السيارة بمرح وحب، كأنهما مقبلتان على صفحة جديدة، بثينة كانت رفيقة ممتعة، بكلامها الأخاذ تصف لها كل ما يمر بهم في الطريق من حدائق وبيوت ومزارع، حتى تبسم وجه الشام مرحبًا بهم، لحنًا مختلفًا كانت دمشق، عزفت بقلب آشيا موسيقى ذات إيقاع روحاني عتيق، جعلها تشعر أنها دخلت دولة منفصلة وعالم منفصل عن العالم الذي طالما عاشت فيه، بعد أن هبطت من القطار في الشام وركبوا السيارة، مرت السيارة من حي لآخر، مرقت بين الطرقات المغطاة بالشجيرات، وسلمت على البيوت المتقابلة، العتيق منها والحديث، شوارع وميادين وصوت أم كلثوم يناقش صوت فيروز جمال البيوت ودفأها، جنبًا إلى جنب تغنيان، انبهرت آشيا وهي تتطلع إلى كل ما حولها متمنية لو أن فاطمة قد ذهبت معها في هذه الرحلة، كيف سافر أخوها من مطار دمشق دون أن تكون قد سحرته المدينة وجعلته يفكر مليًا ويعود أدراجه؟ ربما لأنه

كان مبهورًا بحريته، فأعمته عن كل ما هو جميل في عالم سجنه، تطلعت بثينة لآشيا بابتسامة واعدة إياها أن تجعلها تزور أهم معالم المدينة بمجرد أخذهم قسطا من الراحة، وتناولهم بعض الطعام لدى خالتها.

امتنت آشيا كثيرًا لبثينة، وهي تقدمها لخالتها بصفتها الصديقة الأعز والأقرب، شاركتها غرفتها وثيابها وطعامها وكل شيء دون أي مقابل، لم تعتد آشيا تلك المعاملة الرقيقة، بدت تلك الخالة ودودًا جدًا مقارنة بغلظة أسرة آشيا، ابتسامتها صافية لا تبالي أي جنسية تحمل ولا بخلفية والدتها ولا بأي شيء، أكلت آشيا قليلًا من الطعام، ثم بدأت تستجيب لفضولها اتجاه هذه المدينة، لم تتحمل البقاء في المنزل بضع ساعات، فخرجت معها بثينة، ولدهشة آشيا لم يرافقهم أحد، تحلت أسرة بثينة بحرية وثقة كبيرة مقارنة بما تمر به آشيا مع أسرتها، سارت بها بثينة في أحياء دمشق القديمة، حي العمارة، المدينة التي بقيت خلف الأسوار بشوارعها الضيقة وحارتها التي تجعل العمارتين المتقابلتين يقبلان بعضها في حب، حتى لتمر بينهما عليك أن تلمسهما، الأحجار تتراص جنبًا إلى جنب لتبني الأرصفة مربعة أو مخمسة أو مسدسة يغمرها اللون الوردي، وتتشابك أغصان الكروم مع الأزقة لتشعر أنك تسير في أسطورة، الكنائس تجاورها المساجد والخانات والأسبلة والتكايا والمدارس والحوانيت العتيقة لتجار الحلي والنحاسين وناسجي الأبسطة، وعلى أبواب تلك الأبنية رسمت ألواحًا عليها تاريخ بنائها، شرفات البيوت وكُواها من الخشب المشتبك المتسق، يطرز الأدب لهجة ناسها ولباقتهم، شعرت آشيا بحلاوة اللغة العربية في لهجة الدمشقيين، سارت النشوة بعروقها وهي تتجول، وكأنها تتجول في جمال هذا الزمان الذي مضى، كانت وجهتهما جامع بني أمية، الجامع الأموي الكبير، درسته آشيا من قبل ورأت صورًا له، ولكنها حين وقفت أمامه، سحرها بعظمته وفخامته، لم يخطر ببالها ما كان سيخالجها وقتها، ما بين الانبهار بزخارفه الأموية وقدسيته شعرت آشيا أنها لا تسير على الأرض، وإنما تطير وتسبح بقدميها على أرضية صحنه التي يعانقها اللون البني على استحياء، سارت وهي تشير إلى كل شيء حولها، باندفاع، بينما تراقبها بثينة وهي تضحك قالت لها:

- شو فيكي وكأنك مو من هون؟... هاي بلدك يا آشيا... فينا نصلي هون اليوم.

- ها المكان مو معقول شوفي الأعمدة الرخامية الضخمة الفارهة وزخرفتها والتيجان يالليّ على راسها.

- إيه هاي طولها شي 15 متر.... بقايا المعبد القديم اللي كان قبله.

حكت لها بثينة تاريخ المسجد، واستمعت لها آشيا رغم أنها تعرف كل كلمة تقولها، ولكن عينيها كانتا تلاحقان كل ما هو مذهل في المكان، سارت بين أروقته تراقب النقوش والزخارف المذهلة وأبوابه البنية المتجاورة والقباب والقناطر المتراكبة، قنطرتان صغيرتان فوق كل قنطرة كبيرة، تحملها سَوارٍ مربعة ضخمة وأعمدة، توقفت صارخة عند قبة الخزنة المثمنة المرفوعة كأنها هودج على ثمانية أعمدة، ورق أشجارها المرسوم بالفسيفساء الملونة، يتساقط في قلب آشيا وكأنها عادت أيام

كانت تَستعمل لحمل المخطوطات الثمينة وأموال المسلمين، أدركت آشيا أنها أمام جمال لن ترى عيناها مثيلًا له في حياتها بعد ذلك، لم تتصور روعة خضار أوراق الشجر المرسومة بالفسيفساء، جعلت الأشجار حية بهذه الطريقة، توقفت قليلًا أمام الباب للتطلع لساريتيه الرخاميتين وما يتعلق بها من تيجان وقباب منقوشة نقوشًا حية تكاد تتحرك لولا التصاقها بالصخر، رفعت رأسها ورأت النبات الفسيفساء يكاد يسقط ثمره بين يديها، وشاهدت قبة النسر، دخلت بأقدام مرتجفة انبهارًا لترى تألق المسجد ومحرابيه ومنبره الحجري المزخرف بالمخمسات المفرغة الدقيقة والمنمنمات وبعض الآيات الفنية ما بين اللون البيج الباهت والأخضر، يتناغمان في إيقاع ساحر لإشعار الروح بالقدسية، رأت آشيا المعنى الحقيقي لكلمة الحُسن في هذا المكان، بمحاريبه الأربعة، وشعرت بالفخر لأول مرة في حياتها أنها تنتمي لهذا المكان.

سمعت صوت مئذنة العروس المتميز بنغمته ورنته ونمط إلقائه، وصافحت ألوان زجاج النوافذ الملون جدار القبلة، وتوقفت تتطلع للوحات الجدارية الضخمة، كانت أطرافها ترتعش في حبور، ارتكنت وصلَت ركعتين بجوار بثينة، وأطالت في سجودها وهي تشكر الله على كل ما أعطاها من نِعم، طالبة منه الكثير، وشاكية إليه الكثير، لعل دعاءها يستجاب، وحين سلمت يمينها ويسارها، نظرت نظرة أخيرة تحاول بها الاحتفاظ بصور المكان في ذاكرتها، حتى لا تنساها بكل تفاصيلها ما بقيت حية، وخرجت الفتاتان متعلقتين بأذرع بعضيهما، مرتا بالمتاحف التي تحمل الآثار الرومانية حول المكان، ولفتا الكثير من القاعات، ودعت آشيا من كل قلبها ألا ينتهي يومها أبدًا.

حياها قصر العظم برقة معماره، واحتفل بقدومها بزرعه وأبوابه المزخرفة وألوانه التي تتراوح بين الأسود والذهبي والبني خطوط متوازية مقسمة بالألوان ترسم أجمل معمار إسلامي بحديقته التي تزينها أجمل الأزهار بكل الألوان، أزهار تتدلى لترقص على مياه أحواض الفناء المثمنة الحجرية، تسبح في هدوء ورقة أشعرت آشيا أن الوقت قد توقف مؤقتًا، حتى تتطلع بدقة إلى كل تفاصيل هذا القصر الأخاذ، آخر قصور حكام دمشق، تكاد تشعر بالحب الذي سكنه منذ آلاف السنوات لا يزال متمسكًا بأحجاره، لفت الحرملك الذي يخص النساء، ومنه إلى السرملك، وشاهدت كيف تسكنه التماثيل مصورة الفلكلور السوري في كل جناح وقاعة في المكان، وكيف تتعانق فيه وتندمج الفنون الدمشقية والإسلامية، لمست بيدها أحجاره الملونة، وتطلعت إلى نوافير المياه التي بدت تحت أشعة الشمس كأنها ترش فضة، تتزاحم المعينات على أرضيته سماوية اللون، حلمت أنها أميرة في هذا القصر، وتمنت، وهي تدخل من فناء داخلي إلى آخر، لو أنها بقيت في هذا القصر ولم ترحل حتى آخر لحظة في حياتها، تمنت لو أن بثينة تملك آلة تصوير، فقد أرادت أن تحتفظ بأكبر عدد ممكن من الصور لهذا المكان، ولكنها اكتفت بكاميرا عقلها التي لا تصدأ.

رجعت مجهدة إلى المنزل من اللف والدوران، استلقت في فراشها، تعيد ترتيب ما شاهدته في يومها، وشعرت للحظة أنها ربما كانت تحلم، وأن كل ما مرت به كان فقط من نسج خيالها، أغمضت عينيها وباتت تدعو ربها أن يحمي لها أخاها وأختها،

في نفس التو واللحظة كانت فاطمة جالسة في ركن غرفتها، تحت ضوء خافت، تدعو ربها أن يفتح لها أبواب الفرج والرزق، تناهى لسمعها صوتٌ خارج بابها، وحين دققت نظرها وجدت أنه مفتوح، شق رفيع يُدخل الأبصار إليها، أحكمت لف ثيابها حولها، وفتحت الباب فجأة، فبهتت، كان موسى يقف هناك لاهثًا يتطلع إليها، كأنه بقي وقتًا طويلًا يراقبها، تسمرت في مكانها ولم تدر ما عليها أن تفعل، وحين استدارت لتعود، أمسك يدها، وضغط عليها بعنف، ليمنعها من الرحيل، بدأت ترتجف ولا تدري ماذا يريد منها، فقال بصوت هامس:

- وين رايحة؟

- بدي نام.

- شو كنتِ عم تعملي.

- كنت عم ادعي.

- ما بتستجاب دعوات الساحرات.

صعقت من كلمته، ونظرت إليه ولونها شاحب، أما هو فكانت نظرته مليئة بحنق لا تفهم سببه، قال لها ضاغطًا على أسنانه:

- تعي لهون..... أنا خطيبك.

ثم سحقها بين ذراعيه، فدفعت صدره صارخة، فكتم صوتها مسرعًا بأصابعه، وحاول أن يحتضنها أكثر ويقبلها عنوة، لكنها دفعته رغم ضعفها، أمدها شعورها بالتقزز بقوة إضافية لقوتها، وهي تدفعه، حتى اصطدم بالحائط، فقال بحنق وهو يحافظ على نبرة صوته الهامسة:

- شو فيكِ انجنيتِ؟.... أنا خطيبك ومن حقي أسوي اللي بدي إياه.

- انت ما بتحكي معي... كيف بدك اسمحلك تقرب مني.... شو بتعرف عني ولا شو بعرف عنك.... انت اللي انجنيت لأنك عم تفكر أنه هيك بتكون البداية..... مافي زوجين بيتعاملوا هيك مع بعضن.

- شو فيكِ بينحكى؟... وكيف بدك مني أسمع وانت بتتطلعي فيني بهيك عيون وجفون ما بيعرفوا الرحمة... يابنت انت جميلة.

ظنت في البداية أنه يسخر منها، لكن ملامحه الجادة وابتسامته المشتهية أثبتت لها أنه يعني ما يقول، أغلقت عينيها بألم، وهي تتذكر كلام آشيا، ثم تطلعت إليه بنفس العينين وهي تلومه قائلة:

- أنا اللي جميلة ولا جنسيتي الأمريكية؟

جحظت عيناه، وجرت التساؤلات في شرايينه، هل استمعت إليه؟ هل حكى لها أحد عما يدور بخلده؟

ابتلع ريقه بصعوبة، واقترب منها مهددًا لها بطوله الفارع، وهو يبحث عن إجابة، بينما تتطلع هي إليه بانكسار مصحوب بعتب وحنق، حاول كسب الوقت قائلًا:

- مين حكالك هيك حكي؟

- ماحدا حكى شي... مافي حدا بيحكيلي شي بها البيت... بس هاي أمور واضحة.

- مو صحيح بالمرة.... عمري مافكرت هيك.

- بدك تقنعني أنك بتتزوجني مشان بتحبني؟

قالتها بسخرية لاذعة، وجرأة تُحسد عليها، لأنها كانت تدرك أن إجابته لن تكون إيجابية بالتأكيد، التف حولها برجولته والكلمات تخرج منه ببطء:

- مين عارف متى بيجي الحب ولا كيف... مافي شي بيوقف بطريقه.

حبست أنفاسها وهي تتطلع إليه فأكمل بغموض:

- روحي نامي إذا بدك ها الليلة تمر على خير.... ماراح أفلتك المرة الجاية.

جرت مسرعة إلى غرفتها، وأحكمت إغلاق الباب، وهي تتنفس بصعوبة، آلمها صدرها وانهمرت دموعها، انفتح باب ذكريات حبها القديم، تلك الساعة الوحيدة التي اختبرت فيها معنى الحب، وأصابعها نائمة بطمأنينة بين أصابع خالد، مسحت دموعها بظهر يديها، وقلبها منطفئ، فهذه الساعة كانت تساوي سنوات من عمرها، مرت ولا يمكن أن تعود، تمنت لو أن موسى يحاكيها باللغة التي تفهمها، لغة الحب والرقة، نظرت إلى ما مرت لمساته عليه منها، فوجدت أثار أصابعه حمراء على جلدها، وكأنه كان يضربها، تألمت وشعرت بعدم الأمان، كيف يمكن أن ينفرد بها في غرفة واحدة، وتنام إلى جانبه كل ليلة إن كان وجوده يصيبها بكل هذا الرعب والمرارة، فالزواج مودة ورحمة، تطلعت فيما حولها، والوحدة أصابع تخنق رقبتها، وتُطبق على صدرها، نظرت إلى سرير أختها الفارغ، واقتربت منه ونامت فوقه، يغلفها الحنين، وتمنت لو تمر الأيام سريعًا حتى تحتمي بوجود أختها في ليالي جنونه.

في الشام،

أعرف من أنا وسط الزحام

يدلني قمر تلألأ في يد امرأة علي،

يدلني حجر توضأ في دموع الياسمينة ثم نام

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

المطر والوحدة صديقا سوء، يبقيانك يقظًا تسير في الشوارع بلا وجهة، ينشر المطر ضبابه على قلبك، فتنسى كيف كان طريق الرجوع، والوحدة تجعلك تستسلم، لتأخذك خطواتك غير عابئ بشيء، فقد بللك المطر، ماذا ستخسر أكثر من هذا، يقل عدد المارة في الشوارع ويتركون لك الأمكنة خالية لتبكي روحك كما تشاء، كل الطرق تتشابه إن لم يكن هناك قلب يحتويك فترجع إليه، فتصير كل الحياة بلا هدف. لا يزال مازن يعيش في ظل استعباد والده، كل شهر يأخذ أبوه راتبه ويترك له ما يكفي طعامه، بحجة أنه يحتاجه لسد بعض الديون التي تورط فيها بتأجير هذه الشقة القبر، كما يسميها مازن.

توقف مازن في الظلام تحت المطر وتطلع لأحد الشوارع التي لا يعرف كيف قادته قدماه إليه، هذا المكان بالذات يحمل له ذكرى مختلفة، غير مساره، وسار فيه، سار ببطء وكأنه يعرف أن ما سيجده في آخر الطريق سيبقى بانتظاره حتى يصل مهما تأخر، تشابهت البيوت وظل يحدق بالأرقام المعلقة عليها حتى توقف عند الرقم المطلوب، تطلع إلى الطابق الرابع، النافذة كانت مضاءة، جلس على صندوق خشبي فوق الرصيف، غير مكترثٍ بأنه لا يزال في مرمى المطر، بقي يتطلع إلى الظلال التي تسير خلف تلك النافذة، تروح جيئة وذهابًا، لساعات بقي جالسًا هناك، حتى اقتربت تلك الشابة الشقراء من النافذة لتُحكم إغلاقها، ألقت نظرة أخيرة على الشارع لترى أحوال الخارج، ثبتت عينيها على عينيه رغم الظلام والمطر، توقعت أن تراه، فهي ليست المرة الأولى التي يجلس فيها بلا هدف أمام منزلهم، في المرة السابقة أخبرت زوجها بوجوده، فضغط على أسنانه بحنق وهو يقول إنه ابنه! غضب لأنه تبعه إلى حيث يذهب، أخبرته بابتسامة ودود أن يجلبه للمنزل من أجل الترحيب به، وبعد أن هبط للأسفل وأحضره معه، أدركت من صمته أن والده لم يدعه بقدر ما وبخه، خصوصًا بعد أن أمضى الليلة كلها مفتقرًا إلى الكلمات، وعدها زوجها في المساء ألا تقلق، لأنها لن تراه مجددًا، وكأنه مجرم يحميها من اقترابه منها رغم تصريحها بأنها لا تمانع، وجهه كان ملبدًا بالوحدة الجمة، لكنه لم يكن مخيفًا قط، قدر ما كان خائفًا تائهًا، لا يزال مرهقًا، هكذا حدثت نفسها وهي تمد يدها إليه، بدا لها مصدومًا لوجودها في حياة أبيه، فهي تعرف رامي، لا يعترف بأسراره أبدًا، ها قد قابلت ابنًا آخر له، ولا تعلم من أي زوجة، ذلك الابن الذي يختار يومًا في الأسبوع ليجلس على باب بيتهم، مثل القط التائه دون هدف محدد، هذه المرة ابتسمت له، ثم أحكمت ضبط الستائر دون أن تشي به لوالده، حتى لا يوبخه، أما مازن فلم يكن قد استوعب بعد أن والده قد تزوج امرأة أخرى، لماذا إذن يرهقه باحتياجه للمال؟ ما ذنبه هو إن كان لا يملك ما يصرف به على بيته الجديد؟ ولكن إن خسر والده فإلى أين يذهب؟ وإلى من يلجأ؟ لقد راهن بأختيه الوحيدتين من أجل قدومه إلى هنا، ظنًا منه أنه سيجد منفذًا يصل به إلى الأمان والحرية والسعادة من الجديد، ظن أنه يستطيع إقناع والده بالوصول إلى والدته بعد كل تلك السنوات، ولكن هيهات، بل إنه يحاول أن يضيق الخناق حوله أكثر فأكثر، فيسئ إليه كلما فكر في الخروج والتسكع في الشوارع بلا هدف، بحجة أنه يخاف عليه ويريد مصلحته،

يثور في وجهه بأنه أبوه، ويجب عليه أن يطيعه، ثم يعاقبه بالصمت، لا يتردد على المنزل ولا يسأله كيف هو، يعتبره غير موجود لبضعة أيام، فتُحكم الوحدة حصارها حوله، ويظل يئن طوال الليل دون أن يجد النوم طريقًا إلى ذهنه المتقد ذنبًا.

انطفأت الأنوار ببيت والده، لقد ناموا دافئين، لف ذراعيه حول نفسه حين اجتاحه احتياجه للدفء، لا تملك أيٌ من أختيه هاتفًا يتصل به كلما اختنق بالوحدة، فقط ينتظر الفرصة التي يتصلون هم به، ولا تصله في كل الأحيان، فبعض منها ينهيها والده بضغطة زر، سمع صوت خطوات قريبة منه تخالط صوت قطرات المطر، كان زميله بالعمل جيكوب الزنجي، يدندن بأغنية غريبة، مارًا بنفس النقطة التي يجلس قربها، استغرب كلاهما وجود الآخر في المكان، مصادفة لا تتكرر، هكذا صاح الزنجي ثم جلس على مقربة منه، سأله بالإنجليزية:

- تائه؟

- لا أريد العودة!

تحركت شفتا الزنجي بابتسامة يظهرها النور الخافت على وجهه، تطلع إلى السماء متأملا ثم قال:

- لا فائدة من العودة إن كان لا أحد ينتظرك.

- هناك من ينتظرني.... لكن في مكان لا أستطيع العودة إليه.

تطلع إليه بفضول، كان حزينًا ويائسًا، لم يشأ أن يعري تفاصيل جرحه أكثر فقال:

- حين ترتطم بوجهي قطرات المطر لا أحتاج أن أبكي... الدنيا تبكي لي لتخلصني من الماضي... وحين أعود إلى منزلي وأغتسل، أشعر أني إنسان جديد..... بلا ماض.

ابتسم مازن بسخرية قائلا:

- ليت الأمر بتلك البساطة.... ألا تنزعج من الكوابيس؟

- انس يا صديقي... ابدأ من جديد.

تنهد مازن، وتطلع للمرة الأخيرة لنافذة بيت والده الدافئ، ثم قال:

- كلما حاولت أن أسد فجوة في روحي وجدت أخرى تعيدني إلى نفس نقطة الاشتياق..... حقًا لا أعرف من أين أبدأ.

- ابدأ من لحظة الصفاء.... حين ينتهي صراعك النفسي... اترك ضميرك يصرخ في وجهك ويقول لك ما يشاء... سيمل ومن ثم يصمت... حينها ستبدأ.... أما اليوم يا صديقي... فقد انتهى... عد ونم... أمامنا عمل كثير في الغد.

ثم نهض راحلًا، بعد دقائق تمطى مازن طاردًا عنه المطر والكسل، ورحل في الاتجاه الآخر عائدًا إلى شقته، كانت تلك المحادثة هي الأولى من نوعها منذ قدومه إلى أمريكا، فلم يسبق أن تطوع زميل له بالحديث معه والاستماع إليه، ظن في باله

أن هذا بسبب المطر وبسبب أن جيكوب بعيد أيضًا عن موطنه وأهله، مما جعله يتعاطف معه، توقف مازن عن السير متسائلا بصوت هامس:

- غريب.... مو هاي وطني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انشغلت بثينة عن آشيا يومين، بقيت فيهما آشيا حائرة في المنزل، تستمع لحكايات خالة صديقتها عن الحياة والناس والمشاغل اليومية، تململت آشيا وقد ملأها الفضول تجاه المدينة، ولكنها لن تجازف بالسير فيها وحدها دون دليل، فقد لا تقدر على العودة، ولكن ما أسعدها هو إطالة مدة إجازتها بعيدًا عن ذلك البيت الكئيب في قريتها، وبعيدًا عن دراستها، بغض النظر عما فاتها من دروس، حين عادت بثينة ألحت عليها آشيا بالسؤال عما تفعله كل تلك الساعات، وتعود مع رحيل الشمس لبيتها منهكة فقالت:

- والله أنا جيت لهون أصلا لأن في شغلات كتير كان بدي خلصها واجتماعات كان بدي أحضرها.

- كيف اجتماعات؟ مافهمت عليكي؟

- أنا بحب أروح الاجتماعات الخاصة بالتجمع الوطني الديمقراطي.... من قبل ما تسألي بعرف أنك ما تعرفيه.... هلأ المعارضة جمعوا بعضن مشان يعملوا ائتلاف من خمس أحزاب قومية مشان نمثل المعارضة في البلد كرمال مشروع الديمقراطية.

- شو ها الحكي الكبير.... طلعنا من تحت الدلف لتحت المزراب ([10])... شبيَكى يا صبية بدك تموتي صغيرة.... وليش ما انضميتي لحزب البعث كنتى هلأ شخصية هامة هلأ.

ضحكت بثينة وقالت:

- إيه والله معك حق، هلأ صارت البلد كلها تحت أقدام البعث.... بس أنا ماحبيت أشغل أهلي بها الموضوع، حبيت أني أحضر الاجتماعات الخاصة فيهن لأني باعرف أعضاء كتير منهم وبناقش القضايا العالقة ومشاكل الشباب.

- مسوية حالك كبيرة وانت مافقستى من البيضة....

كيف بتتواصلي معهم بالأساس؟

- باتواصل معهم عن طريق الإنترنت.

- ما شاء الله والدك جايبلك نت بالبيت؟ نحنا حتى ما عنا هاتف.

- والدي بده ياني أنجح وأصير شي كبير بالمستقبل... بس هو دوما بيخاف علي.

- معه حق... مابتعرفي أنه حتى النت مراقب؟ يمكن كلامنا هلأ مراقب... الهوا نفسه مراقب!

- يا جبانة..... الموضوع مو حرب يا آشيا نحنا منضل نسعى مشان البلد و...

- لشباب... انت ما بتعرفي نسبة البطالة بالبلد... وكمان نسبة اللي بيتخلوا عن تعليمهن الجامعي من الشباب... أكتر من 40٪.... نحنا لازم يكون إلنا هدف... لازم نسعى لنحمي بلدنا ونقويها.

- وشو كنتو بتناقشو ها المرة؟

- كنا بنحاول نفهم الوضع في الجولان... وبينقلوا إلنا أخبار باللي بيصير وشو راح تكون الإستراتيجية.

تطلعت إليها آشيا بحسرة، وكأنها توشك أن تحفر لنفسها قبرًا بيديها، فقالت لها بثينة بثبات:

- أنا باعرف إنك مليتي... مالقيتي هون غير الأذى والحزن.... لهيك ما بيهمك مستقبل البلد.... عندك بلد تانية ترجعيلها... لكن هاد وطني... كل مالي بالدنيا... فيه أهلى ورفقاتى وكل شي.... ومابدي قصر بحقه.

- ماعم قلك تقصري.... لكن ماتنسي حالك.... باعرف أنه أحلامك كبيرة وبدك تصيري صحفية وتكشفي الأخبار.... بس أنت بتعرفي حال المعارضة كيف بينتهي... يا إما سجون يا إما موت... انت وحيدة أهلك لا تنسي هيك.

- ما بانسى أبدًا.... بيضلوا يذكروني كل لحظة.

قالتها بأسى وهي تتطلع للورق بين يديها... ما لبثت أن تناست ووعدتها بنزهة طويلة في الغد لأنه يومهم الأخير وسيعودون إلى دير مقرن.

اشترت بثينة لآشيا قصعة من السحلب، وسارت بها حتى وصلتا إلى منطقة الدرويشية، حيث قالت بثينة لآشيا إنها يجب أن تختبر ذلك الشعور الساحر الذي سيختلج في قلبها بمجرد دخولها سوق الحميدية، تذكرت آشيا السوق بقريتها، وتوقعت أن يكون شبيهًا به، ولكن بحجم أكبر وأوسع، وباحت لبثينة بخاطرها فضحكت من قلبها، وأضافت أن سوق الحميدية قد وُصف بأنه مدينة تجارية كاملة داخل دمشق القديمة، فهو أفضل وأكبر سوق في الشرق الأوسط على الإطلاق، عند وصولهم شارع الثورة، شهقت آشيا برهبة وهي ترى السوق أمامها، طريق طويل جدًا يمتد أميالا مغطى بالكامل بسقف حديدي، وبه ثقوب عديدة لتتسوق منها أشعة الشمس داخل السوق، وبه كوات دائرية تنير السوق ليلًا على الصفين، والأرضية مبلطة بالبازلت الأسود مذهل الصنع، المنظر أبهرها، وهي تحدق بالمتاجر مختلفة الأصناف والأنواع على الجهتين، مكونة من طابقين متماثلي الأعمدة تفصل المتجر عن الآخر، سارت بها خطواتها ببطء وبثينة تشير لتوجه عينيها إلى الغرائب والعجائب، وتضحك من قلبها بسبب تعبير وجه آشيا، لم تتصور أن يكون هناك مكان بهذا الجمال في بقعة قريبة منها لهذه الدرجة، شعرت أنها ركبت آلة الزمن ورجعت قرونًا للوراء وقابلت أناسًا من الماضي وكأنها خارج زمانها.

لم يكن هناك شيء قد يخطر على البال إلا ويوجد في السوق، كان السوق يضم عدة أسواق تتفرع منه، مثل سوق الصاغة والبزورية والسروجية والعصرونية والخياطين، رأت جميع الصناعات التراثية، مثل المصنوعات النحاسية والأرابيسك والمصدفات والأقمشة والمطرزات والصناعات التراثية السورية، وجميع أنواع الملابس الجاهزة وأدوات الزينة والأحذية والديباج والمفروشات والسجاد والذهب والتحف والهدايا والتراثيات، لم تعد تدري من أين تبدأ، فلو أنها لا تريد شراء شيء لما تمكنت من الخروج من هذا المكان دون شراء، لتنوع ما به، فقد حرض لديها رغبة الشراء حتى لو كانت ستشتري ما لا تحتاج إليه، رأت آشيا العمال عاكفين، كلٌ على صنعته، فمنهم من يزين صحنًا أو كوبًا من الزجاج أو خزفا يرسم عليه بالألوان أروع وأفخم اللوح الفنية الدقيقة، ومنهم من يوشي بيده وشاحًا من حرير بأدق الزخارف الرائعة، أو يرصع الخشب بأصداف ملونة، الصناديق الخشبية الأنيقة التي تباع دون أن تلتصق أضلعها ببعض بغراء أو مسمار، فقط مشتبكة ببعضها بعضا بطريقة سحرية، أذهلها ذلك الصندوق الخشبي المائل لونه إلى الأزرق الداكن، فقررت شراءه، واحتفظت به لحاجة في نفسها، ثم شدتها بثينة إلى متجر الحريري الذي لا يوجد مثل حريره على الإطلاق، انبهرت آشيا وهي تحس ملمسه بين أصابعها، ثم تذكرت أختها العروس وأمنيتها، وقررت شراء طرحة العُرس المطرزة لها من هذا المكان، ليكون ذكرى لا تنساها، ولتستطيع أن تحقق لها ما تقدر عليه من أمنيات، مرت بالعطار واشتمت عنده روائح ومسكا لم تشم مثله بحياتها، شعرت بغبطة لا تكاد تصدق ما تراه عيناها، السياح حولها يأتون من كل مكان لرؤية هذا المكان، أمر مضحك أن تسير معهم وترى المكان لأول مرة، وكأنها سائحة مثلهم، لكنها ظروف حياتها هي التي وضعتها في هذا الموقف، التاريخ يحكي نفسه في المكان، فعمر المتاجر هناك من عمر سوريا، وكأن أحجار المكان من حولها ستحكي لها بصوت رخيم كل ما مرت به سوريا، منذ السلطان عبد الحميد العثماني، كل زاوية بها عالم، وكل نسمة هواء تمر تستنشق بها ذكرى.

تذوقت بوظة بكداش الذي لا مثيل لطعمه في البوظة العربية كافة، باحت لها بثينة أنها تأتي هذا السوق مرتين في السنة، لتشتري ملابس الصيف والشتاء، وأحيانًا تأتي برفقة أولاد خالتها في العيد لشراء ما يتمنونه، المكان مليء بالذكريات الرائعة العالقة بنفوس الكل، خرجوا ليجدوا أنفسهم عند المعبد القديم والمسجد الأموي الذي زاروه في المرة السابقة، فكل هذا المكان يبقى في حارات دمشق القديمة التي تتميز بعدم سير أي سيارات فيها، الهواء نظيف ولا ضجيج يمزق عبق المكان العتيق بكل ما هو رائع من أزمنة مضت، رأت آشيا قلعة دمشق التي يوجد بها ضريح صلاح الدين الأيوبي، وقفت تتطلع إلى تمثاله الرمادي المنصوب هناك، والذي يصبح خلفية صور العديد من السائحين في المكان، تطلعت إلى أسوار القلعة غير المنتظمة ورأت أبراجها الاثني عشر، وكان آخر ما رأته آشيا في دمشق هي المكتبة الظاهرية، أكبر وأقدم مكتبة في دمشق، حملت الأكياس والحاجيات التي اشترتها لأهلها، وكأنها كنز تُطبق عليه بذراعيها الاثنتين، كأن الأكياس تملك أجنحة قد تفردها في أي لحظة لتطير بعيدًا عنها كما طارت عنها أحلامها وسعادتها سابقًا، عرضت عليها بثينة أن يتناولوا وجبة الغداء في أحد المطاعم التي تطل على نهر

البردي، لكن آشيا تملكها الإرهاق، نامت آشيا تلك الليلة وهي تحتضن الأكياس، مما أثار ضحك بثينة وكأنها لا تصدق أنها اشترتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت آشيا حين هبطت من القطار في الزبداني بالقرب من قريتها، أنها عادت للواقع، كأن كل ما حدث لها في هذا الأسبوع مجرد حلم، لم تتخيل أن ترجع للبيت ومن فيه، ومعاملتهم الجافة، ووجوههم التي لا تعرف الدفء، فلم تفتقد سوى فاطمة وجدتها عزيزة، شكرت بثينة واحتضنتها بقوة ممتنة قائلة:

- ما راح أنسى أنك خليتيني أقضي أجمل أيام حياتي وكنتِ السبب في سعادتي.... مابانسالك ها الجميل.

- إيه ولو... شو عم تقولي.... كرمالك نروح القمر.

قبلتها آشيا بحب صادق، ثم ودعتها ودخلت منزلها، تطلعت إليها بنات عمتها بجفاء دون ترحيب، حتى هالة نظرت إليها وهي تمط شفتيها بقرف، وتطلعت للاتجاه الآخر متمتمة بكلمات لم تصل لأذن آشيا، دخلت آشيا الصالة لتجد عزيزة وعماتها، نادتها عزيزة فاتحة ذراعيها وقبلتها على الخدين بشوق صادق، وأبقتها قليلًا في حضنها، بينما انشغلت العمات بفتح الأكياس التي تحملها آشيا، تطلع إليهم عمهم محمود باشمئزاز، وكان السؤال الوحيد الذي سأله هو كم تبقى من المال الذي أعطوها إياه، وحين رأى كمية الأكياس نَهَر آشيا متهمًا إياها بالإسراف، ما لبث أن دفعها من كتفها، وكأنه سيضربها، مذكرًا إياها بتأخرها أياما عن موعد عودتها، حتى إن القميص الذي أحضرته له لم يحمها من مزاجه العكر، لفتْ عزيزة الشال المطرز بألوان الطيف حول كتفيها، وهي تضحك بفرحة، مادحةً ذوق آشيا، وقالت لها بنوع من العرفان:

- ماراح أشلحه منوب... لأنه هدية من أحلى وردة.

- تسلميلي يا ستي... خبريني وينها فاطمة بدي عطيها هديتها.

- فاطمة بالحديقة الورَانية.

أمسكت آشيا الأكياس الخاصة بفاطمة، ودارت حول المنزل لتصل إلى باب الحديقة الخلفية، سارت تبحث عنها بعينيها وهي تدرك أنها ستجدها جالسة بهدوء على المقعد الخشبي وسارحة في مستقبلها، لكنها تسمرت وهي تراها برفقة موسى، لم تفهم سبب وجوده هناك وهو ينظر إليها بينما هي تتشاغل عنه بتثبيت الملابس المغسولة بالمشابك الخشبية، رأته يلتف خلفها ويشد ضفيرتها، فتصرخ متألمة، بينما هو يضحك شامتًا، ثم لا يلبث أن يهدأ دقائق ثم يعاود الكرَة، مزاح ثقيل جدًا ربما، لكنه كان مزاحًا، وهذا ما اندهشت منه آشيا، وجدته يتبادل الكلام معها، وحين تسأله سؤالا لا يحب أن يجيب، يكتفي فقط بالقول بغلظة إنه لا شأن لها، لم يتغير في قسوته وغلظته، ولكن كيف صار يتحدث إليها ويمضي الوقت معها؟ كانت فاطمة تتحدث بصوت خفيض وتحاول أن تقول له أي شيء حتى لو كان تافهًا، وصل إلى سمع آشيا أنها تسأله ماذا يريد أن تعد له على الغداء فرد:

- مابدي آكل منك.... لايكون مسموم.

- ماتحكي هيك.... أنا مستحيل أسوي هيك شي.... عن جد شو بدك؟

- ما بأثق بالساحرات الشريرات... لو انولدتي زمان شوي كان زمانك ميتة محروقة... كانوا بيحرقوا الساحرات بالماضي لحتى ينقذوا حالهن من لعناتن.

فنظرت فاطمة بانكسار إلى الأسفل شاعرة بالإهانة مما أثار ضحك موسى حتى كاد يسقط على الأرض، كان يتسلى بإثارة غيظها، هي أيضا كانت تعلم أنه يمزح ولكنها تشعر في قرارة نفسها أن ليس كل حديثه مزاح، قد يكون فيه بعض الجد، كانت تتألم رغم كل شيء، توقف عن الضحك حين رأى آشيا، وزمجر بكلماتٍ لم تتبينها ثم رحل، لحقت به عينا فاطمة ومن ثم التفتت لترى ما ضايقه، وحين رأت آشيا ركضت إليها تحتضنها بكل قوتها، وكأنها كانت على وشك الغرق، ووجدت أخيرًا طوق النجاة، سألتها عن رحلتها وعن أيامها، فأجابت بكلمات مقتضبة لأنها كانت تريد أن تعرف كيف أصبحت علاقتها بموسى عادية، يتحدثان ويمضيان الوقت معًا، فتنهدت فاطمة وقالت وقد شاب وجهها بعض الحمرة:

- شو فيني سوي؟ هاد نصيبي ولازم أرضي فيه.. هو حكالي أنه ما بيفكر بموضوع الجنسية منوب.... وأنا باتمنى أرتاح له لأني مو متخيلة كيف بدي عيش معه ببيت واحد ونحنا ما بنطيق بعض.... بأحاول بقدر الإمكان أحل ها المشكلة... بتعرفي أنه عمي محمود خلاص حدد موعد العرس؟

- معقول؟ بها السرعة؟ ليش؟

- بعد ما سافرتي صار موسى يجي كتير على غرفتي ويستغل وقت كون وحدي فيه ويحاول يقرب مني... ماكنت بعرف شو بده بالضبط بعدها صار يحاول يعانقني.

- عن جد؟

- إيه... خفت منه كتير وحكيت لستي.... بعدها حكى عمي محمود مع موسى وبالأخير خبروني بموعد العرس بيصير بعد شهر من هلأ.

- معقول ها الحكي؟ ووين بتسكنوا؟ لساته موسى ما لقى وظيفة وطول الوقت في المزرعة اللي ما بتجيب شي.

- ستي قالت بتترك لنا الدار الصغيرة هونيك خلف الشجرة.

- بس هاي قديمة وكنا ندخل فيها الدواب كمان.

- مابيدنا شي.... مافي مصاري.

تألمت آشيا لكل تلك الأحداث التي تتسارع وتمزقت البهجة التي كانت تحملها على وجهها عند مجيئها، ندمت فاطمة على أنها حملت آشيا همومها، ثم حاولت أن تجعلها تنسى بأن سألتها عما تحمله في الأكياس، وضعتهم آشيا في يدها، وارتشفت من الرضا وهي تراقب ملامح وجه أختها تشرق وتتلألأ السعادة على سطحها، حين رأت تلك الطرحة الطويلة المطرزة والمرفقة بالتاج النحاسي الصغير، يحمل العديد

من الخرزات الملونة، بكت فاطمة فرحة وهي تحتضن التاج والطرحة، والتفتت لآشيا، لم تستطع أن تنطق ولا أن تشكرها، فقط بكت وهي تمد لها ذراعيها لتحتويها، كانت حقًا أجمل هدية حصلت عليها في حياتها كلها، فاستسلمت آشيا للبكاء هي الأخرى، وهي تحتضن أختها، وبقيا هكذا والطرحة والتاج بينهما تشهد على لحظات سعادتهما النادرة المطرزة بالدموع.

حاولت آشيا شراء دفاتر صغيرة بسيطة، هدية لبعض زميلاتها في المدرسة، شكروها فرحين وقد عرضوا عليها ما فاتها من دروس، وما فاتها من لقاء عدنان الذي بقي ينتظرها كل يوم على بوابة المدرسة، ليتأكد أنها لم تعد بعد، اندهشت من ذلك الخبر لأنها سبق وأخبرته أنها لن تحضر قبل أيام، وحين خرجت كان هو يجلس مطأطئ الرأس بانتظارها، مختفيًا عن الأنظار بظلال الشجرة التي يجلس تحتها، اقتربت منه حتى اندمج خيالها في الظل الذي يجلس فيه، فرفع بصره، رأى ملامحها غارقة في الظلام لكنه أحس بها، برائحتها التي تحفظها كل خلية فيه، شعر بابتسامتها دون أن يراها، يستطيع من إحساسه بعدد أنفاسها أن يعرف ما إذا كانت راضية أو متضايقة، كانت تحمل مكعبا أزرق في يدها، لم تقل له شيئًا لكنها دفعت المكعب إلى يده، فأمسك به مستسلمًا من فرط فرحه بقدومها وفتحه، كانت ساعة اليد الأنيقة تلثمه حبًا، أول تذكار منها له، وقف يتطلع إلى تلك الساعة تائهًا، وهي تراقب ملامحه، فأخرجت الساعة من العلبة ولفتها حول معصمه، عيناه كانتا تعانقان كل ملامحها الأخاذة، قلبه تشاجر معه طويلًا طوال تلك الأيام والآن قد أخرسه حضورها فتركه في حاله، وتسلل شيئًا فشيئًا إليها، سمح لنفسه بالاقتراب منها أكثر وظلال تلك الشجرة تحجبهم عن الأنظار، لفت عينيها إليه، ورأى صورته فيهما، فشعر أنه أكثر الرجال حظًا، رأى في عينيها من الشوق ما يماثل أعماقه، هل من المعقول أنها تحبه كما يحبها؟ إذن كيف تمكنت من الابتعاد عنه كل تلك الأيام، كل تلك الساعات، الدقائق؟ لم تغب عن ذهنه حتى فرغ قلبه إلا منها، هل هناك دليل أكبر من هذا على أنه عاشق لها حتى النخاع؟ سافرت بضعة أيام إلى دمشق، واكتوى هو بنار فراق قصير، أخافه أي فراق آخر قد يقف حائلًا بينه وبينها، أمسك أصابعها وسحبها معه، إلى حيث لا عيون، ثم التفت إليها وعانقها بكل عنفوانه، شهقت وهي تتعلق بكتفيه، كانت المرة الأولى التي يعانقها فيها بعد أن كبرا، تعانقا ببراءة كثيرًا وهم صغار، حتى ضربها عمها محمود محذرًا مما جعلهم يُقلعون عن هذه العادة، اشتمت رائحة النسيم الذي تتراقص عليه أوراق الشجر، وأغلقت عينيها مستسلمة، جاءتها نبرته بأسى:

- بنحبك آشيا... والله بنحبك.

- وأنا بحبك يا عدنان... اشتقتلك بها الأيام.

- لا... ماتضحكي علي... ماتتركي اللحظة تمر... أنت بتعرفي أني بحكي عن شي وانت عن شي.... أنا بحبك... فاهمة يعني شو؟ يعني بدي إياكي زوجة.... بدي تكوني شريكة حياتي لحتى آخر يوم في عمري.

- شو عم تقول يا عدنان... نحنا لساتنا ما وصلنا للثانوية وأنت بتحكي زواج.

- شو يعني؟... كلها سنتين تلاتة وباقدر أخطبك.

- وكيف تتوقع أهلي بيوافقوا؟... هنن بيزوجوني لواحد من العيلة متلي متل فاطمة.

- ماتغيري الموضوع..... هاي مشاكل بتنحل إذا أنا وانت بدنا بعض..... اتطلعي فيي آشيا... ماقلتيها وما بارجع داري بدونها... وينها... احييني.

تطلعت آشيا لعينيه، رأى فيهما أسى، أدرك عدنان ما بها، أفاق، ترك ذراعيها وابتعد عنها ليرى صورتها كاملة، قالت وقد هربت عيناها إلى السماء:

- عدنان نحنا رفقات.... مافي شي بالكون بيدوم متل الصداقة... شوف كيف خالد وفاطمة حبو بعضن وما استمروا.

- يعني انت مابدك ياني صير زوجك.

- لساتنا مراهقين يا عدنان.... لو قلت هيك لأي مخلوق بيرد يقولك أنتو صغار على هيك حكي.

ابتلع عدنان الطعنة وكبت صراخه، سكت للحظات كانت أطول عليه من فراقها، ثم استنشق الصبر ورد ببطء مستسلمًا:

- يمكن كون صغير بالعمر... بس مشاعري إلك تجاوزت عمرى... وصار عمر قلبي ألف سنة في حبك..... اللي حكيتيه ما بيغير شيء من ناحيتي إلك.. بأصير رفيقك وبس... بأصير رفيقك لحتى تملي.... بس ما ببعد عنك ولا بتخلى عنك منوب.

لاحت الدموع في عينيه، كان منفعلًا مغمورًا، تسير المشاعر في شرايينه وتقتحم كل خلية فيه، خافت آشيا الحب، وقررت أن تنأى بقلبها عنه، أحبت عدنان كثيرًا، ولكنها لم تستطع أن تشتهيه حبيبًا وزوجًا، لم تكن مشاعرها أبدًا نحوه من هذا النوع، التزم عدنان بكلامه وعاد لمزاحه وهو يقلب الساعة حول معصمه ممتدحًا ذوقها، ثم فرد ذراعه وظل يجري بالساعة وكأنها جناح سيجعله يطير، لم تتمالك آشيا نفسها وضحكت، كأنه مصنع للبهجة يخلقها من لا شيء، أخبرته بعد عدة أيام أن يحضر حفل زفاف أختها، فاندهش لسرعة زواجهم وسألها:

- ومازن بيحضر ولا؟

فأطرقت محبطة وقالت:

- حكيت معه ومع والدي.... اللي بيطلع من هون يا عدنان ما بيرجع... ممكن مارح يقدر يجي ع العُرس.

- معقول؟ بس هاي مو عُرس عائلي... هاد عرس أخته... هو اللي مفروض يستقبل الناس.... والمفروض أبوكى يدبك ويرقص معه ومع العروس ويحط يدها في يد زوجها بنفسه.

- لا تذكرني... ها الموضوع معذب فاطمة كتير... عم تتمزق من الألم والوحدة.... حاسة حالها مالها أهل.

- ماتحكي هيك... نحنا أهلكن.... راح يكون أحلى وأكبر عُرس بالقرية كلها.

راقبت آشيا في الأيام القليلة المتبقية قبل الزفاف عملية ترتيب الدار الصغيرة، من أجل زواج فاطمة، رفض محمود أن يقيم ليلة «حنة» لفاطمة، تخلت عزيزة عن بعض أثاث بيتها لتضعه في الدار الجديدة، واشترت لها أقمشة وبعض الحاجيات والملابس، كان موسى دائما مشغولا بالعمل في المزرعة، وكأن الزفاف لا يخصه، بينما حال محمود دون شراء العديد من الأشياء لفاطمة مدعيًا أنه إسراف، حتى إنه قال ذات مرة بوقاحة:

- المفروض نخلَى المصاري الباقية مشان بنات العيلة اللي من دمها... مو من عرق دساس مثل عرق ها الأمريكية.... لو بدك تشتري اتصلي في أبوكِ يبعت لنا مصاري.

ابتلعت فاطمة الإهانة والسخرية النابعة من الطلب المستحيل، فوالدها لم يرسل ليرة واحدة لهم منذ سفره، ولا حتى مازن، قالت لجدتها:

- مابدي تبذروا من أموالكن أنا مبسوطة هيك.

وكلما اقترب الزفاف، ازداد تجاهل موسى لفاطمة، شعرت بتباعده رغم أنها كانت تبذل مجهودًا خرافيًا لتتحمله، أدركت آشيا مشاعرها، لم تكن قطعًا تريده أو تحمل له من الحب شيئًا لكنها كانت تتوسل السعادة بأي طريقة، كانت جائعة للحب والاهتمام، في حاجة ماسة لإنسان يرعاها، مما جعلها ترى في هذا المتوحش شخصًا يمكن أن تعاشره، رضيت بقسمتها وحاولت التخفيف من حدتها بكل ما تستطيع، حتى لا ترتعد خوفًا وهو ينفرد بها في غرفتهما الخاصة، أما هو فلم يبال بالتحدث إليها، أو التقرب منها أكثر، لأنها صارت له، وعرفت القرية كلها بزواجهم وما هي إلا أيام قلائل وتصير ملكه بكل ما فيها من جمال، فلم عليه أن يبذل مجهودًا في الحصول على شيء قد حصل عليه بالفعل؟ بالنسبة للجميع كان هذا العُرس خطوة لا بد منها للتخلص من حمل ثقيل، لكن بالنسبة لفاطمة كان عمرًا وتغيرا جذريا لمستقبلها.

ارتفع صوت دق الطبول والمجوز وأغاني الميجنا والعتابة والقرادة تملأ أرجاء المكان، والناس أسراب في دبكاتهم مع أصوات المزامير، وخبطة أقدامهم تهز الأرض، كانت فاطمة ترتعد وهي تطبق على أصابع آشيا، تسير مترنحة وكأنها ذاهبة إلى منصة الإعدام، لم يكن في قلبها الصغيرة فرحة، ولم يكن هناك مَن فَرِح لأجلها، حتى آشيا أسفت لحالها، أما عزيزة فقد رمت فوقها بتلات الزهور وظلَت تشارك النساء الغناء، وهي تتطلع لثوبها الأبيض وطرحتها والتاج الذي يزين مفرق شعرها، أما المدعوات فكانوا يصطففن على الجانبين قاذفين بالأرز، وُزعت قدور البرغل على الناس، وقامت عزيزة بتوزيع المناديل البيضاء على كل المدعوات، كل منديل به فستق ولوز وبندق وبعض الحلوى، كان العُرس بسيطًا في حديقة

الدار، وتم ذبح الذبائح التي أحضرها الضيوف ابتهاجًا، اشتركت آشيا مع النسوة في طهوها في القدور، التف أهالي القرية والجيران حول العروسين، تطلعت النسوة لجمالها بحسد، وتبادلن التهاني والمباركة لها بزواج سعيد بفتور، لم يجلس موسى قربها، وإنما بقي طوال الحفل يرقص ويغني ويضحك بصوت عالٍ كأنه مخمور ويصرخ مع كلمات الأغنية:

عريس الزين ويا غالي

يا عود اخضر وشيالي

والبوسة منه بتحلالي

عريس الزين ما بيعو

اي ولو جبلي تمن غالي

وزين على زين على زين

ونور على نور على نور

يا سائل عنا وما تتدل

وسئل عن العريس بتتدل

أبعتلك راشد دليله

يدلك عن أهل الكرامة

وعريسنا من أهل الكرامة

وأهله أهل اكرامة

ظل يعيد الجملتين الأخيرتين مرارًا، مفتخرًا ناظرًا إلى محروسة، وهي تصفق له بفرحة وخيلاء، مر الحفل سريعًا وأوصلت النساء فاطمة إلى الدار قبل العريس، والأغاني والأناشيد مستمرة، انفردت بها آشيا، كانت ترتجف مثل ورقة في مهب الريح، كانت خائفة بجنون، تشعر أنها صارت عزلاء، ولن يقيها شيء مما يوشك على الحدوث، قالت بصوت هزه الخوف:

- بدي أمي يا آشيا.... مابدي أتزوج... مابدي تتركوني معه لحالي... بدي أمي.

ثم خبأت وجهها في صدر آشيا التي تألمت كثيرًا لحال أختها، كانت فاطمة أختها الكبرى لكنها في أوقات عديدة كانت تشعر أنها هي الكبرى، وأن فاطمة تحتمي بها، تمنت لو أن كل شيء لم يحصل، تمنت لو أن حضورها هنا كان كابوسًا ستصحو منه، لتجد نفسها في منزلها القديم الذي لم يُمح شيء فيه من ذاكرتها، بعد كل تلك السنوات وفي هذه اللحظة العصيبة تنادي فاطمة بحقها في حضن أمها، همست آشيا في أذنها بآيات قرآنية، وقبلتها وهي تحكم أصابعها عليها، سمعوا صوت الباب ثم دلف موسى، جاء صوته جافًا وهو يقول موجهًا كلامه لآشيا بازدراء:

- العُرس خلص... ارجعي للبيت يلا.

لأول مرة تهابه آشيا، فقد بدا ضخمًا، تشع من عينيه الفظاظة، همت بالتحرك، فأمسكت بها أختها محاولة منعها من الرحيل، وكأنه على وشك ذبحها لا الزواج منها، تمنت لو تأخذها معها ليناما في غرفتهما معًا، كما كانتا دائمًا، تمنت لو أن كل شيء من هذا لم يحصل، تمنت لو أنها تملك الحق في قول لا، لو أنها تستطيع أن تفعل شيئًا لحماية أختها، بنظرة من موسى استسلمت فاطمة، وتركتها ترحل، فسارت وقدماها مثقلتان بالحسرة، أغلق الباب بعنف خلفها، لم تتحدث مع أحد وبقيت بضع دقائق تحدق في الباب الذي يفصلها عن أختها، بقيت الأناشيد مستمرة، دخلت غرفتها وألقت نفسها على السرير بإعياء، تطلعت إلى سرير فاطمة الفارغ وداهمها البكاء مُرًا في حلقها، فحياتها لن تكون أبدًا كما كانت، كل شيء يتغير، حتى أقل السعادة في حياتها لا تبقى على حالها، كأن التغير لا يتذكر تحقيق الطموحات، بل يتذكر التخلص مما نملكه، وسط بكائها أرسلت دعاءً صامتًا لم يسمعه أحد إلا ربها، بأن يحميهم وينقذهم، ثم سافر بها إعياؤها إلى بلاد النوم قبل أن تدرك.

من المفترض

أننا أنهينا الدهشة منذ زمن

وصار كل شيء

قابلًا للتصديق

أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

شعر موسى بحركة في فراشه، فالتفت، كانت زوجته تنام بأمان، بدأت أفكاره تحوم حولها، هل كانت فاطمة صبية وضعتها الأقدار في طريقه؟ أم أنها حورية؟ كيف يمكن لفتاة أن تكون بهذا الجمال؟ نام على جانبه يحدق بها وهي لا تشعر، لقد حسب حساب كل شيء، الأوراق، المواعيد، العمل، السفر، كانت هي فقط تذكرته لحياة جديدة، مجرد أداة للنجاح، كيف يمكن لها أن تغتال فرحته وأحلامه كلها بابتسامة خجول، كانت أمامه طوال فترة الخطبة ولم يحترق من ألسنة جمالها، ولكن حين صارت زوجته، صار غير قادر على التركيز في أي شيء في حياته، لا عمله، ولا طموحه ولا أي شيء، طوال الوقت تظهر له ابتسامتها، يسمع ضحكتها، يذكره جلده بلمستها الحانية الشفافة، حتى في بقائه في المزرعة لم يكن يستطيع التركيز في عمله، لأنها تجتاحه، فيشعر برغبة مُلحة في الرجوع إلى المنزل ليراها.

بقي يحدق في اللاشيء وهو يتساءل إذا كان ما يحدث له طبيعي؟ تساءل هل كان هذا شعور عمه رامي حين التقى ميرديث، هل هناك لعنة ما أصابته وجعلته يعدل عن تفكيره وأحلامه ويغير دفة مساره إلى عينيها؟ هل من الممكن أن تكون تلك اللعينة قد أوقعته في حبها؟ ولكن كيف؟ كيف وهو لم يزودها بأي مقابل من حب أو عطف أو حنان؟ كيف تتحمل صمته فتلتف لتعانقه، وتلف ذراعيها حول كتفيه؟

كيف تجتاز رائحتها الساحرة أسواره، وتنفذ إلى خلاياه فتجعله يحدق بها مشدوهًا؟ كأن الورد ينبت تحت جلدها، طارت بجانبه فراشة في الحقل، تشبهها، هكذا حدث نفسه، فكر فزعًا، ربما هي نفسها الفراشة، حولت نفسها كساحرة من شكلها البشري إلى فراشة لتراقبه، بدليل أن الفراشة حطت على كفه، سالمة هادئة، يستطيع سحقها بأصابعه، دون أي شعور بالذنب أو الندم، سيمتص منها الحياة والجمال، ويعيش به، لكن عينيها، عطفها، حبها، جمالها، شيء ما لا يدري ما هو، جعله لا يكترث كثيرًا بتأخر تأشيرته لدخول أمريكا!

لم تكن تطلب منه شيئًا، أو تحتاج منه شيئًا، لم تكترث بصمته معها، صحيح أنه لم يعد قادرًا على إيذائها كما السابق، لكن دبوسا يُدميه في قلبه حين تبكي، لم تطالبه بشيء، فقط كان احتضانها له طلبًا لحبه وطمأنته لها، لم يكن يكتفي من التحديق فيها، يكاد يصيبه بالجنون ضعفها واستسلامها له، كيف إذن سيتخلص منها؟ ليس في حياته، وإنما في قلبه، كيف سيتخلص من جذور مشاعره تجاهها حتى، فهو لا يعرف مدى عمقها في روحه حتى يقتلعها!

عاد إلى داره ساهمًا، دخله فاشتم رائحة عطرٍ أخاذ، التفت ليجدها جالسة كالأميرة على الكرسي الوحيد بدارهم، خصلات شعرها تتهدل لتستر جانبًا من وجهها، وتضيف سحرًا للجانب الآخر، اشتمت فاطمة وجوده، فالتفت إليه مبتسمة، تلك الابتسامة المبهجة الخجلة، أسرع قلبه دقًا، فتقلصت عضلات وجهه يحاول أن يعاندها في رد الابتسام، يجب أن يهرب، تلفت حوله يمينًا ويسارًا، وكأنه يبحث عن حِجة، نهضت من مكانها تسير إليه برقة، فقال لها محاولًا إعطاء نفسه وقتًا ليستعيد سيطرته عليها:

- نسيت شغلة بدار ستي... رح روح جيبها وأرجع... حضري العشا تا أرجع.

- حاضر يا موسى.

- يلا لشوف.

ثم دارت دون تذمر، خرج بسرعة يحاول استنشاق الهواء البارد، ليخفف من الحرارة التي بداخله، رآه أكرم أخوه فاندفع إليه حاسدًا:

- السعد لما بيجي بيكسر الباب... وانت ماشاالله سعدك خلع الباب.... ورقك ماشي تمام وكلها كام يوم وماحنشوف وجهك.... طبعا بتنسانا وبتنسى القرية وكل ها الوسخ هون يوم بتشوف الجنة بأمريكا.... وراح حصلك قريب بإذن الله.

- شو؟ كيف يعني؟

- هلأ حكيت مع ستي.... بآخذ الملعونة الصغيرة... يالطيف قديش قبيحة مسترجلة... مو مثل زوجتك الفاتنة.... بس مو مشكلة ماراح يلتقو فينا مرة تانية بعمرهم بمجرد ما ورقنا يخلص... حياتنا كلها بتتغير يا موسى... مافينا حتى ننطر أحلامنا..... هي بتيجي لأقدامنا!

ثم ضحك بانتصار، كان موسى يتطلع إليه صامتًا، من الجيد أنه لم يشعر بما يحمله تجاه فاطمة، لم يكن يريد لأحد أن يعلم، فقد كان يشعر بالعار، استمع إلى طموحات أخيه التي تُضاعِف أحلامه جشعًا، لم يكن يعرف فاطمة جيدًا قبل أن يخطبها، بالكاد كان يلحظ وجودها، وحين لاح له حلم السفر تقرب إليها ساعيًا لتحقيق حلمه لكن أكرم كان يكره آشيا كثيرًا، ورغم هذا سيتزوجها لتلد له أحلامه. لم يكن يكترث لشيء ولا يستمع لشيء، فقط لم يكن يريد أن يرجع إلى بيته الآن، حتى يهدأ قلبه، فيستطيع أن يواجهها دون شوق أو لهفة، فأخذ يدخن وهو يرد على أخيه من آن لآخر بإيماءة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الخبر غريبًا على آشيا، كانت تعلم أنه سيكون أكرم، شعرت بهذا من نظراته المتشفية لها في حفل زفاف أختها، شعرت بعد رحيل أختها أن رحيلها محتوم وقريب جدًا، طوال تلك السنوات نسيت كيف تفكر في نفسها، تحلم لنفسها، تنظر إلى طريقها، كانت دائما تفكر في فاطمة ومازن، كانت تفكر في كيفية حماية فاطمة وإسعادها ومواساتها، خصوصًا بعد أن أخرجوها من المدرسة وحرموها حبيبها، وبقي حق الذهاب للمدرسة خاصًا بآشيا وحدها، حبسوا أختها في صندوق قديم ليقدموها وجبة إلى ذلك المدعو موسى، دون أن يكلف نفسه جهدًا لينالها أو ينال قلبها، لم تكن غافلة عن اهتمام أختها الزائد به، أدركت أن فاطمة كانت تشعر بالتهديد، كانت تشعر بالخوف من فقدانه، وقد صار البوابة الوحيدة التي تنفذ منها الحياة إليها، لم تكن تنظر إليه كرجل بقدر ما كانت تراه كزوج وكواجبات عليها فعلها، وكسعادة وجب عليها إدخالها إلى قلبه، كأن كلمة زوجة مهنة تريد أن تثبت نفسها فيها، فقط كانت تريد أن تنجح في جعله يحبها ويرغب فيها، ويترك كل ما كان يريد أن يفعل لأجلها، تريده أن يحتاجها فلا يتخلى عنها.

كانت آشيا تدرك قدرة أختها على اجتذاب القلوب وصبرها على حبهم، لكن هي لم تكن تحمل هذه الخصال، فاطمة عوضت ضعفها بالحب، بينما هي تعوض ما ينقصها بالقوة وبالزهد فيما لا تستطيع الوصول إليه، كانت قوتها ألا تحتاج أحدًا لتسعد، وألا تجعل الحب يملك زمام إحيائها أو موتها، فقط كانت تريد الحرية، كان هذا كل أملها في الحياة، مكبلة كانت طوال الوقت بالقرية والتقاليد والأسرة والضرب والصراخ والإساءة، مكبلة بشعورها بالحب تجاه جدتها وأختها فاطمة، مكبلة بتلك السعادة التي لا تجد لها وصفًا حين يضحك لها عدنان، مكبلة ب»جمايل" بثينة وصداقتها الحقة، وها قد جاء أكرم ليفرض عليها زنزانة قذرة، ستُبقيها إلى جواره ما تبقى من العمر، كانت جدتها تلح عليها بدافع الاطمئنان عليها، فقد كانوا دائمًا بالنسبة لها أمانة عليها مراعاتهم والحفاظ عليهم، لن تختبر الهدوء دون أن تطمئن عليهما، فَهُما آخر مسئولياتها، لكن أكرم، أكرم من وجهة نظرها مجرد جرذ دنيء لا يطمع في فتات طعامها، بل يطمع في كل ما يخصها، يخنقها بقبحه وقذارته وألفاظه البذيئة التي تسبق خطواته في كل مكان يذهب إليه.

أما موسى فلم يكن يعامل فاطمة بالقسوة التي توقعتها، بل لانت ملامحه، وبدأت تلحظ عليه إطالة نظراته لأختها، أدركت أن شيئًا بموسى تغير بزواجه من فاطمة، وكأنه قَبِل بها وقبلت به، لكن أكرم، لو أنهم أعادوا حياته من جديد وإصلاحه من جديد لصار أقذر مما هو عليه، لم يكن هناك شيء في الكون يمكن أن يغيره أو يجعله أفضل، فما بداخله فاسد، وهي بقيت وحيدة بلا أي شخص يدافع عنها، تشاغلت بالدفاع عمن تحبهم حتى نسيت نفسها، وحين جاءتها المحنة بقيت وحدها، كيف تشتكي لفاطمة وهي تعرف مسبقا ردها؟ ستقول لها اجعليه يحبك كما فعلتُ مع موسى، ستحبينه لو أعطيتِ لقلبك فرصة، وسيخرج بك من الضرب والمهانة والحياة التي بلا معنى إن رضي عنك، ثارت نفسها، لم على الجميع أن يرضى عني حتى آخذ ما خلقت به؟ لقد خلقت حرة فلم علي أن آخذ إذن الجميع؟

عمها محمود يقف لها بالمرصاد، فهي أغلى أخوتها في قلبه، لم يأخذ أحدهم منه ضربًا أو مهانة أو سخرية أو سبًا كما أخذت هي، كان يدرك أنها لن توافق، وستركب خيل معاندتها وتركض به إلى آخر المدى، حين أخبرتها جدتها بطلب أكرم للزواج بها، وحين اندفع محمود إلى غرفتها محذرًا من أي كلمة رفض تقولها، كانت إجابتها النوم، بقيت عدة أيام نائمة، تصحو لتضع لقمة في فمها، وتتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم تغوص من جديد في النوم، أنساها الخبر كيف تتكلم، فصارت تصمت أكثر من اللازم، لم تقل أبدًا إنها موافقة، رغم ذلك تحدد يوم خطبتها، لم تتطلع لوجه أكرم أبدًا، ولم تجبه كلما وجه الكلام إليها، رغم ذلك مضى في رغبته الزواج منها، لم يهتم أحد بماذا تريد، وكيف تفكر أو تشعر، فقط جدتها كانت تحتضنها وتربت شعرها وتقول:

- يا الله.... كفياكِ آشيا.... شوبك ما عاد حكيتى منوب.... ياصغيرة هاد مو نهاية الكون.. أكرم ولد كويس ماتزعلي من تصرفاته... شوفي كيف كانت فاطمة تكره موسى وشوفي كيف هما سعدا هلأ.... ماتهتمي بالبدايات لأن النهايات أهم.

- عمي محمود بدو يخلص منا... مابيرتاح إلا لما يدفنا كلياتنا.

- شو عم تقولي؟ عمك محمود بده يطمن عليكن.... أنتو بنات وينخاف عليكن... مافينا ننطر أكتر من هيك... ماشفتي كيف زميلاتك تزوجو؟

- بثينة ماتزوجت.

- بثينة مو عايشة هون بعقلها.... أمها من الشام بتخليها تعيش كأنها بالشام... نسيت أنها بقرية... لهيك زوجها ماعرف يوصل لبثينة المبادئ اللي مفروض تتربى عليها.

- ياستي هاي مبادئ القرية أن البنت تصير مستعبدة لحًتى تموت؟

- شو ها الحكي مين قلك أنه الزواج استعباد؟

ماسمعتي المثل ياللي بيقول طول مازوجي معي بدير الفلك بأصبعي! الزواج مودة ورحمة وفرحة وسكن واستقرار وأمان.... انتو عشتوا بدون أهل كل ها المدة وهلأ فيكن تبنوا أهل وأسرة... مو هيك دوما كنت بتتمني؟

- إيه بس من اختياري.. مو على مزاج أكتر إنسان بيكرهني بالكون.... بعدين أكرم ما يجي من وجهه غير النكد والقرف.... كيف بتبلش الدنيا تبتسم لي وهو زوجي؟

- انت لساتك صغيرة... راح فرجك كيف أكرم بيصير زوج منيح بس انتِ فوتي عليه بابتسامة شي مرة وشوفي كيف بيكون... شوفي كيف تزوجت ستك بالأخير كان زوجها أحسن من مليون رجل.

- مابعرف متل ياستي... مابعرف.

تنهدت عزيزة بحسرة، وهي ترى الحزن الذي يغطي وجه آشيا، فقالت لها:

- فيكي تاخدي الوقت اللي بدك ياه مشان تحبيه... لكن ما تعاندي آشيا نحنا مو ناقصين مشاكل.... اللي فينا مكفينا الله يخليكِ.

لم تكن آشيا جبلًا حتى تقف في وجه الريح، طوت عودها وانحنت للريح، لتأخذها حيثما تهوى، فلا تكلفها حياتها، لا تعرف كيف طارت الأيام حتى جاءها يوم خطبتها باردًا جافا، حتى الشمس أشاحت بحرارتها نافرة من هذا اليوم البائس، الجميع كان يمارس اللامبالاة بإتقان، أهلها ومعارفها وجيرانها، الكل شارك في تحضير حفل خطبتها الصغير وكأنه مأتم، إكرام تلك الأجنبية الماكرة دفنها! وقد كان هذا شعورها بحق، حين ارتدت دبلة خطبتها، شعرت بروحها تغوص في الرمال، وهي تتطلع لابتسامة أكرم، كانت تختنق، تجاهد لتتنفس، دون جدوى، شخص واحد تمنت ألا يحضر، حين رأت بثينة أمسكت بيدها بلهفة تسألها بعينيها، فأجابت بالنفي، ارتاحت آشيا، لم يحضر عدنان، حتى إنها لم تخبره، علم من أهالي القرية كالغريب، خاصمها، لكنه تفهمها، لم يكن ليتحمل الخبر منها على أي حال، هل كان سيحطم كل ما حولها من زينة لو أنه حضر؟ هل كان سيتشاجر مع أكرم كما فعلوا صغارًا؟ هل كان سيعانقها ويهرب بها خارج المكان؟ قطعًا لم يكن سيأتي ليصافحها مهنئًا، ارتاحت، على الأقل لم تغتل الحياة عدنان فيها، كانت فقط مندهشة وهي تحدق في فاطمة، بدت وكأنها هي العروس، كانت تشع حبًا وأملًا وجمالًا، كأنها وُلدت من جديد، اندهشت من ابتسامتها الشفافة، كأنها على وشك أن تطير،

تقبلها وتحدق بها وتحتضن رأسها وتثبت طرف فستانها، تأملتها باستفهام، لم يكن موسى إلى جوارها وانشغل بأخيه أكرم وهما يرقصان الدبكة، لم يكن هناك ما يستدعي ابتسام آشيا، لكن فرحة فاطمة كانت مُعدية، ما لبثت أن استسلمت لها ضاحكة، أشارت إليها حتى تلصق أذنها بفم آشيا فقالت:

- يغزي العين قديش حلوة اليوم فاطمة... شو بكي بتجنني؟ شو القصة؟

- أنا اللي بجنن؟ ولا انت يا أحلى عروس؟

- لا تعذبي حالك ماتقدري تقنعيني أني عروس مهما سويتي... المهم في جديد؟

تطلعت فاطمة حولها بخجل، تراقب الموجودين، ثم التصقت بأختها:

- بأحكيلك شغلة.... بتكوني أول حدا يعرفها.

- شو... يلا قولي.

- أنا حامل آشيا...

ثم أمسكت كف آشيا ووضعته برفق على بطنها، كانت مشرقة سعيدة، وكأنها امتلكت الكون كله بين يديها، لم تدر آشيا أتفرح أم تحزن، لكن حبور أختها جعلها تمثل الفرحة بشهقة، احتضنتها مهنئة ومشفقة في نفس الوقت، هربت من التفكير في ذاتها وما آلت إليه حياتها، وظلت تفكر في حال أختها، بهذه السرعة ستصير أمًا؟ لم تدرك رغبة فاطمة في أن تصير أمًا إلا حين رأتها ترتعش فرحة بحملها، تطلعت إلى موسى الذي كان يرقص شابكًا ذراعه في ذراع أخيه، وسألت نفسها هل اقتنعت بصلاحه كزوج لأختها حتى يصلح أبًا لأطفالها؟ هل سيكون بأنانية وجشع أبيها؟ بدا لها منطقيًا، فبعد طلب أكرم زواجه منها، شعرت أن الجشع جينات تسير في دم هذه الأسرة، أغلقت عينيها بألم وقالت هامسة (يا رب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تترك فاطمة يد موسى حتى بعد دخولها من باب بيتهم، كان يصارع نفسه التي تأمره أن يدفعها بعيدًا عنه، حتى لا تُحرقه بفتنتها، لكنه لم يتمكن من ذلك، لم يستطع مواجهتها طوال الحفل ولا الحديث معها بحرف، عليه الآن أن يخبرها وهو غير قادر على التطلع في وجهها، لقد أمضى الأيام الماضية يحاول سلخها من قلبه، لأن ما ينتظره أهم بكثير، وقف ساكنًا لا يعرف ما يحمله له وجهها من تعبير وهي تقف خلفه، ممسكة بيده بوهن وصمت، عزم أمره وقال:

- شوفي فاطمة.... بدي حكيلك شغلة مهمة.... بكرة ضروري تيجي معي عالسفارة الأمريكية... أنا بدي سافر أمريكا.

التفتت إليه، وقلبها يدق بجنون، فرأى أثر الصدمة على ملامحها:

- شو؟... ليش؟

- شو بدك سوي؟... بدك ضل هون لحتى اشحت؟... بدك نصير هيك طول عمرنا؟؟.... لازم نبني حياتنا.

- شو فيها؟ نحنا مبسوطين مرتاحين..... بيتنا وأهلنا هون.... منا محتاجين شي... مابدي شي... مافي داعي لتسافر وتتعب وتجتهد لحالك.

- إذا بتقبلي تعيشي هيك بقية سنين عمرك أنا ما باقبل.... مابدي ضيع حياتي وشبابي مثل عمي محمود ومحمد في ها المكان... راح سافر أمريكا أشوف الحياة.

- خلاص مثل ما بتريد.... بتاخدني معك آه؟

- لهيك حكيتلك بتيجي معي بكير لحتى نخلص أوراق جنسيتي الأمريكية بأسرع وقت ممكن.

- أنا قصدت بروح معك أمريكا.

- شو عم تقولي انت جنيتي؟ شو بسوي بمرتي في ها المكان لحتى تصير عبء علي في بداية الطريق... ماينفع تيجي بالبداية لازم تيجي بعد ما أستقر.

بقيت تتطلع إليه محاولة ألا تستوعب، ألا تصدق، كانت تحدق به منفعلة، شفتاها ترتجفان، ارتطمت بها كلمات آشيا عن رغبته في الجنسية وحدها، فقالت وهي ترتجف:

- بدك ترميني... مشان خدت اللي بدك ياه.... يعني كان كلامي مضبوط... كان بدك ياني مشان السفر وبس... أنا عملت كل اللي بأقدر عليه مشان خليك تحبني... مشان نكون سعدا مع بعض... وهلأ.... هلأ شوفيني سوي لحالي بها الحياة؟ مابدي صير لحالي.... أنا قبلت تزوجك تا تكون جنبي طول العمر.... وهلأ بدك تسافر لحالك وتتركني خلفك؟.... ماتعرف اللي كان بدي أحكيلك ياه اليوم؟.... كان بدي نحتفل مع بعض. لأنى حبلة..

تجمد مستمعًا لكلامها، لم يظهر بوجهه أي تعبير، كأنها حامل بطفل لا يخصه، كأنها هي نفسها لا تخصه في شيء، لم يفرح، ولم يغضب كذلك، فقط بقي مكانه يحدق في دموعها مستمعًا لنشيجها الخافت ثم نطق أخيرًا بعد وقت:

- هاد سبب أكبر يخليني أروح... مشان نحسن وضعنا.... مافينا نتحمل مصاري فرد جديد بيناتنا.... وهلأ صار محتم علي سافر.

فأجابته بمزيد من البكاء والدموع، وانهارت على ركبتيها أرضًا، وهي غير قادرة حتى على لومه، فجلس إلى جوارها محاولًا إنهاء عذابه، أمسك بكتفيها وهزها كأنه يريدها أن تفيق ثم قال:

- هاد بيكون وضع مؤقت يابنت.. افهمي.... هاد مشانكن.

- أنا مابدي شي... لاتقول مشاني.. إذا مشاني لا تروح.

- لا تتصرفي هيك متل الزوجة النكدية.... أنا بعرف شو الأصلح إلنا لا تناقشيني كتير... وخليكي عرفانة أنه هى مصلحتنا... ولازم تساعديني.

تركها ذليلة على الأرض، ودخل فراشه بعصبية، توقف بكاء فاطمة بعد أن أدركت أن الكابوس حقيقة ولا فائدة من محاولتها لعدله عن قراره، خرج صوتها مبحوحًا:

- رح نروح بكَير؟

- إي... مابدي نضيع أيام كتير بالاستجوابات... فاطمة لازم تساعديني... مشاني ومشانك.

- رح تصير أب ياموسى.... مابدك تضل هون حتى لحتَّى تشوفه؟

- مافيني استنى كل ها الشهور... بعد ما تولدي بأخذلي أجازة شي كام يوم وأزوركن.

آلم فاطمة كم كان مستهترًا بكل ما للكلمة من معنى بمشاعرها وبفرحتها وبحضور أبوته المفاجئ، مستغرقًا في جشعه في المال، متناسيًا شكل السعادة في طفل يناديه باسمه، لم يكترث للخبر مطلقًا، لم تبال فاطمة باستهتاره بها طوال فترة خطبتهم وبعد زواجهم، أعطت له ألف عذر وعذر، لكن هذه المرة طعنها طعنة مسمومة، لا تدري كم بقيت جالسة على الأرض دون حراك، ثم نهضت فجأة، ووقفت في الظلام أمام وجهه، تطلعت إليه وهو ينام بهدوء لم يؤرقه الندم وقد ذبحها للتو، تطلعت إليه مستفهمة، تحاول أن تتأكد إن كان فعلا بشرا يحس مثلها ويفرح مثلها ويحزن مثلها، فلقد شكت اليوم أنه مخلوق من حجر، كل ما بذلت من مجهود في تحمله ذهب أدراج الريح، رماه في لحظة طمع، لم تستطع أن تنام بجانبه، تلفتت حولها وهي تشعر بالحوائط تقترب وتقترب لتطبق على صدرها، شعرت بالدوار فتماسكت حتى هبطت على الكرسي، ونامت هناك محطمة الروح.

خلف عينيه المغمضتين كان موسى يتمزق في حرب مع نفسه، ما الذي جرى له، منذ متى يؤلمه بكاؤها إلى هذا الحد؟ حدثه قلبه، ربما هي على حق، ربما يجب أن تنتظر قليلًا، أنبته ذاته، ألم يكن حلمك السفر إلى أمريكا بأسرع وقت ممكن؟ لماذا تتردد الآن؟ لأجل دموعها؟ وإن كنت تشعر بالمسئولية تجاهها، فهذا هو ما يجب عليك فعله، فرد قلبه ولكن ألم تكن فعلا تنوي ألا تعود؟ ألم ترسم مخاوفها خطتك بحذافيرها؟ تقلب موسى في فراشه وصار وجهه ناحيتها، بعيدة ممدة على الكرسي في الظلام، ومع ذلك يستطيع أن يرى انكسارها، وخزات من الوجع اجتاحت خلاياه، لكنه هدأ من ضميره قائلًا إنه كان يعني ما قاله لها، لا بد وأن يعنيه يومًا ما.

كان مازن يمسك بهاتف والده وهو يرتعش غبطة، فها هو يحمل خبرًا سعيدًا ليبثه لأختيه أخيرًا، وقد مضى وقت طويل جدًا قبل أن يُوصل إليه والده اتصالًا منهم، فقد استمر في قضاء الوقت عند زوجته، وكلما سأله مازن عن أحوال أهلهم في سوريا، أخبره باقتضاب أنهم بخير، حين رد عليهم لم يكن يدرك تحديدًا الوقت الذي مضى منذ آخر مرة سمع فيها أخبارهم، وقبل أن يحدثهم في شيء استمع لفاطمة وهي

تبكي موصية إياه على زوجها الذي حصل أخيرًا على الجنسية الأمريكية، وأنه في طريقه إلى أمريكا تاركًا إياها خلفه، لم يصدق أنه سافر بهذه السرعة فلم يمضي على زواجهم الكثير، ذهل أيضا حين علم سبب حسرتها وبكائها أنها حامل وتخاف أن يأتي المولود دون أن يراه أبوه، ثم غمره يأس قاتم، قتل فيه كل فرحة حين علم بخطبة آشيا، حتى عمه محمود لم يكلف نفسه بدعوته أو إعلامه أو أخذ إذنه أو إذن والدها، سخر من نفسه قائلًا إنه ربما قال بالفعل لوالده، ولكن الأخير لم يوصل إليه هذه المعلومة، حاول أن يهدئ من روع أخته المنهارة التي بدت كأنها استيقظت فجأة لتجد منزلها بلا سقف رغم كل وعود زوجها لها بأنه سيعود، وأنه يفعل هذا لأجلها، نحيبها جعل مازن يتأكد أنها لم تصدقه، خاف أن تساوي هي بحياتها وكل ما فيها عند زوجها مجرد ورقة الجنسية، كما كانت أمه تساوي عند أبيه، في نهاية المكالمة بدا خبره عاديًا لا يحمل أي فرحة وهو يملي عليها أرقامه الثلاثة عشر، لتستطيع بعد ذلك أن تصل إليه دون أبيه، فيكلمهم وقت أن يحتاجوه، ويقلل المسافة بينه وبينهم خطوة، فقد صرف كل ما استطاع جمعه في شراء هاتف خاص به، واحتفظ بمصاريف تغطي المكالمات الدولية بينه وبين إخوته، لكن بدا له أنهن لا يملكن من الشوق ليتصلوا به ما أراده، فهم غارقون في الوحل حتى أنوفهم، أخبر والده عن وصول ابن عمه موسى إلى أمريكا، فرد دون اكتراث أنه يعلم، وأنه ليس جمعية خيرية يساعد فيها الجميع، فقد قرر تركه يتصرف وحده، أراح مازن هذا الكلام، فما كان يستطيع أن يتخيل حياته لو كان والده قرر أن يبقيه في الشقة القبر الخاصة به، ستصير قبرًا نتنًا لو انضم إليه فيها، كما أنه لن يتمكن من كبح جماح غضبه لو قابله، تطلع إلى هاتفه بعد نهاية المكالمة بدهشة وحسرة، لم يصدق أن كل تلك الشهور مرت بهذه السرعة، وأن العالم يتغير بهذه السرعة، شعر أنه يعيش على الهامش.

حتى آشيا نفسها لم تعرف كيف مرت الشهور، وكأنها خيط متصل فرط منها، حدقت بأختها وهي تصرخ وتتمزق حية، ورحمها يدفع صغيرها إلى الحياة، لم تتخيل أن يخرج كل هذا الضجيج من أختها الرقيقة التي لا تحتمل شيئًا، توقعت وهي تتطلع لوجهها الشاحب وجسدها الذي بقي متمسكًا بطرف روحها بقوة أنها ستموت في أي لحظة، وأنها لن تتحمل آلام الولادة، لم تصدق أنها قبل شهور كانت مجرد فتاة بريئة، وها هي الآن أم، شعرت بمدى حاجتها لزوجها الذي انشغل بعمله عنهم، بعد وصوله إلى أمريكا، وبرر قلة اتصالاته بأنه يحتاج وقتًا ليملك المال الكافي للسؤال المستمر، حتى حين سألته أمه عن الاسم الذي يريده لولده قال لها بلا اكتراث أن تسأل فاطمة!

أما فاطمة فكانت تدفن حسرتها في حبها لطفلها، بمجرد أن حملته بين ذراعيها الواهنتين، واستمعت لأول صرخة منه، حتى شعرت بمعنى وجودها، كانت في حالة مُزرية مجروحة ومهملة، لا ترد على أحد ولا تجيب أحدًا حتى أختها آشيا، فقط تكلم صغيرها، نزلت عليهم الصاعقة وهم يسمعونها تناديه خالد، اندفع محمود لضربها في حالتها المزرية تلك، فما كان من آشيا إلا أن ارتمت فوقها لتتلقى الضرب عنها، كان يقول وهو يلهث:

- يا فاجرة... عطيتيه اسم عشيقك... وصل بكِ الجنون لهيك؟... راح نسيكي اسمك هلأ.

لدهشة الجميع لم تصرخ فاطمة ولم تتألم مما أصابها من ضرب، وبقيت على حالها تناديه خالد، كان عليها أن تهرب من الواقع الذي لم تقدر على تحمله، كانت تهرب منه إلى الذكرى الوحيدة السعيدة بحياتها، ذكرى الإنسان الوحيد الذي أحبها بصدق لذاتها، وليس لأي شيء آخر، حتى لو كان عمها محمود قد كتب أي اسم في شهادة ميلاد الصبي، لبقيت طوال عمرها تناديه خالد، هو كان بالنسبة لها خالد، وهي كلمة ترادف الأمل والسعادة في لغة قلبها، لم تكن آشيا تملك من الوقت الكثير لتساعدها في رعاية صغيرها، بعد أن انتقلت إلى المرحلة الثانوية، ولا امتلكت الوقت لتشعر أنها مخطوبة، أو لتشعر بوجود أكرم، ازداد حقدها على أفراد الأسرة بعدما عانت الأمرين مع أختها التي غاصت في عمق اليأس والتعاسة، أدركت آشيا أنها ستلحق بها عما قريب، بكت في حضن جدتها وهي تطالبها أن تتركها تفسخ خطبتها لأكرم، لكن عزيزة لم يكن بيدها شيء، ما إن اقترحت الأمر على محمود حتى انفجر في الجميع غاضبًا، وما إن علمت محروسة بالأمر حتى اندفعت إلى غرفة آشيا وظلت تسبها وتلعنها، مذكرة إياها بالفضل الذي لهم عليها، أنهم أنقذوها من الشوارع، ومن تربية أمها التي كانت ستأخذها تلقائيًا إلى المخدرات والفساد الأخلاقي، بقيت أياما متواصلة تشن حربًا بذيئة بلسانها وألفاظها على آشيا في كل لحظة تمر فيها أمامها، والغريب أنها عاملت فاطمة بنفس الطريقة، بل كانت وقحة لدرجة أن اتهمتها بأنها السبب في غُربة ابنها موسى، لأنه لم يعد يطيقها، جعلتها وحدها الملومة لأنها لم تستطع أن تجذبه، لم تستطع أن تفعل أي شيء لتُبقيه، وكأنها لم تشاركه المؤامرة بتزويجه منها حتى يستطيع أن يسافر، وكأنه زوج معذب ذهب إلى هناك وحرم نفسه من كل جميل لأجلهم! وكأن فاطمة تستطيع ربطه في بيته ومنعه من الرحيل، مهما حاولت عزيزة منعها ومهاجمتها لم يكن سبها للفتاتين يتوقف، تمزقت آشيا من كل ما يحصل لها، لم تعد قادرة على التحمل، تطلعت إلى فاطمة الغائبة عن حياتها وهي تداعب طفلها، وتغني له أغنية لم تتبين كلماتها من صوت فاطمة الخافت، كانت تقول دائما:

- خالد بتحبني؟؟ بحبك كتير ياخالد... راح تصير أحسن زلمة بالكون... راح تكون تعويضي... راح تكون الرجل الوحيد الصادق بعمري يا خالد.

بكت آشيا وهي تتطلع إلى أختها التي صارت مريضة نفسيًا، لم تتحمل الصدمة، ولم تقدر على الخسارة التي شعرت أنها آتية لا محالة، بقيت إلى جانبها يوميًا في دارها تحاول محادثتها دون جدوى، لم تكن تجيبها قط، ولم تكن تجيب أحدًا، فاكتفت بالجلوس بجانبها كل ليلة تساعدها على رعاية طفلها، وتهتم بصحتها، وتقرأ لها القرآن، فربها هو الوحيد القادر على شفائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت في عيني آشيا كلمة واحدة (انساني)، في كل مرة يتطلع إليها عدنان وهي خارجة من مدرستها برفقة خطيبها المدعو أكرم، يقف هناك يتطلع إليها، ينتظر

منها رسالة ما، لمحة، وكانت تسمح لنفسها بالتطلع إليه مرة واحدة لتطلب إليه أن ينساها، لعله يفقد الأمل فيها ويريحها من شوقها له في كل مرة تراه أمامها، وتضطر أن ترحل مع أكرم، لم يكن أكرم بالأساس يوصلها حبًا لها، ولكنه كان يتمتع بالتشفي وهو يحدق منتصرًا في عدنان، يشعر بغبطة كلما رآه واقفًا ينتظرها فيمعن في أذاه، ويمسك بيدها عنوة، ويسحبها مُلجمًا إياها بدبلته، فينزل عدنان عينيه بانكسار، قلبه مهزوم، يمكنه تحمل ألا تكون زوجة له، لكنه لا يستطيع أن يتحمل انقطاعها عنه، يمكنه ألا يبتلعها كاملة، لكن ألا يحق له برشفة منها ترد روحه فيتحمل؟ لم يعد يملك من الطاقة ما يتحمل به صعوبات الحياة، لم يعد يملك ما يبتسم لأجله، استطاع تحمل طعنة خطبتها، ولكن فراقها جُرْح سيظل ينزف حتى يصفي كل الحياة بداخله، كان يسير دون وجهة في شوارع القرية، لم يكن قادرًا على العودة، كيف يعود لحياته وهي لم تعد فيها، وكيف يجد الأمان طريقًا إليه وشوقه لها يزلزل روحه، لم يأكل شيئًا، ولم يكلم أحدًا، ظل سائرًا دون وجهة محددة، وجهته أن يجد حلًا لما يحدث، حتى توقف عن السير فجأة وتطلع أمامه يحاول أن يستبين ملامح هذا الحل، كان كل شيء واضحًا، أكرم يلفها بمشنقة إعدامها، إن ماتت روحها يموت معها، بدا له حلًا منطقيًا، انطلق بسرعة البرق كالمجنون، وصل بيتها لاهثًا، وقف مختفيًا خلف جزع شجرة ليس ببعيد، مرت الساعات ببطء شديد وهو يستجدي الأمل صابرًا، حتى نام الجميع، غاصت قدماه في طين الحديقة، التف حول الدار محاولًا تبين النافذة الصحيحة، وقف عندها وطرقها برفق، انتظر وهو يلهث، خائفًا أن يجده أحد، جاءه وجه آشيا الناعس يحدق في الخارج، حتى شهقت واتسعت عيناها وهي ترى عدنان، كادت تصرخ مستفهمة، لكنها تداركت الموقف، وفتحت شباكها دون صوت قالت هامسة:

- شو بتسوي هون يا مجنون؟ ناوي تشرشحنا قدام أهلي؟

- تعي معي يا آشيا!

- لوين بدنا نروح هلأ؟ روح لبيتك الله يخليك مو ناقصين مصايب.

- مو اليوم.... خلينا نهرب... أنا وانت.... أنا جاد ها المرة.... مافيكي تصيري نسخة من اللي صار بأختك.... انت مو متل فاطمة مارح تتحملي.... انت عم تدفني حالك ومارح تقدري تطلعي أبدًا لو استمريتي بخطبتك لها الغبي أكرم... لازم نهرب.

- لوين بدنا نروح؟ وشو بنسوي لما نهرب كيف بنصرف على حالنا؟ مابيصير هيك أبدًا.

- بنروح ع لبنان.... ماحدا بيعرفنا وقتها.... راح نسافر بيروت بالباص من الشام.. أنا معي مصاري تكفي.... ولما بنوصل راح أشتغل أي شيء لحتى نقدر نصرف على حالنا بالأول... بعدين وضعنا بيتصلح شوي شوي.

- وشو بتسوي بدراستك؟ وحلمك أنك تصير ضابط شرطة؟ وكيف بنوصل ع لبنان مو محتاجة أوراق؟؟... هاد كله جنون.

- اللي عم تعيشيه وتقبلي فيه هو الجنون يا آشيا.

- وطي صوتك بتفضحنا.

وضعت يدها على فمه لتسكته، فأمسك بها واقترب أكثر، ثم قال لها:

- حتى لو ما بدك نروح لبنان بنروح حلب أو حمص أو أي مدينة بعيدة عن هون.... ماراح يتوقعوا مكانا..... ماراح يقدروا يوصلوا إلنا..... حضري حالك بنهرب بكره... اطلعي من المدرسة قبل موعدك الأصلي بحجة تعبك مشان ما نقابل أكرم.... وخذي معك اللي بدك ماتتركيه وراك... وأنا راح أنطر برا من أول النهار في أي فرصة عرفتي تطلعي، اطلعي.

ثم رحل بخطوات سريعة، بقيت آشيا تحدق فيه حتى اختفى، كانت تتنفس بصعوبة، حاولت أن تنام ولكنها لم تستطع، في لحظة يأس بدا كل شيء منطقيًا، ماذا لديها لتخسره؟ لا يمكن أن تعيش حسرة أختها، لا يمكن أن تقبل الصفعة التي أخذتها من زوجها الخائن، فتسلم خدها لتأخذها من أخيه، لن تقبل أن تبيع نفسها وعمرها من أجل طموح جشع لهذا المخلوق المدعو أكرم، لم تفكر ولم تخف ولم تتردد، في الصباح حملت حقيبة منتفخة بملابسها، خالية من أي كتب أو دفاتر، وتجنبت التطلع إلى وجوه أفراد أسرتها، لم يكن معها شيء لتكتب به دروسها ولم يكن ذهنها يركز في شيء سوى وقوف عدنان بانتظارها، سألتها معلمتها إن كانت بخير وهي تراقب وجهها الشاحب وعدم استجابتها للدرس، فأدلت برغبتها في الرحيل، لتعبها الشديد، كذبة سهلة جعلتها تخرج بمأمن، حتى وصلت المكان الذي ينتظرها فيه عدنان، وقتها لم تشعر بشيء مطلقًا إلا وهي تجلس إلى جانبه في سيارة ترحل بهم إلى الجنوب.

اللّيلُ عادلٌ

لا يفرِقُ

بينَ بحرٍ

وسماء،

بينَ عصفورٍ غريبٍ عن الشرفةِ.

وإنسانٍ غريبٍ عن البلادْ

اللّيلُ عادلٌ

في السوادْ

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

8

انحنت عزيزة لترفع قِدر اللبن، وحين استقامت تباطأت عضلاتها، فتقلصت، وآلمها ظهرها كثيرًا، شعرت بثقل تلك القِدر التي كانت تتحمل وزنها طوال عمرها، بل وتحمل منها اثنتين أو ثلاثة دون أن تشكو، نظرت لجسدها وشعرت بالعجز، أدركت أنها فعلا قد كبرت، لم تكبر بالسنوات بقدر ما كبرت بالهموم، أسفت لكم الأشياء التي حصلت خطأ في حياتها ولم تستطع إيقافها، أسفت لحال محمود وما يفعله في أحفادها وفي زوجته، حقده الذي لم يسلم منه أقرب إخوته، وشعوره الدائم بالنقص، وتطلعه الذي يفوق قدراته وعمره، كل هذا حوَله مع مرور السنوات لشخص لم تعد تعرفه، وكأنها لم تربه بنفسها يومًا، تذكرت محمد حين رأت الكرسي الذي كان يجلس دائما عليه في الحديقة، ألقت حسرتها وسارت تتمايل بسبب خلل في توازنها، وقفت تلتقط أنفاسها وسط الطريق، بسبب شعورها بالألم، شعرت بحركة على يسارها، تطلعت ولم تصدق ما رأته، كانت فاطمة تسير والدماء تسيل من أسفلها، كانت تسير وهي تمد ذراعيها أمامها وكأنها عمياء، بالغة الشحوب تحدق في اللاشيء، وتتعثر في ما لا تراه على الأرض، وفجأة استندت إلى سياج حديقة المنزل، تنظر إلى الأمام بذعر، فجأة صرخت بأعلى صوتها حتى انتبه إليها المارة، ورمت عزيزة القِدر من يدها وذهبت إليها بخطوات سريعة، متناسية الألم الذي كانت فيه، أمسكتها من ذراعيها وهزتها وهي تقرأ عليها الآيات وتبسمل، ولكنها ظلت تصرخ بفزع وهي تقول:

- آآآآآآآشيا..... لا تروحي.... لا تتركيني لحالي... باموت.... لا تروحي.... آشيا!

لم تفهم عزيزة ما يجري، فالتفت إليها فاطمة وهي تصرخ:

- آشيا راحت ياستي راحت... شوفتها بعيني.... بعيدة كتير صارت هلأ... ماراح ترجع.. ماراح ترجع منوب.

خرج إليهما محمود، وكاد يطيحها بقبضته، لكنه حين رأى وجهها ذُهل، واستمع لصراخها باستغراب، التف حولها الجيران وكل السائرين في الطريق مندهشين من الحالة النفسية المفاجئة التي أصابتها، أدركوا أنها تريد آشيا، فحاولوا تهدئتها بقرب موعد انتهاء يومها الدراسي وحضورها، ولكنها ظلت تصرخ وترتعش والدم يسيل من بين ساقيها، صاح محمود وأمر بنات عمتها بأن يُدخلوها بالقوة، خوفًا من الفضيحة، حملوها حملًا إلى غرفتها، كان ولدها يبكي بهستيريا، مر الوقت سريعًا وتعجب محمود لتأخر أكرم في الحضور مع آشيا، بعد نصف ساعة دخل أكرم وحده إلى البيت ووجهه مسود من الغضب، صاح في عمه أن آشيا تركت المدرسة منذ الصباح الباكر بحجة تعبها، انتفض محمود مذهولًا من صحة كلمات فاطمة، ودخل غرفتها بسرعة، وجد كُتبها ودفاترها ملقاة أسفل الكرسي، فتح باب الدولاب بعنف، فخلعه من شدة الغضب، كان من الواضح أنها أخذت جزءًا من ثيابها وحاجياتها، كانت عزيزة تسير خلف محمود كظله، وتراقب كل ما يراه بعينيه، وتتمتم بأدعية الستر، فالتفت إليها صائحًا:

- بنت الكلب سوتها وفكرت حالها بتقدر تهرب... شرشحتنا وشرشحت عيلتنا كلياتها في القرية..... هاد اللي اخدناه من ابنك اللي ترك نسوان الكون وجابلنا مرة عاهرة من أمريكا مشان مصلحته.... مابيكفي ضيع حاله وبده يضيعنا معاه..... الكلبة طالعة لأمها..... يالطيف شو بيكونوا عم يقولوا عنا هلأ.

- طول بالك يا محمود لا تعصب... يمكن بتكون راحت مشوار مع رفقاتها وبترجع.

- مشوار؟ ماسمعتي شو قال أكرم؟ هربت بكير بحجة التعب.... هلأ بتكون بمدينة تانية... مارح تركها... راح رجعها لحتى فرجيها ليلة ما بتشوف مثلها بعمرها كله.... شحار يكمعها بنت الكلب.

- ياالله... يا الله رحمتك... الله يخليك يا محمود لا تسويلنا بلوة.

- ماعاد في بلوة أكبر من هيك... هاالبنت راح تتمنى لو كانت ماتت قبل ماتلقاني... راح فرجيها.

ثم اندفع خارج المنزل هو وأكرم، وجمع معه بعض الجيران، ظلت عزيزة تتطلع إليهم حتى اختفوا عن ناظريها وهي تبكي وتدعو الله أن ينتهي هذا اليوم على خير، وذراعاها يرتعشان، جلست على الكرسي تتطلع إلى فاطمة التي لم تتوقف عن الصراخ والنواح، ونساء الأسرة يلهبن سيرة آشيا بالشتائم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوجوه التي نلقاها في الأماكن المجهولة دائما عدائية، هكذا تراءى لآشيا وهي تعبر فوق خوفها إلى عالم لا تعرفه، شعرت آشيا بهزة توقف السيارة التي تحملهم إلى المجهول، كانت طوال الوقت ترتعش وهي تمسك بيد عدنان، الساعات التي أمضتها راكبة تحدق في كل ما حولها كانت أطول ساعات بعمرها، تشتت فيها عقلها، وراح يصور لها كل الأهوال الممكنة وغير الممكنة، عبثًا حاول عدنان إلهاءها بالحديث في مواضيع جانبية، لم يكن يريد أن يحدثها عما هم فيه، ولكنها لم تستجب له سوى ببعض الإيماءات برأسها، أو التطلع إليه بعينيها دون أن تراه حقًا، كلما ابتعدت عن قريتها، أدركت فداحة ما أقدمت عليه، لم تكن عزيمتها ما جعلها تفعل هذا وإنما الاختناق من كل ما يحيط بها من ظلم وقهر، شعرت بقلبها ينقبض فجأة وهي تفكر في أختها، هل ستغفر لها؟ والصبي الوليد، هل ستراه مرة أخرى؟

جدتها ستتفهم دون شك، محمود سيجن، ولكنها سعيدة أنها تخلصت من أكرم، هل تخلصت منه حقًا؟

تطلعت حولها وهي تشك أن ما تمر به الآن مجرد حلم ستستيقظ منه وتجد نفسها في سريرها على وشك أن تستعد للذهاب إلى المدرسة، اندهشت بعد مرور الساعات أنها استمعت لخطة عدنان ببساطة، ونفذتها دون أي تراجع، لم تحاول حتى أن تسأل عدنان إلى أين يتجهان، لم يلاحقهم أحد لكن كل شيء تركته خلفها يلاحقها، تلاحقها دموع أختها وحنان جدتها، تلاحقها همومها المألوفة، فها هي تتألم بمصاحبة هموم جديدة مجهولة، كلها دوامة من الضجيج تحاصرها وتجعل صراعها النفسي في كل ثانية تمر يقتلها بالتصوير البطيء، حين هبطت من السيارة سارت بجوار عدنان

صامتة تحدق في ما حولها دون أن تفهم أو تستوعب، شعرت أنها تتفرج على نفسها من نافذة بعيدة ولا تعيش داخل جسدها بالفعل، عدنان كان صبورًا حنونًا ومبتهجًا وكأنه لم يهرب من أسرته، وكأنه ذاهب في رحلة قصيرة وسيعود، وكأنه لم يقتلع جذعه للتو من الشجرة الأم للأبد، وسيبقى يصارع جفاف الحياة وحده، حدثت نفسها أنه ربما منفعل ببقائهم سويً،ا متناسيًا أبعاد ما أقدموا عليه، كان يحمل مالا لا بأس به، سرقه من حقيبة والده، ولم يكن هذا الوقت المناسب لتلومه على فعلته أو حتى تفكر فيها، لم يُفلت كفها طوال الوقت، فقد كان يشعر بمسئولية كبيرة تجاهها، أراد أن يثبت رجولته أمامها بثباته وجديته، ولم يحاول أن يفكر في شيء يجعله يخاف أو يتراجع، وحاول أن يرمي كل شيء خلفه دون أدنى شعور بالندم، لقد كانت آشيا في نظره آسرة، كان حبه لها قد فاق تمسكه بجذوره بل وبمبادئه، كل ما عليه أن يجد مكانًا يبيتون فيه وفي الصباح يبحث عن أي وظيفة كانت، لم يحزن سوى لفراق أمه، محاولًا التخفيف عن نفسه بتذكيرها بآخر دعاء دعته له قبل رحيله أن يحميه الله من كل سوء، كانت تظنه ذاهبًا إلى مدرسته، ولم تعلم أن دعوتها قد تقيها فيما بعد شر وسواس قلقها عليه، بأن يصيبه أي مكروه، لاح لعدنان خاطر أن آشيا ستقبل الزواج منه بعد هذه الحادثة الجذرية في حياتهم، أدرك أنها وهي ترتجف تحت جناحه ستستوعب رجولته بعيدًا عن مزاحهم الطفولي ونزهاتهم الطائشة، ركز فقط على وجودهم سويًا في عالم جديد، وهذا ما جعله ينفض عن نفسه كل ما يقلقه، انتقل بها من سيارة لأخرى، من مكان لآخر، حتى توقفوا في محطة للقطار، قال لها مبتسمًا إنهم ما إن يصلوا إلى مدينة يستقرون فيها، حتى يشتري لها غداءً تأكله، ثم تركها قائلًا إنه سيذهب لشراء تذكرة قطار. كلما رفعت عينيها تنظر فيمن حولها شعرت بالنبذ، كأن الجميع علموا بما أقدمت عليه، كانت تظن أنهم يتطلعون إليها بريبة ولوم، وكأنها فتاة بلا أخلاق، فكل مُذنب يظن أن ذنبه مكتوب على جبينه، فجأة توقف قلبها عن النبض حين رأت رجلا في الأربعينيات يحدق بها، ثم تحرك بسرعة، ورأته يتحدث في الهاتف، كانت تعرفه، فهو يملك متجرًا بالقرب من مدرستها، هل جاء إلى هنا من أجل استلام بضاعة ما؟ توقف عقلها عن العمل وهي تحاول أن تستوعب تلك اللحظات الخاطفة التي وقعت عيناها فيها عليه، أتاها عدنان بالتذكرة فالتفتت إليه لثوان ثم عادت بنظرها نحو الهاتف العمومي، فلم تجد الرجل، للحظة شعرت أن مخاوفها صورت لها الموقف، فاختارت أن تصمت، جاء القطار الخاص بهم فركبوه حاملين حقائبهم الصغيرة، جلست آشيا يجاورها عدنان وبدأ يأكل شطيرة صغيرة، وأعطاها واحدة، وهو يقول كلامًا غير مفهوم مع مضغه، فجأة وقبل أن يتحرك القطار وجدوا أمامهم ثلاثة رجال بصحبة صاحب المتجر كانوا ينظرون حولهم، لم تتمكن من التنفس حين تلاقت عيناها بعيني ذلك الرجل مجددًا، أشار لهم فتقدموا نحوهم بسرعة، تطلعت إليهم آشيا بثبات وكأنها تنتظرهم، في ثوان قبضوا على ذراع عدنان، رأته يدفعهم ويحاول التملص والدفاع عن نفسه، وهو يترجى صاحب المتجر، أما هي فكانت مستسلمة تمامًا وهم يسحبونها خارج القطار، ما إن هبطوا منه حتى سار هاربًا وكأنه لفظهم، سحبوهم كالمجرمين سحبًا على الأرض، وهم يسبونهم بصوت عالٍ بما فعلوا حتى لا يشعر أحد من المارة بالتعاطف معهم، العيون كانت تتطلع لها باتهام واشمئزاز، المراهقة

الهاربة مع عشيقها بسبب خطبتها لشخص لا تريده، تنتشر هنا الأخبار تشفيًا أسرع من الصوت، لم تستوعب الوقت ولا الأحداث حتى وجدت نفسها في غرفة تخص أحد معارف صاحب المتجر، كانت فقط تراقب العيون التي تحدق بها كأنها سكاكين تذبحها، اتصلوا بوالد عدنان ليحضر، كما اتصلوا بأسرتها، بقيا محبوسين مستمعين للتأنيب من صاحب المتجر، لم تدر آشيا ماذا حدث أو ما هو على وشك الحدوث، كانت فقط تمسك بيد عدنان وكأنها ستغرق، تختنق بشهقات الإعدام، سمح لنفسه باحتضانها وقال:

- ماتخافي.... مافي قوة بالكون بتفرقني عنك... إذا ماقدرنا ها المرة نهرب بنقدر المرة الجاية.. بس ماراح أتركك تكوني زوجة لها النذل الله لا يوفقه..... ماتخافي منوب آشيا أنا مابتخلى عنك.

- خلاص بنموت يا عدنان... خلاص بيذبحوني... مستحيل أرجع... مستحيل.

- روقي بالك بنحلها.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل والد عدنان، ثم تبعه أكرم ومحمود وبعض الجيران، سحب الرجل ابنه من ذراعه قاذفًا به بعيدا عنها، وظل يركله ويضربه ويسبه بأقبح السباب، ثم شكر صاحب المتجر الذي انتهز الفرصة ليتباهى بمجهوداته في المحافظة عليهما، وأنه بمجرد ما لاحظ وجودهما في هذا المكان أدرك أن عليه الاتصال بوالد عدنان فورًا، ثم كما توقعت طلب بعض المال، بينما تطلع إليها أكرم ومحمود دون كلمة، كانت تكفي نظراتهم لذبحها وتشريح لحمها قطعة قطعة، دفعوا بها خارجًا، فألقت نظرة أخيرة على عدنان ووالده لا يتوقف عن ضربه، حتى بعد أن حال الجيران بينهما دون جدوى، كانت تريد مجرد دقيقة معه، لكنهم سحبوها لمنصة إعدامها، ازداد خوفها أضعافًا وهم يتجاهلون تأنيبها طوال طريق العودة، كأنهم يجهزون لها ما هو أكبر من التأنيب، شعرت بالغثيان وهي ترى قريتها على المدى، ساروا بها إلى بوابة المنزل بين جمهور المحدقين، صارت سُمعتها علكة في فم كل شخص في القرية، الرجال والنساء وحتى الأطفال، الكل يسبها باشمئزاز، بل ويضيفون جانبًا آخر للحكاية عن العشق الذي دار بينها وبين عدنان، تفاصيل لم تكن تحلم بها، ولا أفضل مخرج سينمائي يستطيع أن يصيغها بهذا الإتقان وهذه الحبكة أضيفت إلى سُمعتها، دخلت المنزل والتفت حولها نساء العائلة بالسباب والدفع واللطم على خدها، كانت مستسلمة تحدق في ظهر عمها محمود الذي تركها لهم، ودخل لا تدري إلى أين، جاءتها عزيزة وهي تعرج، كانت تبدو في حالة صحية سيئة بوجهها الذي تعمقت تجاعيده وعينيها الغائرتين وشحوبها المفاجئ، أمسكت بها واحتضنتها بقوة وهي تبكي وتلومها:

- شوهاي اللي عملتيه يا مجنونة.... ماكان مفروض تسوي هيك أبدًا.. مت من القلق عليكِ الله يسامحك.... الله يسامحك يا بنت رامي.

ارتجفت آشيا بين ذراعيها حنينًا إليها، أمسكت بها وهي ترتجف، تنظر حولها وهي تشعر أن عمها محمود سيظهر لها في أي ثانية، ليتلذذ بانتقامه منها، وقع نظرها على فاطمة التي تقف بصعوبة عند باب غرفتها، نكست رأسها وهي تراقب نظرات

أختها الغاضبة، خرجت عن الدائرة التي لفتها وذهبت إلى أختها، احتضنتها وسمحت أخيرًا للدموع بالهطول، قالت لها فاطمة وهي تصيح:

- إياكي تتركيني.... إياكي.... نحنا ما بنتخلى عن بعضنا... بتذكري وعدك لي؟ هلأ مازن تركنا ورحل... زوجي تركني ورحل.... كله باقدر أتحمله... لكن انتِ... كيف بدي عيش بلاكِ؟ وانت كنت السبب أني تحملت كل شي لحد هلأ.... بالله عليكي ماتتركيني مرة تانية.... لا تتركيني.

نحيب فاطمة الحاد وسباب نساء العائلة، ومرض عزيزة، وشعورها بأنها فقدت كل شيء، تمنت آشيا لو أنها ماتت في هذه اللحظة بالذات، ليس لندمها، لم تندم على هربها بقدر ما ندمت على أنها لم تأخذ فاطمة، فقط كانت تختنق بالأحزان المتوالية التي لم تفارقها منذ فارقت أمها، حزنت لكم الألم الذي سببته لأختها وجعلها ترتعش بهذا الشكل المؤلم، وتبكي وتنوح وكأنها تركت طفلًا دون أمه في مواجهة المجهول، شعرت بمسئولية كبيرة تجاهها وتجاه ما سببته لها من حزن، ولكن عمها محمود لم يمهلها، فجأة ظهر خلفها وأمسك بها من أم رأسها، فصرخت بأعلى صوتها، فارتجت فاطمة ووقعت على الأرض وظلت تصرخ:

- تركها.... تركها يا مجنون شو بتسوي؟

وحاولت عزيزة أن تعترض طريقه وهو يشدها إلى الخارج، لكنه دفعها هي الأخرى دون أن يكترث لسقوط أمه، شد آشيا بعنف من شعرها حتى شعرت أن فروة رأسها على وشك أن تنسلخ، كانت تصرخ وتستغيث بصوتها وأصابعها وحركات يدها، وكلما سقطت، حملها على الوقوف بشعرها، كان أكرم يسير خلفه دون أن يمنعه، ودون أن يرفعها أو يسندها أو يساعدها على الوقوف، سقط من نظرها في تلك اللحظة التي شعرت فيها أنه مجرد من رجولته كليًا وأنه على استعداد لتركها تموت في يد عمها لأن عينيه قالتا لها مرارًا موتي أيتها الساقطة.

أمسك محمود بآشيا وكأنها أحد كلابه، يجرها نحو زنانة قذرة، رماها دون أدنى درجة من الآدمية في غرفة قديمة تخص البقرة، أرضيتها امتلأت بفضلاتها وبقايا طعامها، ما إن أحست البقرة بحضورهم حتى أطلقت خوارها المزعج، لكنه لم يغط على صوت صراخ آشيا، حين أمسك محمود بالسوط الذي يُضرب به الحصان ليسير، وانهال على كل مكان في جسدها ضربًا، ظلت تصرخ وتتأوه، وسال الدم من جسدها، والبقرة تصرخ هي الأخرى، حاولت أن تحمي وجهها بعد أن أصابه طرف السوط، فاستدارت، فكانت بقية الضربات من نصيب ظهرها، ظلت تصرخ بهستيريا، ولم يعد جسدها يتحمل مقدار الألم حتى أغمي عليها، لكن لدهشة أكرم فإن محمود لم يتوقف عن ضربها حتى بعد أن أغمي عليها، في تلك اللحظة فقط تدخل أكرم ومنعه من المزيد قائلًا:

- بيكفي الله يخليك.... راح تشوه جسمها ورح تكون زوجتي عن قريب.

لهث محمود من لذة انتقامه رغم أنه لم يكتف، شعر بزهو وانتصار لم يشعر بهما في حياته وهو يُلقن تلك المخلوقة الدرس الذي أراده لها منذ أول مرة وقفت في وجهه،

كم كان ينتظر أن تخطئ خطأ كهذا، حتى يتسنى له أن يفجر فيها قنبلة غضبه، انتظر سنوات طويلة وها قد جاءته تلك اللحظة، طوال حياته لم يجد من هو أدنى منه ليدوس عليه، وها قد وجد ضالته، تمنى لو أنها لم تقع في إغماءة، ليستمر في ضربها حتى تؤلمه عضلاته، أغلق عليها الباب ومنع الجميع من رؤيتها أو الذهاب إليها أو حتى إسعافها، وبقيت آشيا تلك الليلة هناك غارقة في دمائها ساعات الليل كاملة دون إنسان.

كانت الكوابيس هي رفيقة آشيا في زنزانتها تلك الليلة، رأت محمود يشنقها وهي تختنق، رأت فاطمة تصرخ وتبكي، رأت أمها تبتعد تاركة إياها خلفها، توالت عليها الكوابيس، وما إن تفيق حتى تتأوه ألمًا، روحها المحطمة أكدت لها أنها آخر ليلة بعمرها، ظلت تدعو ربها أن يغفر لها ويرحمها من كل ما هي فيه، ظلت تبكي وتهذي ولا تفرق بين الصحو والنوم، وبين ما تراه عيناها حقًا وما يصوره لها خيالها المحموم، تلك الساعات المظلمة كانت أطول ساعات مرت بعمرها، اشتاقت لعدنان وتألمت لحاله، وتمنت لو تطمئن عليه، ظلت تنادي أخاها وأختها وجدتها دون أن يسمعها أحد، والبقرة تنام هادئة في الركن الثاني من الغرفة، بدأت أنفاسها تهدأ حين أدركت أن الله يراها، ويرى ما آلت إليه أحوالها من الظلم، وأدركت أن حقها سيعود لها، بإذنه وحده.

رقدت عزيزة في فراشها في حالة سيئة من المرض، أما فاطمة فلم تنم إطلاقًا، بقيت ترن في أذنها صرخات أختها المستغيثة، كانت تُرضِع صبيها ساهمة، وقلبها يهتز مع كل صرخة من صرخات أختها، لم تستطع حمايتها، ولم تستطع فعل أي شيء لها، رأت محمود يبلغ محروسة بأنه سحب ملف أوراق آشيا من المدرسة، وألحقها بفاطمة، وأوقف تعليمها، وكذلك قدم شكوى ضد عدنان وعائلته في قسم الشرطة، حتى يأخذ بعض المال كغرامة بحجة أنه اختطفها وأثر في عقلها، ثم شرح لها أن عليهم الإسراع بتزويجها من أكرم قبل أن ترتكب فعلًا مثل هذا من جديد، لأنه اعتبر نفسه يتعامل مع إنسانة مجنونة غير سوية، استشاطت فاطمة غضبًا وقررت أن تخبر أخاها بكل ما حصل، ولكنه منعها من الخروج هي الأخرى، وكأنها شاركت أختها الجرم، كان يطرق بابها بعنف كلما سمع صوت وليدها وهو يبكي، وكأنها يأمرها أن تخرسه، كل شيء تداعى، وبقيت فاطمة وحيدة برضيعها بين الأطلال، حين حضرت الشمس تحاملت على نفسها وذهبت للغرفة التي حُبست فيها أختها، نظرت من النافذة فوجدتها نائمة على جنبها الوحيد الذي لم تصبه ضربات السوط، لم تدر كيف تدخل إليها والنافذة يقسم فتحاتها الحديد، فيجعل أكبر فتحة بحجم كف اليد، نادتها ففتحت آشيا عينيها، حين رأت أختها ابتسمت لها بتواطؤ، ابتسامتها كانت قوية متماسكة، وكأنها لم تُمض الليلة غارقة في دمها، لكن هذه الابتسامة الشجاعة خففت الكثير من قلق فاطمة، انتظرت ساعة خروج عمها برفقة أكرم إلى المزرعة، ثم أخذت المفتاح الاحتياطي من غرفته، رأتها محروسة وحاولت منعها قائلة:

- اللي يساعد بنت متل أختك على أفعالها ما يقل عنها فساد.... وانتو الاتنين ماشاء الله دمكم وسخ.

- خلاص بعدي عني يا أمو دم نظيف!

ذهلت محروسة وهي ترى فاطمة التي تتقد غضبًا، غضبها أضاف لصوتها نبرة حارقة مخيفة ونظرة قاتلة، جعلت محروسة تتراجع وتسكت عن الإهانة التي لحقت بها، وحين أفاقت من وقع الجملة، كانت فاطمة قد رحلت، فظلت تسب وتلعن، وهي تقف وحدها، كأنها تحدث نفسها. فتحت فاطمة الباب ودخلت متحاملة على تعبها تحاول تنظيف جروح أختها، أعطتها ثيابًا غير التي ترتديها، وبعض الطعام والأدوية المسكنة، ارتاحت آشيا وقالت لها بابتسامة:

- ماتخافي علي.... البقرة ظلت تحكيلي حكايات لحد ما نمت للصبح!

دمعت فاطمة وهي تبتسم وارتجفت شفتاها وقالت:

- طول عمري بافرح بقوتك.... مافي حدا متلك بيعطيني أمل.... بتعرفي أنه عمي أخرجك من المدرسة.

- إيه توقعت هالشي.... بتعرفي.... امبارح كنت خايفة كتير وحزينة.... بس وسط الألم الله رحمني ونمت.... وحلمت أنه أنا وانت صار إلنا جناحات من ذهب.... وصرنا نطير والبومة محروسة وأولادها ضلوا يتطلعوا علينا من تحت حاسدين... انهبلو!

فضحكت فاطمة، كانت تدرك أن آشيا تحاول إشغال نفسها بالحديث بعيدًا عن ألمها، وأختها تمرضها، تألمت وهي تراقب العلامات التي تركها ضرب محمود الوحشي لها، شعرت بقلة الحيلة والضعف، لكن حبها العظيم لأختها الصغيرة جعلها تصب كل مجهودها على التفكير فيما يمكن فعله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قامت بتنظيف ركن من أركان الغرفة القذرة من أجل آشيا، ووضعت لها غطاءين هناك، أحدهما لتنام عليه، والآخر لتغطي جسدها به، تركت لها طعامًا وبعض الماء العذب لتشربه، وطلبت منها ألا تتحرك كثيرًا، عادت لتغلق الباب كما كان، وأعادت المفتاح مكانه، كانت تفعل هذا كل صباح، وكانت محروسة على علم بما تفعله، وبدا كأن محمود يعلم هو الآخر، لكنه يتركها خوفًا من حنق أمه المريضة الراقدة في السرير، قرر أن يعاقبها بحبسها هناك، حتى يوم زواجها من أكرم، والذي حدده بعد أسبوع فقط.

كانت فاطمة ممزقة بين رعاية طفلها ورعاية أختها، ولم يساعدها أحد، ولم يتبادل معها أحد الكلام مطلقًا، لم تدر ماذا تفعل، لم يكن من الممكن أبدًا أن تسمح أن تقع أختها في ما وقعت هي فيه من قبل ودمر حياتها، ها هي الآن معلقة بلا زوج ولا حياة ولا أي شيء، رماها كالقمامة بعد أن أخذ أوراق الجنسية، ليس هي وحدها بل لم يعد يهتم حتى بالسؤال عن أسرته، كأنه بمجرد التحدث معهم يتذكر أصله، حتى إنه لم يكترث حين أخبره محمود أنها أطلقت اسم خالد على ابنها، بل كان يتجنب الحديث عن المولود حتى لا يتطرقا لاحتياجهم للمال، فهو لم يرسل لهم قرشًا منذ وصوله أمريكا، لقد حدث ما خافت منه، وانشغل بحياته الجديدة، واعتبرها من الماضي، حسن نيتها كان جريمتها لأنها ساعدته على الرحيل، وهي تظن أنها تستطيع جعله يحبها، وأن حبها سيعيده يومًا ما، وهذا بالضبط ما سيحصل لأختها،

يمكنها أن تتحمل الفشل لنفسها، فهي قد وضعت ابنها نَصب عينها ليكون هدفها الجديد الذي تعيش من أجله، فلقد كان حملها رحمة من ربها، لتجد طوق نجاة تتمسك به، وإلا لكانت قد انتحرت بعد ما حصل لها، لكن أختها لا تزال صغيرة، لا تزال تضج بالحيوية والحب والسعادة، لا يمكن أن تقبل لها نفس المصير الأسود، كانت تراها راقدة بجانب البقرة وتشعر بالحسرة، إنهم حقًا يعاملوهن كالبهائم، بل ربما أقل، فلو مرضت البهيمة أو جرحت لخافوا على خسارتها، ولكن حياتها هي وأختها عندهم أقل من حياة الحيوان، آلمها كثيرًا مرض عزيزة، كانت تجلس برضيعها بجانب سريرها وكأنها تحتمي بها، بقيت تلك الليالي تبكي وتتضرع إلى ربها أن ينجيهم مما هم فيه، كلما فتحت عزيزة عينيها استمعت لدعاء فاطمة الناحب، وهي تهز صغيرها على فخدها ليبقى نائمًا، أغلقت عزيزة عينيها يأسًا وحسرة، لكن فاطمة لم تكن قد فقدت الأمل بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الثالث جاءت بثينة لزيارة آشيا التي اختفت من المدرسة، صعقت حين قادتها فاطمة إلى تلك الزريبة، صرخت حين رأت آشيا وجروحها، لم تصدق أن هذا يمكن أن يحدث لأقرب صديقة لها، انهارت على الأرض إلى جانبها، مستفهمة، وحين حكت لها آشيا ما حصل قالت:

- لها الدرجة يا آشيا مابتقدري تتحملي الحياة هون؟.... لها الدرجة مافيكِ تقبلي الزواج؟ هلأ كل القرية عم تحكي عنك.

- ماباقبل أتزوج ها النذل حتى لو ضليت أصرخ طول العرس قدام الكل أني ما بدي ياه..... ماراح يقدروا يجبروني عليه.

- راح يضربوكِ ويعذبوكِ أكثر... انت مو ناقصة الله يخليكِ.

- خلاص يا بثينة ماعاد عندي شي أخسره.... شو رح يسوي يعني رح يقتلني؟ أو يقطع لحمي؟ ماعندي مشكلة.

حدقت فيها بثينة وعقلها يدور في دوامات ثم قالت ببطء:

- شوه جسمك يا آشيا... هاد مو إنسان.... اللي عم يصير هون جريمة... لا إنسانية... بتعرفي انت لو ببلد أجنبي كان زمانهم علقوا عمك وذبحوه.

- أصلًا لو كنت بأمريكا ماكان صار لي شي.... ماراح أسامح والدي أبدًا على كل اللي صار لي بسببه.

وهنا شهقت بثينة وقالت:

- اسمعي.... انت بالأصل مواطنة أمريكية.... إذا بعثنا شكوى لأمريكا ممكن يوقفوا كل اللي عم يصير إلك... هلأ هو اعتدى عليكِ بالضرب وهاي عقوبتها كبيرة بأمريكا...

- كيف يعني نبلغ أمريكا... أبعث رسالة باسم رئيس الولايات المتحدة مثلا!

نهضت بثينة من شدة تحمسها وقالت:

- أنا باروح للسفارة الأمريكية بدمشق... باحكيلن الوضع كاملًا أكيد راح يعملوا شي... اسمعي.. وين هو ورقك وورق أختك اللي يثبت أنك مواطنة أمريكية.

- اسألي فاطمة أكيد هي بتعرف... بتظنى راح يسوا شي فعلًا يا بثينة؟

- ماراح انطر ولا ثانية... انا ما باتخلى عنك منوب... راح روح هلأ.

وركضت بثينة إلى غرفة فاطمة، كانت محروسة تجلس هناك، أشارت بثينة إلى فاطمة فتركت الصبي على السرير بجوار محروسة، واقتربت منها مستفهمة، همست لها بأنها تحتاج الورق الخاص بشهادات ميلادهم وجنسيتهم الأمريكية، قالت لها بغموض:

- راح ينقذوكم من اللي عم يصير إلكن... الله يخليكِ يا فاطمة لازم تعطيني ها الأوراق هلأ.

ارتعد جسد فاطمة، ونظرت خلفها فوجدت محروسة تراقبهم بعيني صقر، شعرت أنها الفرصة الوحيدة للنجاة فصرخت:

- شو عم تقولي؟... يا الله.... أختي راح تموت من البرد.... كله من عمي محمود الله لا يوفقه حابسها وهي بها الحالة.... راح جيبلك احرامات صوفية من الغرفة التانية.

ثم خرجت مسرعة، حاولت مغافلة بنات عمتها بدخولها غرفتها أولًا، أخرجت رأسها وتطلعت إلى الطريق فوجدته خاليًا، دخلت غرفة عمها محمد القديمة التي تنام بها محروسة، اطمأنت أنها تركت الرضيع معها في الغرفة الأخرى، وقفت تتطلع إلى الحائط، المظروف المغلق، لا يزال هناك مشنوقا على الحائط كما هو حالهم هم الثلاثة منذ عودتهم من أمريكا، هل من المعقول أن يرجعوا إليها بعد كل هذا الوقت وبتلك السهولة؟ سحبته ببطء وخرجت من الباب، وضعته تحت ملابسها وربطته بحزام قماشي على بطنها، نادت بثينة لتساعدها في حمل الأغطية حتى تصل إلى آشيا، خرجتا معًا تحملان بعض الأغطية الصوفية الرمادية الخشنة، وفي تلك اللحظات مررت فاطمة المظروف إلى يد بثينة من تحت الأغطية، وصلوا إلى الركن الذي تنام فيه آشيا وغطوها بالأغطية وهم يلاحظون مراقبة محروسة لهن من النافذة، طوت بثينة المظروف ودسته في حقيبتها ورحلت حاملة معها كل أمانيهن بالخلاص.

طال الليل بهم قلقًا وأملا وترقبًا حتى جاءهم الصباح ناعسًا بطيئًا، انتظروا موعدًا لم يتفقوا عليه، لكنهم كانوا متأكدين من حضور بثينة، في ذلك اليوم كان العم محمود نفسه باقيا في المنزل دون رغبة منه في الذهاب للعمل، كأن محروسة قد حذرته، فقرر البقاء ليكون كل شيء أمام عينيه، شعرت فاطمة بالتحسر والقلق الشديد، ولم يكن يشغلها سوى بكاء رضيعها، رأت بثينة قادمة، فانقبض قلبها خوفًا مما يمكن أن يفعله محمود، تطلع إليها بريبة واستفهام لكنها اقتربت منه بثبات وهدوء وثقة وتوقفت أمامه قائلة:

- كيفك عمو... ان شاء الله منيح... جيت حتى زور آشيا... حالتها كانت سيئة.... كيفها اليوم؟

- زرتيها امبارح.. شو قصتك كل يوم راح تزعجينا؟

عضت فاطمة على شفتيها من قلة تهذيب عمها، وخافت على مشاعر بثينة، لكن الفتاة ضحكت وكأنه يمزح وقالت:

- إن شاء الله مافي إزعاج عمو.. هاي رفيقة عمري وإذا ماوقفت جنبها بها الأيام ايمتا رح اوقف جنبها..... الله يخليك ماتقسى عليها.... أوقات بتشرد بس هي بنت طيبة.... وكمان أكرم طيب وراح تحبو يوم تتزوجو... أنا اشتريت كريم مطهر لآشيا مشان جروحها.... بأروح أساعدها تحطه ماباتأخر...

بتسمحلي؟

تطلع إليها محمود بريبة، ولكن حينٍ نظر إلى نوع الكريم الذي في يدها أدرك أنها صادقة، أعطاها المفتاح، وظل واقفًا عند باب المنزل يتطلع إلى بثينة وهي تسير نحو زنزانة آشيا، دخلت وجلست على ركبتها بجوار آشيا، رفعت طرف ثوبها ففاحت رائحة الدم من جروح ظهرها، كانت بثينة تتحدث بهمس وكأنها مراقبة وتقول:

- يوم الأحد بالمسا راح تيجي سيارة كبيرة سودا تاخدكن من هون... راح ترجعي على أمريكا يا آشيا.

- شووو؟.... شو حكيتي هلأ؟

- وطي صوتك... أنا رحت السفارة حاكيتهن.... بعرف أنه يوم عرسك هو الإثنين لهيك آخر موعد هو يوم الأحد... المسا راح يبعتوا سيارة رح تقف عند أول القرية.... راح تيجي قبل الفجر بساعة.... هاد تليفونى خليه معك.

أفلتت بثينة هاتفها، فسقط ضمن ثنايا ملابس آشيا، كانت آشيا ترتجف وهي لا تصدق ما تسمع بينما أكملت بثينة:

- انتو مواطنين أمريكيين... هيك حكالي السفير بنفسه.... ولما عرف بالضرب والتعذيب ياللي عم تتعرضوله وأنهم بيزوجكن بها الطريقة وها السن قرر أنه لازم ترجعوا على أمريكا.... في رقم موظف بالسفارة الأمريكية اسمه هاشم.... سجلت رقمه على الهاتف هون... بيتصل فيكن يوم توصل السيارة... ساعتها بتطلعوا فورًا من البيت وتركضوا على أول طريق القرية... هو بياخدكن على أمريكا.... لا تنسي تتصلي فيه لو صار معك أي مشكلة هو بيقدر يتصرف... ماتنسي اسمه هاشم السامي.

- بنروح على أمريكا؟.... بياخدونا على أمريكا؟....

معقول ها الحكي؟ ماعم صدق... أكيد باحلم.

لهثت آشيا وهي تشعر أن أنفاسها تتلاحق، دون أن تقدر على الاحتفاظ بالأكسجين الكافي لها، كانت تتحدث بسرعة دون أن تشعر بما تقوله، لكن بثينة نظرت لها فجأة بابتسامة وعانقتها بحنان وقالت لها هامسة في أذنها:

- راح اشتقلك كتير يا أعز رفيقة.... ماتنسي تتواصلي معي لما توصلي أمريكا.... ديري بالك ع حالك.

لحظتها فقط أدركت آشيا ما تقوله بثينة، أدركت أنها فعلا مسافرة، أدركت أن حياتها أخيرًا على وشك أن تتغير، أدركت أن الله استجاب لدعائها، أمسكت بيدي بثينة وهي تبكي فرحة، ثم ضمتها لشفتيها وقبلتها بعنف قلب سعيد ومتألم، فدمعت عينا بثينة وربتت كتفها، رحلت وتركت لها الهاتف، ذهبت إلى فاطمة تعطيها التعليمات اللازمة لاستعمال هذا الكريم على جراح آشيا، ثم أخبرتها أن تذهب لتحادث آشيا لأنها تحتاجها، وقبضت على يد فاطمة بفرح قبل أن ترحل تاركة إياها في حيرة، لم يلحظ أحد اختفاء المظروف المعلق على حائط غرفة المرحوم محمد، لم يلحظ محمود وهو يتطلع إلى آشيا، ملامحها الهادئة المرتاحة بأمان لا يتناسب مع الوضع الذي صارت فيه، لم يلاحظ أن نفس هذه السكينة تسللت إلى ملامح فاطمة بعد أن حادثت أختها، بل إنه استجاب لطلب أمه عزيزة، حين نادته بصوت مبحوح تحلفه أن يُخرج آشيا من سجنها لتبقى بقربها في آخر يومين قبل زفافها فهي بحاجة إليها، كأن كل الأبواب فُتحت أمام آشيا، فخرجت من سجنها ونامت جوار جدتها، تحتضنها بحب حقيقي وشوق سيبقى بداخلها لأيام قادمة، تطلعت لجدتها وقبلت خديها الشاحبين، كانت حالتها تسوء، ولكن مرضها لم يمنعها من أن تحنو على آشيا بكلمات صافية رقيقة، وحين سطا الليل على العقول فناموا، جاءها اتصال من رقم مسجل باسمه هاشم السامي، كان يدرك وضعهم، واتصل في وقت يتناسب معها جدًا، ردت عليه بصوت يرتجف فقال لها:

- مرحبا آنسة آشيا.... حبيت بس ذكرك بموعد الغد.... راح نيجي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.... اسمعي لا تحملي معك أي شيء نحنا راح نتكفل بكل ما تحتاجوه..... أهم شيء يكون خروجكن آمن وسريع... الأشياء بتتعوض لكن البشر لا..... راح كون بالسيارة في انتظاركن... ماراح أرجع دمشق بدونكن.... ماتخافي منوب.... كل شيء راح يصير متل ما بدنا بإذن الله.

ثم أغلق الخط، وقلب آشيا يدق بجنون، حتى خافت أن يوقظهم بصوته، هل من المعقول أن تصدق أن ليلة واحدة تفصلهم عن الفرج؟ هل من المعقول أن الزفاف الذي يحضرون له سيقام بلا عروس، لن يجدوها، هل سيتركوها ترحل حقًا؟ ماذا لو أمسكوا بها قبل رحيلها كما فعلوا في هروبها ذاك؟ كانت خائفة قلقة لا تدري كيف ستخرج من هذا المكان بسلام، لكنها عزمت على أن تبذل كل مافي وسعها للخروج، فهي مسألة حياة أو موت.

مر اليوم التالي بسرعة البرق، الأختان تتطلعان في عيون بعضهما بصمت، محروسة تحضر للزفاف، وتشغل الفتيات بتنظيف المنزل وصنع الأصناف المختلفة، انشغل الجميع عنهم، وحدها عزيزة التي كانت تئن في صمت، وهي

تتطلع إلى وجه آشيا، هي ربتها، وهي وحدها تعلم ما يقوله كل خط في ملامح وجهها، أدركت أن هناك شيئًا ما، خطة ما، حل ما، فكانت تمسك بيديها وهي تنظر لها متوسلة، لم تقل شيئًا، ولم يبحن لها بشيء، ولكن شعورًا خفيًا جمعهم، جاءهم ظلام الليل فآنسوا له، نام الجميع مرهقين، ليستعدوا ليوم الغد، نهضت آشيا من سرير عزيزة، سارت على أطراف أصابعها نحو غرفة فاطمة، حملت فاطمة رضيعها النائم ولفته بالأغطية، حتى لا يطاله البرد، ثم ضمته إليها، رأت آشيا تفتح الدولاب لتحضر شيئًا فذكرتها:

- مافي داعي ناخد شي... انت بنفسك قلتي....

- أدري... بس هاد راح اخده.

رأتها فاطمة تُخرج الصندوق الأزرق الذي اشترته آشيا من دمشق دون سبب واضح، أخذته في يدها، نظرت الأختان إلى بعضهما، وتحادثتا دون كلمات، جاءهم صوت الهاتف الخافت، ردت آشيا فقال:

- نحنا ناطرينكن... يلا اطلعوا هلأ.

أمالت آشيا الباب ببطء حتى لا يصدر أي صوت، سارت بممرات المنزل متوجسة، أمسكت فاطمة بطفلها وهي تترجاه بعينيها ألا يصدر أي صوت، اندهشت كيف هداه الله فاستسلم لنوم عميق، بينما تتحرك به، التفوا ليصلوا إلى باب المنزل، لكن شبح شخص وقف في نهاية الممر ورآهم، شهقوا ملتاعين، لكن آشيا هدأت قائلة:

- هاي ستي!

وقفت عزيزة تطالع الفتاتين متعكزة على خشب الباب، رأتهم وأدركت كل شيء، حاولت أن تقول شيئًا، لكن آشيا أشارت إليها بالسكوت، اقتربت منها، قبلتها دون أن تحادثها، انسالت دموع عزيزة حين أدركت أنها لحظة الفراق، أمسكت يد آشيا وهي تبكي مرتجفة، فتركت آشيا في يدها هاتف بثينة، نظرت له عزيزة باستفهام، فتطلعت لها آشيا بابتسامة وكأنها تقول لها «اطمئني سنتحدث إليك دائمًا عبر هذا الهاتف!» تركتها هناك واقفة ورحلت وهي تنظر خلفها لتلقي نظرة أخيرة على جدتها التي لم تعرف الحنان الحقيقي إلا منها، اعتصر قلبها ألما حتى مزق أحشاءها وهي تسير مع أختها، أخذوا الطريق ركضًا كأن سفاحين يلاحقونهما، ركضت آشيا ولم تلحقها دموعها التي كانت تتطاير في الهواء وتسقط على الأرض ترسم الطريق الذي رحلت منه، لم تكترث لكل تلك الآلام التي داهمتها من جروحها، بدأ الصغير يبكي إثر الاهتزازات من ركض أمه، لكن هذا لم يبطئهم، كانت السيارة في انتظارهم، وهاشم يقف هناك يتطلع إليهم، وما إن التقتهم عيناه حتى أشار للسائق فجهز السيارة، فتح لهن الباب فاكتمل ركضهم بتلك القفزة التي قفزوها داخل السيارة، سرعان ما أغلق هاشم الباب وركب إلى جانب السائق، وانطلقت السيارة بأقصى سرعة، التفت إليهم هاشم وأعطاهم بعض الأغطية، فتدثروا وكأنهم قد خرجوا للتو من جبل من الصقيع، كانت أطرافهم قد تثلجت خوفًا ورعبًا، وضعت آشيا الغطاء على جسدها كاملا وغطت وجهها، لم تكن تريد مواجهة ما حصل وما

سيحصل، فقط كانت تريد الخروج من هنا بأي ثمن، أغلقت عينيها مستسلمة وتراخت كل عضلاتها.

كأن يديك المكان الوحيد

كأن يديك بلد

آه من وطن في جسد

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

النوم دهليز سري للهروب، تحب آشيا الاختباء فيه، نومها المزمن دوما بلا أحلام، لكن هذه المرة ومع اهتزازات السيارة التي تقلهم، وبكاء وليد أختها، وحديث السائق مع هاشم، وخوفها، تداخل كل شيء ليصنع عالمًا كابوسيًا تسير فيه، طرقات ليلية لا نهاية لها سوى نقطة البداية، أفواه تصرخ في الأركان المظلمة، محمود عمها يطبق بأصابعه على رقبتها ويصيح فيها أن تموت، وقطرات عرقه تتناثر على وجهها، بينما تبرز عروقه من شدة الغيظ، تدفعه بكلتا يديها وقدميها ولكنه يسحبها حيث العُرس سحبًا من فروة رأسها، أكرم يقف هناك بثوبه القذر ذي الرائحة الكريهة، ينتظرها وهو يضحك ضحكًا هستيريا، تختنق وتشعر بصوت أختها فاطمة يأتي من بعيد، يسحبها الصوت من السرداب المظلم للضوء الساطع الذي يعميها عن التفاصيل، فتحت عينيها ببطء فوجدت الغطاء يحيط بنصف وجهها، تحدق فيها فاطمة بذعر، وتسألها عن حالها، حاولت أن تنطق لكن سكاكين طعنت ظهرها، فلم تستطع التنفس، تذكرت ضرب عمها لها، تذكرت السوط وهو يفصل خلاياها عن بعضها، فيحدث شقوقًا حمراء حارقة كأحزمة النار، تذكرت بثينة وابتسامتها المطمئنة الواثقة، تجمعت كل صور الأيام السابقة وتعلقت على حائط روحها إلى جانب بعضها بعضا، مُحدِثة ابتسامة أمل، فهمت أنها الآن في السيارة التي تسير بها نحو بوابة اللاعودة، كأن السيارة تسير بها على حافة القدر بطريق يتكسر خلفها إن عادت إليه تسقط في اللاأمل، حاولت أن تعتدل وهي تقاوم ألم ظهرها، ثم مالت لتنام، لم تدر كم من الساعات نامت، وحين رفعت رأسها لتنظر، كان الطريق غير مألوف بالمرة، ممتد وكأن لا نهاية له، التفت إليها هاشم وقال مبتسمًا:

- صباحك حلو يا آنسة... كيفك هلأ؟... باتمنى تكوني نمتي منيح.

- تسلم... وينا؟

- نحنا أخذنا طريق الزبداني لحتى نطلع ع لبنان.. شي 50 كيلومتر حتى بيروت.. مو كتير.

- معقول؟؟... لبنان؟؟

- شي نص ساعة بنوصل الحدود... معي أوراقكن وجوازاتكن واستمارة السيارة... بندفع التأمين وبنكون عن قريب في مطار لبنان... مابيتوقعوا وبنكون بأمان في لبنان.

ثم جلب علبًا مغلفة من كيس كبير أمامه، وأعطى اثنتين لآشيا واثنتين لفاطمة، بدا طعامًا شهيًا، فتح هو الآخر علبة وفتح أمام السائق علبة، فكان السائق الأربعيني يختطف لقمة تلو الأخرى سريعًا، ويمسك المقود بيده الأخرى، حتى يتعلق فتات الطعام بشاربه الكثيف لكنه لم يبال بهذا، أما هاشم فكان شابًا صغير السن مشرق الوجه على الدوام، وكأنه لا مشاكل في هذا الكون لا يمكن حلها في قاموسه السحري، كانت المرة الأولى التي تتطلع فيها إليه بوضوح، وتراقب تفاصيله من المرآة الصغيرة الملتصقة بنافذته، والتي تظهر هي في طرفها، عيناه الدقيقتان

وشعره الكثيف بالغ السواد وشاربه الذي يرسم مستطيلًا حول فمه من نهاية أنفه وحتى ذقنه، جسده الفارع يرتدي بدلة رسمية سوداء شديدة الأناقة، لا تتناسب مع ملابس جميع من في السيارة القديمة التي بهتت ألوانها مقارنة بملابسه، كان واثقًا مرتاح البال يحاول تسليتهم طوال الطريق بحكايات مختلفة عجيبة عن سفره لكل أنحاء العالم، علمت منه أنه مثلهم سوري يحمل الجنسية الأمريكية، ويعمل في إدارة السفارة الأمريكية في سوريا، ينتقل بين دمشق وأمريكا، لم تفتقدها فاطمة في أثناء نومها، لأنها كانت مشغولة بحكايات هاشم التي لا تنتهي.

كأنه يمسك بيدها ويسير بها نحو عوالم عجيبة وتفاصيل شعوب وعادات وحكايات أغرب من الخيال، كان يدرك صعوبة الموقف الذي هم فيه، وأثره على نفسيتهم المحطمة، أدرك كيف يطيل الخوف الساعات القصيرة في السفر، فتمتد أذيالها إلى ما لا نهاية، شعر أن معه فتاتين ممزقتي الماضي والحاضر والمستقبل، فبذل كل جهده لصرف انتباههم عن أي مشكلات، ذكر لهم كيف أنها معجزة استطاعته إنهاء أوراقهم كاملة في بضعة أيام لتدخل الحكومة الأمريكية في الأمر، ثم ذكرهم بابتسامة مشرقة بحظهم السعيد لأنهم مواطنون أمريكيون، مما يجعل كل شيء سهلا، وغير مسموح لأي كائن مهما كان استغلالهم وتدمير حياتهم، حتى بلغ لطفه الشديد أن حمل خالد الصغير على فخذه، بينما تتناول أمه طعامها، ظل يلاعبه ويهدهده بطريقة خبير، فتطلع إليه الصبي بهدوء وثبت عينيه على ملامحه كأنه يألفه، حتى إن فاطمة أرخت عينيها ولم تعلقهما بالصغير، كما كانت تفعل كلما حمله شخص غيرها، كانت آشيا تقضم طعامها دون أن تستوعب كل شيء حولها، تأكل ببطء، وتمضغ ببطء، وتتطلع هناك إلى ما وراء الطريق، كان هادئًا مريحا للعين، والحديث دافئ مطمئن، وحده الخوف محبوس في عمق روحها، مكبوت يصدر ضجيجًا كبيرًا، يتمثل في جرحها المؤلم، لفت ذراعها لتلمسه دون وعي، لم يكن يؤلمها بهذا الشكل في الأيام التي قضتها في الزريبة، ربما لأنها لم تكن تتحرك، ولكن ركضها حتى ركوبها السيارة أرهقها وأدمى جروحها، شعر هاشم بصمتها المتألم فقال لها:

- ماتخافي آنسة آشيا أول ما بنوصل على بيروت راح نهتم بجرحك... اليوم كله إلنا لأنه طيارتنا إلى باتون روج بتكون بكرة الصبح.

- راح نقضي الليلة في بيروت؟... مو هاي خطر؟... ممكن يوصلوا إلنا ويرجعونا.

فتطلع إليها هاشم بجدية وحزن قائلًا:

- انسي ها العيلة كلاتها وارميها ورا ضهرك... انت مسافرة على أمريكا بكرة وماحدا بيمس شعرة منك لحد ها الوقت..... كله بتوفيق الله... وأنا بضل معكن وباسافر معكن وماحدا بيقرب منكن بحضوري.

التقت عينا آشيا بفاطمة أختها التي ابتسمت مطمئنة إياها، كان خالد الصغير هادئًا جدًا، تلتف أصابع هاشم حول وجهه، فلف يده الصغيرة حول إبهام هاشم، لم تعتد آشيا على هذا الكم من الهدوء والأمان، فكانت الريبة تلاحقها في كل مكان، ابتسمت له شاكرة، فخلع جديته وعاد للحديث عن فرنسا والشعب الفرنسي وملاحظاته عنه،

لم تخلع فاطمة عينيها عنه، كانت مأخوذة بوسامته ورجولته وشهامته، عن الطريق والمغامرة المُقدِمة عليها، حتى إنها نادرًا ما تطلعت إلى الطريق من النافذة، أما السائق فكان يتبادل معهم الكلام في بعض الأحيان، لكنه اكتفى معظم الوقت بالاستماع والرد بتغيير تعبير وجهه، بما يتناسب مع محتوى الكلام، سألهم هاشم عن بثينة، فذكرت له آشيا كم هي صديقة مقربة لها فرد قائلا:

- بنت صالحة وشجاعة.... حكت لنا كل شي وبعثت لنا عنوانكن وجريت علينا بملفكن كتير ساعدتنا بالأوراق.... باتذكر يوم استدعاني السفير ع مكتبه ولقيتها واقفة متحفزة والدموع متجمعة بعيونها... بلشت تحكي من جديد إلي بدون تفاصيل ومن الاهتمام البالغ اللي عطاها إياه السفير عرفت أنكن في خلال أيام قليلة بترجعو ع أمريكا.... وكنت سعيد كتير أني راح شاركن ها الرحلة.... بعدين بلشنا نحط خطة للموضوع وحكينا لبثينة أنه أفضل طريقة تعطيكن هاتف... وقتها خبرتنا أنها بتعطيكن هاتفها.... وصتني كتير فيكن الله يوفقها.

شعرت آشيا بالفخر وبالامتنان، تذكرت لحظة معانقتها لبثينة مودعة، سعادتها، وعدم تصديقها للخبر، لم يتح لها سبلًا كافية لشكرها على كل ما تكبدته من عناء لأجل إنقاذهم، لا بد وأنها لم تذهب لمدرستها حتى تجد السفير في مقر السفارة، لا بدَ أنها سافرت وعادت إليهم لتأخذ الظرف ومن ثم سافرت من جديد، وهكذا، دواليك، في أيام قليلة دون أن ترتاح أو تضيع الوقت، لأنهم كانوا جميعًا محددين بتوقيت زفاف آشيا، هو اليوم تحديدًا، يوم لن تنساه، وتاريخ لن تنساه، الثامن من آب، شعرت حقًا أنه زفافها، لكن عريسها الحرية وليس أكرم، قطعًا أكثر وسامة منه مئات المرات، ضحكت بصوت عالٍ حين جاءها هذا الخاطر، وأمسكت بكف أختها، فبادلتها الضحك، وكأنها تعلم لماذا تضحك، شاركهم هاشم والسائق الضحك، صارت الفرحة أخيرًا مستساغة.

لم يمض وقت طويل حتى وصلوا الحدود، قضوا بعض الوقت حتى يسمحوا لهم بالمرور تدقيقًا في الأوراق ولمعاينة السيارة والتأمين، سقط قلب آشيا مختبئًا بين قدميها، وجد الخوف متنفسًا في ملامح وجهها، والضباط على الحدود يحدقون بها، لباقة هاشم غمرت الجميع ولم يشعروا بأي توتر، سار الوقت راكبًا سلحفاة، يكاد مع كل دقة عقرب أن يخطف قلوبهم معها، كانت آشيا تتطلع حولها برعب، ممسكة ذراع فاطمة الملتف حول رضيعها، وكأنهم ارتكبوا جريمة وهم هاربون من العدالة، تقلقهم صافرة أي سيارة شرطة، يتطلعون في كل ثانية إلى هاشم يستجدونه الرحيل والسائق كذلك، ما إن ركب الرجلان وشغل السائق المحرك وعبر الحدود، حتى شعرت آشيا أن عضلاتها المتشنجة تؤلمها كثيرًا فأرختها، طمأنهم هاشم أن كل شيء على ما يرام، وأنهم قد وصلوا لبنان بسلام.

تدلت رأس آشيا مستندة على كتف فاطمة، ما بينهم الأغطية وبقايا الطعام، كلما مرت دقيقة صمت، حتى أسرع هاشم بتقديم الطعام لهم، وكأنها وظيفته كمرافق، كانت فاطمة تلف صدرها بالغطاء وهي ترضع خالد، فلم يكن هناك مجال ليتوقفوا بالسيارة وينظروا بعيدًا، بينما هي ترضعه كل نصف ساعة تقريبا، غفلت آشيا رغم مقاومتها للنوم، ولكن الزحام ناداها، استيقظت لتجد نفسها تسير في شوارع بيروت،

لم تشعر أنها غادرت سوريا قط، شوارع بيروت تحمل عبق الشام، ملامح الناس مماثلة لملامح أهل الشام، خليط من الجنسيات والألوان والجذور في وجوههم، الشوارع النظيفة المكسوة بالأشجار، الألفة والطيبة والتعاون بلا مقابل الخاص بأهل بيروت، كلما مروا بشارع وسألوا عن الاتجاه وجدوا جميع المارة يتسابقون ليصفوا لهم المكان المطلوب، مرت عينا آشيا على العديد من الشوارع والأماكن والمباني المتراصة ذات الألوان الباهتة، ولم تستطع استيعاب كل ما قاله هاشم، عن أي شارع يمرون به، كان يعرف كل شيء وكأنه عاش في بيروت عمرًا في ثنايا عمره، كانت وجهتهم الأولى مشفى من أجل الاطمئنان على جرح آشيا، قال هاشم مطمئنًا إياهم إن بيروت معروفة بقوة الطب فيها وتنوع وتوفر عيادتها ومستوصفاتها ومشافيها، رافقها هاشم للتغيير على جرحها ورعايته، كانت المستشفى التي دخلتها آشيا نظيفة هادئة، جميع العاملين بها في منتهى الذوق والتعاون، ظلت تفكر والطبيب يفحصها ويلف الضمادات بعد وضع الأدوية على جرح ظهرها، وهو يسأل متضايقًا عن سبب الجرح، فكرت آشيا أنها قد غادرت سوريا، رغم ذلك لا تزال تشعر أنها في نفس المجال الذي يضمها وأهلها، وأنهم من الممكن في أي لحظة أن يلتقطوا ذبذبات خارجة منها، فيصلوا إليها، لم تكن لتستوعب شيئا إلا حين تجد نفسها في أمريكا.

مر الوقت بسرعة في المستشفى، ساعدها هاشم على ركوب السيارة من جديد، كان سعيدًا بدور المرافق السياحي، وأتقنه جيدًا، بينما يلف السائق بهم على معالم بيروت، دون أن يترك لهم الوقت ليدققوا في تفاصيلها، كان يريد الوصول بهم للفندق، لكن هاشم أصر أن يلقوا نظرة على روعة المدينة التي أطلق عليها اسم دار الجمال الرباني، تمهلت السيارة وهي تلف حول برج ساعة الحميدية باهت الاصفرار وسط بيروت التجاري التي تشبه ساعة بيج بن في لندن، تفصل المباني حولها طُرقا تشبه على الأرض رسمة النجمة، فرحت الفتاتان بالتطلع إلى المعمار الأوروبي الذي بنيت به المباني حول الساعة، وهو يلف بهم كان يذكر اسم كل رجل من أرجل النجمة، هذا شارع عبد الحميد كرامي، شيخ محمد الجسر، مي شو، سانت جورج وهكذا، رفعت آشيا رأسها لتتطلع لرأس الساعة، أسفلها شجرتان كبيرتان ذوات جذوع طويلة نحو الأعلى، وهي تقف منتصبة على ارتفاع يتجاوز العشرين مترًا، تذكرهم بأن الساعات التي يمضونها في شوارع بيروت هي بالأصل خارج حياتهم وخارج الزمن، لقد تركوا زمنهم خلفهم في سوريا، ولم يعد للأيام هدف أو معنى حتى لحظة الوصول.

لم يمر وقت طويل حتى وصلت بهم السيارة عبر أحد أرجل النجمة إلى منطقة رياض الصلح، حيث يقف هناك تمثال شامخ لهذا الرجل، الذي كان رئيسًا للوزراء بعد استقلال لبنان، ومات مقتولًا في سيارته، كانت الساحة باسمه، وتمثاله الرمادي يقف متمايلًا، وكأنه يضحك مستهزئًا بمن قتلوه مرتديا طربوشًا وبدلة، تركوه خلفهم وساروا من شارع باتريسيا هويك، ومنه إلى شارع شارل حلو منعطفين لشارع جورج حداد، حتى وصلوا إلى شارع الشهداء، خفف السائق سرعته وهو يشير إلى النصب التذكاري لشهداء أوائل القرن العشرين الذين شنقوا بفعل الأتراك، ستة

عشر شخصًا دفنوا في أرض هذه الساحة، كانت آشيا وفاطمة مذهولتين وهما تراقبان عيون التماثيل المتطلعة إلى السماء، متمايلة، ومنها اثنان واقفان يرفعان شعلة الحرية إلى السماء كأنهما يغنيان، تجيبهم نسمات الهواء التي تحرك خصلات شعرهم حتى تجمدت طائرة حرة، كما يرمز موتهم، أكملت السيارة طريقها في شارع أحمد مختار متجهة إلى شارع الأخطل الصغير، حتى وصلوا إلى فندق كورال بيتش، أقرب فندق إلى المطار الدولي اللبناني، مطار رفيق الحريري، يفصله عنه دقائق بالسيارة.

قسمت الحوائط الخارجية للفندق إلى صدر يرتدي خطوطًا بنية مع سوداء، ثم قسمان على الجانبين، وكأنهما ذراعان مرحبان باللون البيج الباهت، الغطاء المقبب فوق بوابة الفندق أعطى الفتاتين شعورًا بالفخامة، وقفوا لدقائق يتطلعون إليه وكأنهم على وشك الدخول إلى عالم آخر بالغ الترف، حين دخلت آشيا بهو الفندق وتطلعت إلى أثاثه الذي يتراوح بين الدرجات البنية المزخرفة بألوان تقاربها ممزوجة بالأحمر القاتم والقرمزي، لفت نفسها بذراعيها وشعرت وهي تسير بملابسها الريفية الرثة أن الخدم في الفندق يرتدون ما هو أفضل بكثير مما أتت به، كانت مرهقة البدن والأعصاب، ولكن ترف المكان جعلها تنسى ما فيها بالتطلع لتفاصيله، دقائق حتى صعدوا بهم إلى الغرفة المخصصة لهم، نظرت مذهولة من زجاج المصعد وهو يرتفع إلى حوض السباحة المستطيل في منتصف الفندق والذي تطل عليه نصف نوافذ غرف الفندق، كان فسيحًا، شعرت أن من يجلس على طرفه لا يستطيع رؤية آخره على مدى بصره، وكأنه يتطلع إلى بحرٍ بلا أمواج، أعطاهم هاشم مفتاح غرفتهم، وأشار إليهم على الغرفة المقابلة التيً تخصه، حتى يكون أقرب ما يكون إليهم، لافتًا نظرهم أنه سيظل معهم حتى يصل بهم إلى أمريكا، بابتسامة أدب جم طلب إليهم أن يرتاحوا وينسوا كل شيء، دخلوا غرفتهم المستطيلة التي كانت أحد أضلعها نافذة تطل على البحر من الجهة الأخرى المعاكسة لحوض السباحة، نافذة ممتدة من السقف إلى الأرض، وتم تزيينها بألوان ناعمة مع أثاث خشبي. وهي مُجهَزة بشاشة تليفزيون مسطحة وسريرين منفصلين تملؤه الوسائد الناعمة الملونة بالأحمر بما يتماشى مع لون الغطاء، صرخت فاطمة فرحة وهي تتطلع لنظافة الغرفة والكراسي المريحة وطبق الفاكهة الموضوع فوق الطاولة بعناية تفتح الشهية، ثم جرت نحو النافذة وهي تحمل طفلها بذراع، وتشد آشيا بالذراع الأخرى ليقفوا مبهورين بما تشاهده أعينهم، لم يشعروا كم ظلوا من الوقت في المكان حتى سمعوا طرقًا على باب غرفتهم، فتحت آشيا الباب فوجدت هاشم وفي يده بعض الأكياس التي سار بها داخلًا، ثم وضعها برفق على سرير كل واحدة منهن، ثم ابتسم وهو ينظر إليهم نظرة لم يفهموا معناها وقال بغموض:

- اتمنى يعجبكن ذوقي.

وانصرف مغلقًا الباب خلفه، كانت الأكياس تحمل فستانين لكل واحدة منهن، أحدهما للخروج به، والآخر للنوم فيه، وبعض الثياب لخالد، شعرت فاطمة بالحرارة ترتفع نحو خديها وهي تقول:

- هاي أول مرة يختارلي تيابي شب... ها الزلمة بدوا يطير عقولنا.

فضحكت آشيا وهي تمسك أطراف فستانها بأصابعها، وتلف به متباهية، قطعًا ما تعيشه أفضل آلاف المرات من أكثر أحلامها جموحًا، في كل مرة تقول لنفسها لن يكون هناك أجمل مما أعيشه، حتى تأتيها لحظة سعادة أخرى أكثر جمالًا وزهوا، حتى ظنت أنها حصلت على ما يكفي أعوامها القادمة من الحزن، وابتلعت حصتها كاملة، فما تبقى سوى حلاوة السعادة لتتذوقها، تناوبتا على الحمام، ثم شعرتا بالانتعاش وهن في ثيابهن الجديدة التي كانت قطعًا تناسب المكان، ثم جلستا تتناولان بعض الطعام الخفيف متقابلتين على الكراسي الجلدية قرمزية اللون، لم تكن فاطمة لتأكل قبل أن تسقي طفلها من لبنها، كان هادئًا مطمئنًا وكأن جسده يلتقط ذبذباتٍ تجعله يشعر بالراحة النفسية لوالدته، بعيدًا عن الشجار والضجيج الذي كان في بيتهم في دير مقرن، أمضيا الساعات صامتتين تراقبان البحر الذي اندمج مع السماء، فراح الخط الفاصل بينه وبينها بعد أن كساهما الليل، تبادلن كلامًا قلقًا من آن لآخر، رغم أنهن صرن في دولة أخرى فإن الخوف لا يعرف المسافات، كانت آشيا تشعر بأصابع عمها تتحرك في الهواء حولها لتنتظر اللحظة المناسبة فتطبق عليها لتخنقها، كان احتمال وصول عمهم إليهن قائمًا في أذهانهن، يعكر عليهن صفو اللحظة، تساءلت آشيا إن كان هذا الخوف غير المبرر سيبقى يرافقهن طوال عمرهن!

رغم أن الفندق يحمل ما لم تره إحداهن في حياتها من قبل من ترف وفخامة، فإن الخوف لم يتوار في دهاليز روحهم، اتصل بهم هاشم من غرفته يسألهم أن يرافقوه إلى العشاء في مطعم الفندق، كان أنيقًا كالمعتاد، يشير إليهن أن يسبقنه بخطوة، حديثه ساحر لا يتوقف ودون أن يبدو ثرثارًا، كانت رفقته مسلية تجعل الطعام أكثر لذة، أخبرهم وهو يداعب خالد الصغير أن طائرتهم ستكون في الصباح الباكر، وأنه سيتكفل بإيقاظهن، كانت شهيتهم كبيرة نظرًا لما مروا به في هذا اليوم العصيب مما جعله يتمهل في إعادتهن إلى غرفتهن، ظل ينصحهن بتذوق بعض الأطباق والوجبات اللبنانية الشهيرة، مثل المغمور والكلاج المقلي ذي النكهة البيروتية التي لا تماثلها نكهة، التبولة والمقلوبة والرز بالقريدس، والكثير من الأطعمة التي لم يلتقطوا أسماءها، ساروا سويًا ليرقبوا معالم الفندق تحت ضوء الكشافات التي تراقصت على مياه حوض السباحة، فرسمت وجوههن بطريقة ساحرة وهن يتطلعن إليه، تسلل الإرهاق إلى أجفانهن فصافحهن هاشم مودعًا عند باب غرفتهن، وما إن أغلقوا الباب دونه حتى انسحبوا في نوم هانئ بلا أحلام.

حملتهم السيارة في صمت عبر شارع حافظ الأسد نحو مطار رفيق الحريري، كانت آشيا تتوسل للساعات أن تمر بسرعة حتى تركب الطائرة، أصدرت قدماها صوتًا فوق أرضية المطار البيضاء النظيفة، ولكن صوت قدميها المتزامن مع دقات قلبها اختفى وسط أرجل المسافرين، كلٌ إلى وجهة مختلفة من جميع الجنسيات، ساروا بمحاذاة الخطوط الرمادية بالأرضية التي تدفعهم إلى الأمام، والتي يقابلها في الأعلى خط وهمي يربط مصابيح الإضاءة، كان الرخام باردًا، كما هو الخوف والترقب الذي يغلفهم، مضت الساعات بطيئة حتى مع حديث هاشم اللبق، لأنها النقطة الفاصلة بين خط السعادة والبؤس الذي أمضوا عمرهم فيه، راقبت آشيا

الوجوه حولها، وهي تشعر أنه بين كل ثانية والأخرى يمكن أن ترى شخصًا تعرفه، كلما حدقت بها عيون أكثر من ثانيتين شعرت بالخطر، وكأنهم سيركضون للقبض عليها، قلبها يلهث نابضًا وهي تحاول التشاغل بملاعبة خالد عن وساوسها، حتى استمعوا لنداء رحلتهم، ووقف هاشم يدعوهم للحاق به، أشرقت وجوه الفتيات، وما إن مروا إلى جسد الطائرة، وجلسوا على مقاعدهم، وهاشم يحرسهم على المقعد الثالث، فاصلًا الممر عنهم، حتى بدأوا في التصديق، صدقوا أنهن فعلا راحلات إلى أمريكا، وأنه ليس حلمًا ولا خيالًا، بدأت الطائرة تتحرك وتهز أجسامهم، بينما قلوبهم تهتز جزلًا، ترتفع بهم، فتبتعد عنهم الأرض التي كانوا مكبلين بها لسنوات، تطلعوا من النافذة إلى البيوت وهي تبتعد، والمخاوف وهي تصغر وتصغر، حتى تختفي، وإلى الماضي وهو يتلاشى، القارة بأكملها تلفظهم إلى المحيط الذي يفصلهم عن ذكريات طفولة رحيمة، لا تزال حية في مكان ما في عقولهم، تذوقوا طعم الفرح أخيرًا، وكم كان شهيًا سرمديًا حتى تمنوا لو أن الطائرة لا تهبط، وأن يبقوا محلقين بين سحب آمالهم ما تبقى من عمرهم، يضحكن وهن يعانقن بعضهن بعضا، نفضوا عنهن خيوط العنكبوت، قالتها آشيا بصوت مرتفع:

- أقسم أني مابارجع سوريا مرة تانية حتى لو جثة!

فضحك هاشم وفاطمة متفقين معها، طارت الساعات سريعًا مع فرحة الفتيات، كل شيء حولهم كان أجمل آلاف المرات مما هو عليه، حتى وجبة الطائرة بدت لهم ألذ وجبة يمكن أن يكونوا قد ذاقوها في حياتهم، كان خالد متألمًا من تبدلات الضغط الجوي، يصرخ بين حين وآخر، ولكنهم كانوا يهدهدونه مبتسمين، لأنه ما من شيء قادر على أن يفسد صفاء قلوبهم وفرحتها التي لا تضاهيها فرحة، كانت آشيا تمازح فاطمة وهن يتخيلن شعور عمهم محمود الآن، فلا بد أنه يتقافز حول نفسه من شدة الغضب، محروسة تشاركه العويل والسب فيهن، من رأسهن حتى أخماص أقدامهن، أكرم يضرب رأسه أسفًا على أحلامه التي ذهبت أدراج الريح، ملئوا الطائرة صخبًا وضحكًا وهن يتخيلن كل هذا، حتى التفت لهم الركاب وطلبوا منهم بعض الهدوء، كان هاشم يستمع لحكاياتهن بصبر، ويدقق في كل التفاصيل وكأنها تعنيه، ذهل من تاريخ قصتهم، وكيف صبروا كل هذا، وكيف تم بيعهن كجوار من أجل تحقيق أحلام أولاد عمهم، صمتت آشيا حين تذكرت عزيزة، فأسهبت فاطمة في وصفها، مع كل كلمة كان شعور آشيا بالذنب يطبق على صدرها، فترقرقت الدموع من عينيها، بنظرة واحدة من هاشم إليها، توقفت فاطمة عن الحديث، ثم التفتت لترى أختها تبكي طاردة ذبذبات الفرح، فضغطت على أصابعها مواسية، قالت آشيا باكية:

- اشتقت لستي من هلأ.... مو مصدقة أني ما رح شوفها مرة تانية... مابصدق أننا تركناها ورانا بهيك بطريقة وبدون ما نخبرها شي... وهي بها الحالة الصحية... واجعني قلبي عليها.

تدخل هاشم قائلا:

- طولي بالك آنسة آشيا.... سفركن مو نهاية الكون ومو معناته أنكن ماراح تقدروا تلتقو فيها مرة تانية.... إذا بدك ترجعي بأي وقت بتكون سهلة... بس هلأ سفركن كان ضروري مشان تخرجوا من ها الوضع الصعب... يوم تعتمدوا على حالكن بيصير كل شي تمام وبتكون مفاتيح حياتكن كلاتها في إيديكن تتصرفوا متل مابدكن.

مسحت آشيا دموعها وهي تشعر بالقوة والمسئولية بعد كلمات هاشم، وأغلقت عينيها لتنام حتى تسرع إلى اللحظة التي تنتظرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما لامست الطائرة أرض مطار ميتروبوليتن في باتون روج عاصمة ولاية لويزيانا، اهتز قلب آشيا مع الطائرة التي سبق توقفها عدة اهتزازات، وصار عليهم الهبوط منها، استنشقت آشيا رائحة هواء المدينة التي ولدت بها، وعاشت فيها أولى سنوات طفولتها، وقفت واستنشقت، ما إن تزفر حتى تعاود استنشاقها، وكأن هذه الرائحة ستهرب منها، كما هربت منها حريتها في السابق، أنعشتها، فلها أصل يعيش في ذاكرتها، دخلت المطار وتطلعت إليه، تغير بعض الشيء لكنها لا تزال تذكر ألوانه التي تضم الأبيض والرمادي، يمتزج بهما أخضر باهت، لا تستطيع أن تدري تحديدًا أهو لون ممزوج بهم في خلايا صنعهم، أم أنه انعكاس النباتات على الصفحات الرخامية في الحوائط والأرضيات، توقفت عند التفاصيل لتتذكر، الأعمدة الضخمة المقسمة بالألوان الوردي القاتم والأخضر والأبيض، الزجاج الذي يحيط دائريًا بالمطار البيضاوي، النخل يقف فاردًا جذوعه، وكأنه ينتظر أحد الركاب، النوافير في كل مكان كمركز دائرة تلفها الأشجار التي تلتف حولها المقاعد الجلدية، توقفت عند القبة الزجاجية نصف الدائرية وتطلعت إليها فوقها، كانت هذه القبة حية في ذاكرتها من قبل، حين جاء بهم والدهم إلى منفاهم في سوريا.

كان هاشم قد حسب حساب كل شيء، واتصل بتاكسي ليقلهم، وقفت سيارة التاكسي عند بوابة المطار، لاحظت آشيا وهي تركب الأعمدة البيضاء الضخمة على رأسها خصلات مبعثرة، مثل أعواد الكبريت تفرد نفسها في كل اتجاه، وتتمركز رؤوسها معًا في فوهة رأس العمود الواحد، بحيث يرتكز عليهم السقف الذي يغطي المدخل، ما إن سار التاكسي في شوارع المدينة حتى بدأت روح آشيا وأختها فاطمة تطير إلى كل ركن، كل مكان تحمل له في الذاكرة مقعدًا، الأشجار، البيوت المرتفع منها والضواحي التي تملك بيوتًا من طابق أو طابقين، الشوارع الهادئة والمحلات والناس وملابسهم وحركاتهم ولغتهم، تلك الألوان التي كادوا يتوهون في مشتقاتها، كل شيء مختلف عن سوريا، ولكن كل شيء في ذاكرتهم كما كان، أضفت ذكرياتهم الطفولية براءة على كل شارع في المدينة، مما جعلها مدينة ساحرة لا مثيل لها، هكذا صورتها في أذهانهم، حين رأوها بعين النضج لم تتغير كثيرًا صورتها، لأن فرحتهم بالعودة أبقت حماستهم كما هي لكل ما يخص المدينة.

في مبني خشبي منمق في شارع تشالز، كانت ليالي الفتاتين الأولى في المدينة، حيث كانت تنتظرهم شقة صغيرة من غرفة واحدة وحمام عند الطرف الجنوبي

للدور الثاني، كل مباني المدينة كانت خشبية لكثرة الأعاصير التي تمسح ما على أرضها من مساكن، ولأنه كان أرخص ثمنًا، ولأنها ولاية مائية، فكان القانون أن تكون كل البيوت خشبية، استقبلتهم صاحبة المكان بابتسامة صافية وتهذيب تتعرف إلى أسمائهم، عجوز زينتها شعرها الأبيض، حتى تجاعيدها منسقة في وجهها، وكأنها تصحو كل صباح لتمشطه بما يتماشى مع ملامحها، صوتها هادئ، ورغم عمرها الكبير فصحتها جيدة، قالت لهم بود إنها على استعداد لمساعدتهم في أي شيء، وما عليهم سوى طرق بابها الذي يقع أسفلهم بطابق، وحذرتهم كثيرًا من استعمال أي شيء يجلب الاشتعال، لأن المنازل في المدينة قابلة للاشتعال، كانت الغرفة صغيرة لكن نظيفة ومريحة، مؤثثة بشكل جيد، أفضل آلاف المرات من غرفتهم في بيت دير مقرن، ساعات السفر الطويلة أرهقتهم، فاستسلموا للنوم دون عشاء. تركهم هاشم على راحتهم، في الصباح التالي استيقظوا على اتصال منه، على الهاتف الذي سلمهم إياه قبل رحيله، أخبرهم أنه قادم لزيارتهم. حين نهضت آشيا وتطلعت حولها، حاولت التأكد مرارًا أن كل ما مرت به لم يكن مغامرة في خيالها المعذب، وإنما هي حقًا في أمريكا، تطلعت إلى الشارع خلال النافذة ورأت الأطفال في المبنى المقابل لهم، يصنعون دائرة بجلوسهم على الأرض، من الواضح أن أحد آباء هؤلاء الأطفال قد جمعهم ليعلمهم فن زراعة الورود في حديقته، كل منهم يحذو حذوه، فرحين وفخورين بقدراتهم في سنهم الصغيرة، ابتسمت آشيا رغمًا عنها للنقاء الذي اشتاقت إليه، ارتدت كل منهما ثوبها الوحيد، دلف هاشم إلى الغرفة في الموعد تمامًا، جلس وجلب معه الفطور، ورغم بقائه طويلًا في أمريكا فإن عاداته السورية في الذوقيات والود والكرم لم تتغير، التف الثلاثة حول المائدة الدائرية الصغيرة، شاركهم الطعام وهو يحكي لهم عن الورق الذي سعى لإنجازه، حتى يتسنى لهم إيجاد عمل بسهولة، ثم قال:

- طبعا آنسة آشيا في إمكانك تتابعي دراستك مارح يتأثر شي بسفرك وراح ينتظرك مستقبل كبير... وانت كمان مدام فاطمة فيكي تواصلي الدراسة من جديد متى ما تحبي, تطلعت الفتاتان لبعضهما في شغف وفرحة ثم قالت آشيا:

- والله لحد هلأ أوقات بأخاف يكون حلم.

- مافي بالأحلام شاب مزعج مثلي!!... ماتقلقي نحنا بالواقع.

ثم ضحك وشاركوه ضحكه فقال:

- وهلأ شو هي خطتكن يابنات؟

- بدي ندور عن أمي.

تطلعت إليها فاطمة بذهول، الأحداث السريعة في الأيام الماضية منذ هروب آشيا لم تترك لهم فرصة ليتناقشوا مع بعضهم بعضا بخصوص أي تفاصيل قادمة، فهن لا يذكرن حتى اسم أمهم الأخير قبل زواجها من والدهم، ولا يذكرن عنوان منزلهم، ولا حتى اسم المنطقة التي عاشوا فيها، هذا إذا بقيت أمهم في نفس المكان طوال هذه الأعوام، قال هاشم:

- توقعت رح تطلبي تقابلي أبوكى بالأول.

- بالعكس ما بدي شوفه ولا بدي أقابله مرة تانية بحياتي.... أنا واثقة أننا بنلاقي أمي... ما بعرف الطريقة بس حاسة أنها كتير قريبة منا.

- خلاص راح نبدأ بالبحث عن امرأة باسم ميريديث غسان.

فقالت فاطمة:

- بس أمي تطلقت من أبى بعد مارجعنا ع سورية.... مابيكون اسمها هيك هلأ.

- فينا نجرب بالأول بها الاسم..... أو بنبحث بالسجلات بالمقاطعة ووثائق الزواج.... راح باشر الموضوع من اليوم.

- فينا نساعدك؟

- بتساعدوني كتير لو ترتاحوا وتستقروا هون.... بدنا رعاية صحية مكثفة لآشيا وكمان رعاية إلك يا مدام فاطمة وللولد الصغير... فينا نوثق شهادة ميلاده وجنسيته.

- بدي يكون اسمه خالد.

- مو هو بالأصل اسمه خالد؟

- نحنا مانعرف بأي اسم سجله عمي... ماسألناه.... بس أكيد ما سماه خالد.... ماكان بيريده بها الاسم..... خالد موسى محمد غسان.... لو فيني امسح اسم والده من الوجود كنت باسويها.

- ع فكرة فيكي تغيري اسم الوالد بعد ما تتزوجي مرة تانية.

- بدي أتطلق بالأول.

- وفيكِ تتطلقي كمان... كله مسألة وقت وأوراق.... هون كل شي سهل وبسيط ومو محتاج جهد كبير... بدي تريحوا أعصابكن وما تفكروا في شي يزعجن لحتى نلاقي الوالدة عن قريب.

- أستاذ هاشم.

- حكيتلك نادیني هاشم.

- مابنعرف كيف نشكرك أنا وأختي آشيا على كل اللي سويته معنا.

- ولو..... هاد واجبي بعدين أنا ماساعدتكن مشان أنتو مواطنين أمريكين.... بالأصل ساعدتكن عشان أنتو مواطنين سورين لا تنسي هيك... صحيح الحياة هون أفضل مليون مرة... وصحيح أنكن عانيتو كتير بسوريا.... بس أنا متأكد بيجي يوم وترجعوا سوريا.

قالت آشيا وهي تتطلع إلى نقطة بعيدة، كأنها ترى سوريا من مكانها قائلة:

- أنا أقسمتلك أني مستحيل أرجع.

- سمعيني منيح سوريا فيها شي مو موجود بأي مكان.... متل التوابل اللي بتغير طعم الحياة لها سر ماحدا يعرفه..... هون كل شي نضيف وكأنه معلب... أوقات بفكر ممكن يبيعولنا حياة في علب ولحظات معلبة... ما أدري هاد رأيي الشخصي وشعوري... أنا واثق أنكن بترجعوا بيوم من الأيام.

رحل وتركهم لرحلة بحث لا تنتهي، صحيح أنهن امتلكن زمام الحرية، لكن تقاليد القرية لا تزال تجري في عروقهن، حتى صَعُب عليهن الخروج وحدهن لاستكشاف المكان، كن ينتظرن حضور هاشم كل بضعة أيام، حتى يأخذهن بسيارة عمله إلى بعض الحدائق والمتنزهات المنتشرة في المدينة، يجلس معهن على كرسي وسط الأشجار، ويحكي لهن آخر مستجدات البحث، بعد مرور عشرة أيام، بدأت جروح آشيا تتعافى، وأمضين أيامهن في تلقي بعض المساعدة لتقوية الإنجليزية لديهم، جاءهم هاشم مشرقًا وهو يحمل في يده ورقة مطبوعة بخط صغير ثم قال:

- لقينا اتنين بيحملوا اسم غسان بها المدينة... شاب اسمه هاري غسان... وامرأة اسمها ميريديث غسان.

قفزت الفتاتان تمسكان بكمه، تناثرت الحروف من أفواههن بلا وجهة، يسألنه ألف سؤال في الثانية، لم يتبين شيئًا من أسئلتهم، لكنه تبين الأمل والفرحة في ملامحهن، أشفق عليهن وقام بتهدئتهن بأن معه عنوان الاثنتين، وقال لهم ليرقب بركان فرحهم ينفجر:

- فينا نروح هلأ إذا بتريدوا.

فلم يجدهما أمامه، سبقتاه إلى السيارة ونسيتا إغلاق باب شقتهما، ضحك من عنفوانهن وتسرعهن، وقادهم لعنوان المرأة ميريديث غسان في شارع فلوريدا، لم يحتج لسؤال المارة عن العنوان، فقد كان بسيطًا وسهلا، كما أن نظام ترتيب المنازل يسهل على الجميع الوصول إلى العنوان المطلوب في ثوانٍ، وليس كما كان الأمر في قرية دير مقرن، من منازل متناثرة بلا عنوان ولا هوية، فتحت آشيا باب السيارة بأذرع ترتجف، وحملت فاطمة طفلها بين ذراعيها، أمسكت الفتاتان بأيدي بعضهما، هكذا علمتهم أمهم منذ الصغر حين يشعروا بالخوف، فإن تشابك أيديهن يمدهن بالقوة والمشاركة، أنهكهن الحنين لهذه اللحظة، كم أعدن تخيلها في أذهانهن وأضفن لها جملا حوارية مختلفة، خفن كثيرًا ألا تكون هي بالفعل، خفن أكثر أن تكون هي ولا تتعرف عليهن، فقد مضى أكثر من اثني عشر عامًا، لم يترك لهن الفضول لحظة ليفكرن أكثر، صعدن الدرج إلى الشقة المطلوبة، ولحق بهن هاشم، باب خشبي داكن مزين برسومات محفورة، يفصلهم عن أهم لحظة في حياتهم، استعملوا الجرس، سمعوا ردًا بالإنجليزية من الداخل، قلوبهم تسابقت دقًا، أصابعهم ذابت تمسكًا ببعضها بعضا، فتح الباب وظهرت شابة شقراء، ضاقت ملامحهم بالإحباط، مقابل ملامحها المندهشة المليئة بالأسئلة، عقدت اللحظة ألسنتهم، وراح فكرهم يسافر في كل الاتجاهات، تدارك هاشم الموقف وقال لها بالإنجليزية:

- هل السيدة ميريديث غسان هنا؟

- أجل.... لحظة واحدة سأناديها.

زفروا الإحباط واستنشقوا أملًا جديدًا، في لحظات كانت امرأة سمراء بدينة تعقص شعرها خلف رأسها، تقف أمامهم، وترتدي نظارة طبية، مرت على وجوههم سريعًا بعينيها ثم ركزت نظرها على هاشم لأنه بدا لها في كامل وعيه، بجدية وهدوء قالت:

- كيف لي أن أساعدكم؟

- هل أنت السيدة ميريديث غسان؟

- نعم هي أنا... هل جئتم من أجل الضرائب؟

- في الحقيقة جئناكِ في موضوع خاص.... هل يمكن أن نتكلم في الداخل.

- لا بأس.... تفضلوا.

دخل هاشم، ولكن الفتاتين لم تلحقا به، تسمرتا مكانهما، يحدقان في ملامح المرأة السمراء، أشار إليهما هاشم بالدخول، فلم يستجيبا، سار بعينيه ذهابًا وإيابًا بينهن وبين السيدة، ملامح آشيا صورة مصغرة لها، شعرت المرأة بوقوف الفتاتين عند الباب، فاستحثتهم بأدب على الدخول، لكن هاشم اختصر الحديث قائلًا:

- سيدة غسان.... هل هذا اسم عائلتك؟ لا يبدو اسمًا مألوفًا.

- في الحقيقة يخص زوجي السابق... احتفظت به....

ملامح أمها لم تتغير، فقط سمنت أكثر، ضاقت عيناها أكثر، لكنها قطعًا هي، انفجرت آشيا باكية وركضت نحو السيدة التي وقفت بثبات، فاحتضنتها، وظلت تبكي بحرقة، مع كل دمعة تهبط كانت الأم تشعر بها أكثر، وكأن هذه الدمعة تهبط في قلبها، أبعدتها قليلًا عنها وهي تشهق وتمعنت في ملامحها فقالت:

- أنا آشيا يا أمي... آشيا.

- آشيا؟ آشيا ابنتي؟ آشيا التي تخصني أنا؟ أوه.

تطلعت لهاشم وفاطمة، وقالت:

- فاطمة؟

فردت فاطمة ذراعيها تقصر المسافة بينها وبين أمها، احتضنت الأم ابنتيها دون أن تصدق عينيها، وهي تبكي وتبكي، وتقبل كل ما فيهما، وكأنهما مقدستان، أعياهم البكاء والجهد الذهني فانهاروا على الأريكة في الصالة، ولكن لم ينفصلوا، لا تزال تحتضنهم وكأنهم سيختفون، كيف تمر الأيام الأصعب سريعًا وتأتي اللحظات الأبعد بهذه السرعة والبساطة، وكأن التعقيد يعشش في عقولنا البشرية، مشهد لن تنساه أي واحدة منهن، لهذا المزيج من المشاعر المتناقضة التي لم يختبروا مثلها في حياتهم، كم عاشوا بعيدًا عن أمهم، وكم هي قريبة منهم الآن، وكيف مضت هذه السنين، وكيف جاءت هذه اللحظة، وكيف يمكن أن تعبر الكلمات أو الدموع عن ما بداخلهم الآن، نطقت ميريديث أخيرًا:

- لسنوات لم أفقد إيماني أن ربي سيعيدكم إلي سالمين.... احتفظت باسمي حتى بعد الطلاق لأني كنت واثقة أنكم ستجدوني إن لم أستطع إيجادكم.

وضعت كفيها تحت ذقن كل منهما وقالت:

- في الصحو لم تفت لحظة دون أن أفكر بكم.... وفي المساء كنت أحلم بهذه اللحظة التي تجمعنا.... يا إلهي أنتم معي.... بناتي بين ذراعي... سأصلي شكرًا لك يا رب.... كيف أتيتم إلى هنا؟

نظرن بتلقائية إلى هاشم، ففهمت ميريديث وقالت له:

- انت جلبت بناتي إلي.... أعدتهن وأطفأت نار قلبي التي بقيت تحرقني كل هذه السنوات... سأصلي لربي كل يوم من أجلك.... أنا عاجزة عن شكرك.

ثم نهضت وعانقته وقبلته في خديه، نفض عن نفسه الفضل، واستأذنهم قائلًا إنه سيزورهم عما قريب، حاولوا استبقاءه لكنه ذكرهن:

- لا يزال لديكن حديث سنوات وسنوات لتتبادلنه.... لا يمكن أن ينتظر، أما أنا سأتركن لهذه اللحظة الرائعة... كم أنا سعيد لأجلكن.

ثم هبط الدرج وفتح باب سيارته، قبل أن يركب تطلع إلى نافذة الشقة التي تحمل ما يعادل كل السعادة في قلوب البشر على وجه الأرض، ابتسم وهو يشعر بالفخر، فها قد نال ما كان يريده من كل هذا الشقاء، أن يراقب وجوههم المشعة حبًا وفرحًا وأملًا صافيًا لا مثيل له، قاد سيارته ورحل، وهو يعلم أن كل الأيام القادمة لن تكفيهن ليعوضن ما فاتهن، وماذا يهم، فها هو القدر أخيرًا يبتسم لهن.

لحظة فرح

لا بسبب حالتنا

بل بالرغم منها

مريد البرغوثي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

تتوالى فصول الحزن حتى ننسى أنها يومًا ستنقشع، ويشرق فجرُ فرحٍ يعوضنا عن كل ضربة قسمتنا، لم تعرف آشيا ولا فاطمة سعادة تضاهيها سعادةً، وهن يراقبن أمهن تجهز غرفة قديمة في بيتها لينمن فيها، بها سرير وغطاء للنوم على الأرض، كانت مصممة ألا يعيشوا في مكان آخر دونها ما بقيت حية، وقفت تلك الشقراء تراقب أمها من الباب منزوية، أدركوا لغز عدم ترحيبها بهم، فهي أختهم ساندرا من أمهم من صديقها السابق قبل أن تعرف والدهم، لم تذكرها آشيا، لكن فاطمة تذكرتها، تذكرت حين كانت أمها تحضرها لتبيت معهم في أيام قليلة، تنتهي دائما بشجار عظيم مع والدها، كان حضور هذه المراهقة الشقراء الواجمة مرتبطًا في ذاكرتها بالشجارات والخلافات والضرب والصراخ، لم يفلحوا في تكوين صداقة معها مطلقًا، لأنها كانت تكبرهم بعدة أعوام، كما أن أمهم ذكرت أمام فاطمة لوالدها أنها عاشت بعيدًا عنها طويلًا، لأنها ابنة غير شرعية لها، ولم يعد بإمكانها أن تتركها، وتريد ضمها إلى المنزل، كانت تذكر أن والدها قال لا أريد ابنة رجل آخر، وكان يصرخ ويدفع ساندرا من ظهرها، فكانت تبادله الشتائم، كذلك وجوههم تحمل لساندرا ذكرى سيئة، لذا لم يكن الترحيب بهم في قاموسها، في بداية إقامتهم تعاملت معهم وكأنهم غير موجودين، تتناول معهم بعض الوجبات وتوجه حديثها فقط لأمها، لا تحدق في عيونهم قط، وإذا وجهوا الحديث لها، تتأملهم عيناها باحتقار، كأنها تريد أن ترد إليهم ما فعله أبوهم بها، غير مدركة أنهن جميعًا قد ذقن ما ذاقته هي وأكثر من أبيهم وهم من لحمه ودمه، لكنها لم تكن معهم كل أيام الأسبوع، عرفوا بعد ذلك من أمهم أنها لا تسكن بشكل دائم معها، وإنما لديها شقتها في ضاحية بعيدة في المدينة، ولأن أمها تسكن وحيدة، كانت تبيت معها بعض الليالي، كلما خرجت ساندرا من المنزل لتغيب بضعة أيام كانت تغلق باب غرفتها بالمفتاح، كأنها تقول لهن لن يستعمل أحدكم غرفتي أبدًا، حتى في عدم وجودي، ولكنهم قبلوا بالوضع، لأن وجود أمهم كان يهون عليهم كل شيء.

نما الفراق سنواتٍ طويلة بينهم، مرت فيها ميريديث بأشياء عديدة غيرتها، وغيرت طباعها وتفكيرها وكذلك هم، فكانت لا تزال غريبة عنهن، وما يزلن بناتها اسمًا فحسب، لا تعلم عنهن شيئًا، ولا هن كذلك، لم يكن التفاهم سهلا كذلك طوال الوقت بسبب اللغة، لكن ميريديث كانت تحتفظ بذاكرتها ببعض الجمل والكلمات العربية التي ساعدتها قليلًا، وأضافت بعض الألفة، كان أمرًا غريبًا عليهن، فها هي أمهم تجلس بجوارهم ولا يستطيع أحدهم أن يعرف فيما تفكر أو ما تحب أو ما تكره، ذكرياتهم عنها كانت قليلة، وظلت تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى بقيت بضع صور مبهمة بلا ملامح، أما ميريديث فكانت آشيا وفاطمة في ذهنها أطفالا بقاماتهم الضئيلة ونحيبهم حين يحتاجونها، تذكر لآشيا حبها لأرنبها الرمادي، ولا تذكر ماذا أسمته، وتذكر لفاطمة العرائس ذات الفساتين المنفوشة التي كانت تحتفظ بها في غرفتها، تتذكر أنهم كانوا يحبون الدجاج المطهو جيدًا، ولكن ما إن أعدتها لهم حتى اكتشفت أنهم توقفوا عن حبها منذ سنوات، كأن كل شيء كانت تعرفه عنهم قد زال، فقط بعض الخطوط في ملامحهم لا تزال كما هي، لكن كل شيء فيهم تغير، صاروا

أطول منها قامة، أجسادهم ناضجة وأصواتهم وتفكيرهم كذلك، كلما سألتهم عن شيء يخص صغارها في ذاكرتها، اكتشفت أن لا شيء فيهم منهم، فكانت تدمع عيناها.

جوٌ من التوتر مكث معهم في البيت في الأيام الأولى، فهي لا تعرف عاداتهم العربية بعد، وتشعر بالتوترِ، حين تداعب خالد الصغير تشعر وكأن ليس من حقها أن تحمله، لم تشعر حقًا أنه حفيدها، فكان يشبه أباه ببشرته البيضاء وشعره الملون، حين نادت فاطمة فلم تجبها، ولما دخلت عليها غرفتها وجدتها تسجد بجسدها وتلصق جبينها على الأرض، عرفت بعدها أنها صلاة المسلمين، فكانت تتوتر وتعتذر كثيرًا وتخرج سريعًا من الغرفة، لا تدري ما يجب عليها أن تفعل، كانت أيضًا صلاتها قبل أي وجبة مُستغربة بالنسبة لهم، ولكنهم شاركوها دعاءها وأمنوا خلفها، كانوا يستغربون الطعام الذي تعده، فلا تتذكر حاسة تذوقهم مثل هذا الطعام في طفولتهم، لكنهن تذكرن المأكولات البحرية وطريقة طهوها التي كانت والدتهم تتميز بها، أو كانوا يحسبون ذلك، لكنهم اكتشفوا أنها الطريقة التي تتميز بها باتون روج كاملة، حتى هم أحبوا أن يشاركوها ما يأكلون، لكنها لم تحب الطعام السوري، ذات مرة تطلعت إلى طبق أعدته فاطمة بأنفة، ونهضت مباشرة من المائدة، وتحدثت كثيرًا فلم يلتقطوا فقط سوى أن هذا الطبق يذكرها بزوجها السابق، مما يجعلها تشمئز، فلقد كانت الكراهية متبادلة بينها وبين أبيهم، ذكرت لهم كيف أساء إليها، وسخر منها، بعد أن أوهمها أنه يريد لأهله أن يروا أبناءه، ثم رفض العودة بهم مقنعًا إياها أن هذه الحياة في سوريا أفضل لهم.

لكل حكاية جانبان، وكانت وجهة نظر أمها في حكايتهم أكثر منطقية وواقعية، فقد سألتها آشيا العديد من الأسئلة بعد أن عملت هي وأختها على تحسين إنجليزيتهما، لتعرف كل ما حصل بينهم، وفي أثناء وجودهم في سوريا، فتقشعر ملامح الأم وتتبدل كلما حكت عنه وعن الإساءات التي لحقت بها من جراء زواجها منه في كل يوم من عمرها، مما دعا آشيا لتقول:

- كيف تعرفتِ عليه يا أمي؟

- كان والدك يدرس المحاسبة، بينما يعمل في أحد المطاعم... طبعا لم يتمكن من إكمال دراسته، وفشل فيها كما فشل في أشياء كثيرة، كزواجه مني وكونه أبًا لكم.... كان لدي صديق عجوز يسكن مجمعا سكنيا قريبا من المطعم الذي يعمل به والدك وكنت أزوره لمرضه الشديد من حين لآخر... كنت أتعشى غالبًا في المطعم قبل رحيلي ومن هنا تعرفت على والدك.

أغلقت عينيها وكأن الذكرى آلمتها، تنهدت بحسرة ثم أكملت:

- صرنا صديقين حميمين.... كنت أبيت في شقته أحيانًا، وأجعله يبيت في شقتي أحيانًا أخرى... مفلسة كنت لكن سعيدة..... خاصة حين يبتسم لي ويداعبني بكلمات الغزل.... أحببته حقًا، لوسامته وضحكته الماكرة التي لا تشبه أي ضحكة رأيتها من قبل.... كانت عيناه تلمعان حين ينظر إلي.... وحين حملت بأخيك مازن وأخبرته.... قررنا يومها الزواج (قالت كلمة زواج بالعربية فابتسمن لها)... كان قرارًا عاديًا مثل

أي قرار... كقرار اختيار عمل ما أو شقة ما، فقط شعرنا أنه وقت مناسب للزواج..... كنت أعلم بداخلي أن السبب الرئيسي لموافقته على الزواج بي هو الحصول على الجنسية الأمريكية لتسهيل حياته أكثر، ولكني لم أكترث.... كنت أعلم أننا في يوم من الأيام سنكون سعداء، وكنت بصدد إنشاء أسرة، متناسية كل ما يمكن أن يكون قادمًا من صعوبات جراء قراراتنا... لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أني لست المرأة الوحيدة في حياة رامي.

هنا تطلعت لعينيها آشيا وفاطمة، كانوا يحملون من التعاطف معها ما يجعل ملامحهم تواسيها، تذكرت آشيا أكاذيب أبيها، أن أمها قصدت أن تحمل رغم نصحه لها بأخذ حبوب منع الحمل، فقط لأنها كانت تريد الزواج منه، تذكرت هذه الأكاذيب الملفقة التي أجبرهم على مضغها لتسير حياتهم كما يريد، ماذا كان يملك يا ترى لكي يغريها بالزواج؟ فقد كانت تملك قطعًا كل ما يحلم به في فرصة الزواج بها، خفضت ميريديث عينيها ثم سارت بهما إلى آخر المدى من جديد، كانت تختنق وقد أدركت أنها مهما هربت من الذكريات وحبستها خلف سد كبير ظلت سنوات تبني فيه وترتفع به حتى عنان السماء، فلا بد من ثقب يُحدثه القدر، فتتدفق منه تلك الذكريات في يوم ما، مهما تأخر هذا اليوم، هل أفقدتها السنوات أمل حضور أبنائها واجتماعها بهم من جديد؟ ربما، ولكن ما آلمها حقًا هو عمرها الذي ضاع دون أن تستمتع به، وهي في كل يوم تحاول أن تتخيل ما يحدث لهم، وكيف يعيشون، حاولت كثيرًا أن تتخيل أنهم كانوا أكثر سعادة بعيدًا عنها وعن فقرها، ولكنها أدركت من العلامات على ظهر آشيا والتي لا تعرف أنها رأتها مصادفة وهي تغير ثيابها أن سنواتهم كانت أقسى مئات المرات من سنواتها، تحجر قلبها بالسنوات، ولكن ما إن عانقتهم وشعرت بهم وبشوقهم للقائها، حتى ذاب كل ما جعل قلبها قاسيًا، أكملت:

- امرأة تلو الأخرى..... لم يكن يكتفي..... ماذا جعلني أبقى معه؟ أنتم... كنت أريدكم أن تكونوا أحسن حالًا مني... وتعيشوا حياة سعيدة..... أسرة من أب وأم..... لم أكن أريد لأولادي أن يعيشوا في بيت ممزق كما عشت أنا..... بعد أن أنجبت فاطمة بثلاثة أشهر قلت إن هذا يكفي.... لم أتحمل ما يفعله رام، فقررت الطلاق، وذهبت للطبيب حتى أوقف قدرتي على الحمل... ما زلت أذكر جيدًا ملامحه يومها، وهو يبتسم بلزوجة قائلا لا يمكنني ذلك يا سيدة غسان لأنك حامل! استشطت غضبًا يومها، وكدت أصرخ في وجهه... حملي هذا يعني شهورا أخرى ستربطني به، وسأضطر لقضائها معه... لذا كرهت هذا الجنين.... لم أكن أعلم أنه سيكون أحب أطفالي إلي فيما بعد.

ثم ابتسمت لآشيا، فترقرقت دمعة في عينيها.. أكملت قائلة:

- أتذكر يوم ولادتك آشيا.... تركت عملي لأني شعرت بآلام الولادة.... وحين لملمت أغراضي لأركب السيارة، لاحظت أنها تتحرك.... حين فتحت الباب وجدت رامي يخونني مع امرأة، ولم يجد مكانًا خاليًا ليدس فيه قذارته سوى السيارة... الوقحة سألته من هذه المرأة القبيحة، فلم يقل لها حتى إنها زوجتي.... كنت أريد أن أقوم بما يجب علي القيام به في موقف كهذا.... كنت أريد أن أجعله يدفع ثمن كل الأذى الذي

لحق بي بسببه.... كنت أريد أن أهشم جمجمته، لكن آلام المخاض كانت كالسوط يقطع أحشائي.... فتحت الباب وأمسكتها من ذراعها... قوتي تضاعفت في هذه اللحظة حتى رميتها خارج السيارة ثم رميت ثيابها كذلك.... ورميته هو الآخر.... تركتهما في الشارع وقُدت السيارة وحدي.... لم أجد مساحة في نفسي ليؤلمني قلبي عليه، فقد كنت في حالة يُرثى لها، ولم أكن قد أخذت مازن أو فاطمة من الحضانة بعد.... لم أذرف دمعة واحدة، فقط كنت أشعر بطعم المرارة في حلقي.... وما إن وصلت المستشفى وألحقوني بغرفة ليفحصني الطبيب حتى لحق بي! ماذا تتصورونه قال لي بمجرد أن رآني؟ لقد لامني وصرخ في وجهي لأني أحرجته أمام عشيقته ورميته في الشارع! لحق بي ليقول لي هذا فقط! وليس ليمسك بيدي ويخفف عني آلامي الجمة!

سكتت تستنشق الهواء بصعوبة، بعض الذكريات حين نستعيدها نمر بألمها كما لو أننا نعيشها من جديد في التو واللحظة، أدمت ميريديث قلوبهم بذكريات كهذه، ولكنهم لم يفاجأوا، فهم يعرفون أن مثل هذه التصرفات تصدر عن شخصية والدهم، اندهشت آشيا وهي تراقب أمها الأمريكية كيف حافظت على ميثاق الزواج وكيف أرادت حياة سعيدة لأطفالها واحترمت هذا الزواج رغم أن تربيتها والبيئة التي تحيط بها تجعلها تضع هذا في أواخر أولوياتها، والدها كان من خرب هذا المنزل رغم أنها أمضت سنوات حياتها في سوريا يسبها الجميع لأن أمها أمريكية، ليتهم يعلمون أن والدها هو الذي جلب لها العار، ليتهم يعلمون أن القبح والقذارة لا يرتبطان ببلد أو تربية معينة أو قوم بعينهم، بل إنهم ينبعون من أعماق تلك الروح وحدها، شعرت ميريديث أنها أرهقتهم بهذه الذكريات، وما إن همت بالنهوض حتى استوقفتها آشيا، لا تزال تحمل ذلك الصندوق الخشبي الأزرق، أمسكت به وسلمته لأمها قائلة:

- أمي.... في كل وقت كنت أفكر بك... وأنتظر اللحظة التي سأقابلك فيها..... لهذا حين كنت في أشهر سوق في دمشق اشتريت هذا لك... كما لم تغيري اسمك لأجل لقيانا كنا نحن أيضًا على يقين بلقائك.... كنت أحمله لليوم الذي سأراكِ فيه وأهديكِ إياه.... لم أعلم وقتها أنه سيكون في وقت قريب... ظننت أني سأملك الحق للبحث عنك والسفر للقائك بعد زواجي.... ولكن ها أنا الآن هنا... لم أنس أن أحمله حتى وأنا هاربة في ذلك اليوم.... تفضلي.

تطلعت الأم إلى الصندوق وهي تشهق مندهشة، أمسكته بأصابع حذرة، وظلت تمر بها على نقوشه البديعة، اقتربت منها وقبلتها بين عينيها قائلة:

- سأحتفظ فيه بأثمن ما لدي..... شكرًا لك يا ابنتي الحبيبة.

دق قلب آشيا فرحا، فهي المرة الأولى منذ وقت طويل جدا التي تناديها بابنتي الحبيبة، كما كانت تناديها وهي صغيرة، فكانت صورة هذه الذكرى الخاطفة هديتها هي الأخرى، استأذنتهم ميريديث لتبقى في غرفتها، تجلس ساعات طويلة وتغلق الباب عليها، الوحدة والمكوث معظم اليوم خلف الأبواب هي الملامح الأساسية للحياة في أمريكا، بينما اعتادوا هم على البيت الذي يضم أكثر من أسرة، أعمامها

وزوجاتهم وأولادهم، وصخب الجميع، وتدخل الجميع في حياة بعضهم، رغم بقائهم مع أمهم في منزلها فإنهم قد شعروا أنها لا تزال تندرج تحت قائمة الغرباء، فقرروا بذل مجهود كبير لتعود لمكانتها في حياتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا يكون شعورك حين يفصلك طريق يمتد لساعات بسيطة عن سعادة حلمت بها لسنوات؟ كيف تكون دقات القلب وهو يدرك أنه سيمضي وقتًا طويلًا بعد هذا اليوم يركض نبضًا لكثرة ما ينتظره من مفاجآت وأحداث؟ وضع مازن يده على قلبه، لا تزال أمامه ساعات ليصل إلى باتون روج، نفاه والده إلى نيو أورلينز ليكون خارج نطاق وصوله لأمه، حين اشترى ذلك الهاتف ليقلل مساحة الذنب والوحدة في نفسه باطمئنانه على إخوته دون رقابة والده، لم يتخيل أن يكون هذا الهاتف هو الذي سيحمل له أجمل اتصال في عمره كله، لم يصدق وهو يتطلع إلى الرقم الغريب الذي يحمل نفس مفاتيح دولته وهو يتصل به، لم يكن يعرف أحدًا في أمريكا كلها سوى والده، وحتى زميليه الوحيدين في العمل اللذين يتبادل معهما الحديث لم يطلبا أبدًا رقم هاتفه، كانت آشيا هي التي تكلمه، لشدة دهشته لم يستوعب أنها تكلمه من رقم أمريكي، فبات يسألها ببلاهة كيف اتصلت به في مثل هذا الوقت! لا يذكر ما قالته تحديدًا، هل قالت إنها هربت؟ هل قالت إنها لم تتزوج؟ هل أخبرته إنه على بعد ساعات ضئيلة بالسيارة منها؟

يذكر فقط كيف صرخ من ذهوله وشعر بسعادة بالغة أن والده كان في تلك الليلة يمضي ليلته مع زوجته وهو في شقته القبر وحده، حتى يتسنى له أن يطلق العنان لمشاعره حين يتلقى مثل هذا الخبر، كيف تفتت ذلك الجبل الثقيل الذي كان جاثمًا على صدره من شعوره بالذنب تجاه أختيه طوال هذه السنين التي افترق فيها عنهن، كان يردد آلاف المرات (الحمد لله.... الحمد لله... لك الحمد يا الله)، لم يسألها كيف هربت أو متى أو ما حدث لأهلهم في سوريا، سألها فقط عن مكان سكنهم ليصل إليهم، ردها حتى الآن كلما مر بذاكرته أصابته بالقشعريرة، وكأنه كهرباء تسري في كل خلاياه فجأة بمجرد أن يتذكر:

- نحنا هلأ عند ماما.

سألها ببلاهة:

- أي ماما؟

- أمنا يا مازن... لقيناها... لقيناها أخيرًا يا مازن وساكنين معها هلأ ببيتها في شارع فلوريدا.... راح عطيك العنوان.

هل بكى كثيرًا؟ هل صرخ حتى طرق الجيران بابه؟

لا يذكر جيدًا، لكنه يذكر أنه لم يستطع أن يهدأ لساعات، يبكي ويضحك في ذات الوقت، يرتجف ويشعر بهدوء الكون في ذات الوقت، لقد استطاعوا أن يفعلوا ما عجز هو عن فعله كل هذه الفترة ببقائه في أمريكا، شعر بالخذلان، نظر حوله لتلك الجدران التي خنقته كل هذه السنوات، إلى هذا الأثاث الرث، تلك الثياب القديمة،

ذلك الطعام الذي كان يتذوقه، تلك الوظيفة، كل هذا العمر بلا هدف، كان مسجونًا، أبوه سجنه في عالمه كل تلك المدة دون أن يترك له متنفسًا، خاف أن يعلمه فيتمرد عليه، خاف أن يتحسن حاله فلا يستطيع أن يأخذ منه شيئا، كل تلك الأموال التي أخذها منه بحجج مختلفة وتركه في حال يرثى لها، نائمًا في سرير زوجته الجديدة، كيف يمكنه أن يتحمل لحظة واحدة؟ لا يذكر كم بقي من الوقت جالسًا يتأمل كل الوقت الذي مر منذ ترك سوريا، لا يذكر ماذا أخذ معه في حقيبته الصغيرة، ولا يذكر حتى ما ترك، لم يملك شيئًا ذا قيمة على أي حال، لا يذكر أنه فكر في والده بالأساس، لم يتصل به، ولم يخبره أي شيء، فقط رحل تاركًا وظيفته وأباه وكل شيء.

بمجرد أن وصل إلى باتون روج، أعطى سائق التاكسي العنوان الذي كتبه على كفه نفسها، لم يغسلها قط خوف أن يُزال أهم عنوان في حياته، لا يذكر وجه السائق ولا كم أعطاه ولا كيف هبط من التاكسي وصعد الدرج، ولا حتى كيف طرق الباب، يذكر فقط وجه آشيا حين فتحت له الباب، فتحت له بابًا لعالم دافئ مليء بالسعادة والأمل، يتذكر رائحة شعرها حين لامس أنفه وهو يعانقها، يتذكر فاطمة وهي تحمل وليدها، لم يدر أيعانقها أم يحمل وليدها عنها لينهال عليه بالقبل، يتذكر كيف رحبن به وكيف شعر فجأة أنه مكتمل بوجودهن، كان هذا إذًن ما يقلقه ويقض مضجعه، كان ناقصًا بفراقهم، احتضنهم بقوة، يكاد يعتصرهم لشدة ما كان منفعلًا مذهولًا من تغير حياته كاملة بمكالمة هاتفية، فجأة فُتح الباب الذي على يساره، وخرجت تلك المرأة السمراء التي تحمل آشيا الكثير من ملامحها، خرجت أمه من غرفتها، ووقفت أمامه تنظر إليه، تبحث عن ملامح ولدها البكر في هذا الشاب الناضج الذي يقف أمامها، كان طوله بالكاد يصل لكوعها، في آخر مرة رأته فيها، ها هو الآن رجل مكتمل لا يشبه طفلها في شيء، لم يكن لقاؤها به كلقائها بإخوته، فقد بقيت محدقة فيه وعيناها تنزفان دموعًا، رجولته كذلك لم تمنعه من البكاء، لم يقترب أحدهما من الآخر لدقائق، حتى اقترب منها مترنحًا وهو يناديها بتلك الطريقة المحببة لها:

- مامي؟!

رفعت أصابعها ولمست ذقنه غير الحليقة، وأدخلت أصابعها بشعره، وهي تنظر في أعماق عينيه، اختلجت ملامحه وظهر العرق النافر قاسمًا جبينه نصفين، هذا هو مازن فعلًا، شهقت وقبلت خديه واحتضنته وهي تبكي بحرقة، هل كانت تبكي فرحة للقائه بعد هذا الفراق، أم حسرة وأسفا على السنوات التي ضاعت، وأبنائها الذين كبروا وتفتحوا بعيدًا عن يديها، اجتمع شملهم أخيرًا بعد سنوات وأحداث، كانت تلك الليلة ليلتهم هم، وذكرياتهم هم، كل منهم يقفز بكلمة تخص ذكرى حدث مر بهم في سوريا، استمعت لهم أمهم وهي تتمزق لكل ما مروا به بعيدًا عنها، على كل ما قاسوه، على زواج فاطمة وبقائها كالمعلقة بهذه الطريقة، على طفلها الذي ولد دون أب، على آشيا الصغيرة، على كل هذه الصفعات في حياتها، وعلى مازن الذي وصل أمريكا ولشدة محاصرة أبيه له وضغطه عليه لم يتمكن من الوصول إليها، كانت تحافظ على ملامحها وهي تستمع لكل مأساة مروا بها، ولكنها كرهت زوجها

رامي أكثر من أي وقت مضى، تحملت الكثير، وقاست الكثير، ظنًا منها أنهم أفضل حالًا دونها، كما صور لها، كانت تتحمل أذاه لها بلا مبالاة، ولكنها أبدًا لم تتحمل ما فعله فيهم، أو ما لم يفعله إنقاذًا لهم، حكت لهم كيف كرهته بسبب خيانته لها، وكيف احتقرته وطلبت الطلاق، وأصرت عليه بعد أن رفض إعادتهم من سوريا، ذاكرة بسخرية أنه أقنعها أنه يفعل ذلك لمصلحتهم، فرد عليها مازن:

- أتذكر أنه كان يتهمك بالخيانة، وكان يشك في أننا بالأساس أولاده.... أتذكر صراخه تلك الليلة لعدم رغبته في الصرف علينا لأنه ليس متأكدًا أننا أولاده.

صعقت الأختان لكلامه، لأن أخاهم كان يكبرهم سنًا، وكانت الأيام والذكريات واضحة في ذهنه، فهن لم يذكرن شيئًا كهذا، أما ميريديث فأظلم وجهها ذنبًا، فلم تكن تعلم أن ابنها الصغير استمع لحديثهم الشائك في هذا اليوم، وقالت:

- السارق يظن الجميع سارقين مثله..... ذلك الخائن لم يترك شيئًا جميلًا في حياتنا إلا وهشمه..... لم أكن أنا الوحيدة التي اتهمني بذلك... لازلت أذكر ذلك اليوم.... حين سمعت طرقًا على باب بيتي... بيتنا القديم يا أولاد الذي بعته بعد سفركم لأني لم أملك من المال ما يكفي بقية أقساطه وكنت أنا وأبوكم قد تطلقنا.

تذكرت آشيا لحظتها اتهام والدهم لها أنها طردته من البيت، وتغيرت أقواله بعد أن قال إنه ترك لها البيت بشهامة، وفي الحقيقة لم يكن قد دفع سنتًا واحدًا فيه، بل أمها التي تكفلت بكل شيء، وحين لم تستطع أن تكمل أقساطه، باعته، لتعيش في هذه الشقة الضيقة، أسفت لحال أمها وحزنت لأنها للحظات شكت فيها، أكملت ميريديث قائلة:

- حين فتحت الباب وجدت شابة صغيرة في السن تحمل طفلًا بين ذراعيها تطلب مني أن أنادي رامي.... لم يكن وقتها في المنزل، فسألتها لماذا تريده... حينها كادت الصاعقة تسقطني على وجهي... فقد قالت لي مشيرة إلى طفلها إنها تريده أن يقابل ابنه.... لم أدر ماذا أفعل، ولكني أيقنت أنها إحدى من خانني معهن.... أدخلتها واتصلت به ليحضر سريعًا.... طبعًا حضر بعاصفة من السباب والغضب، ولكنها لم تكن موجهة لي، كانت موجهة لتلك المرأة.... توعدها كثيرًا وأنكر أبوته للطفل..... لاحقًا استطاعت أن تثبت أنه ابنه باختبار الدي إن إي.... وأتذكر أيضًا أنها سجلته باسم رامي، لأنها رغم كل ما فعله كانت تحبه كثيرًا.

ذهلت آشيا وهي تتذكر ما قاله هاشم يوم أخبرهم أن عنوان أمهم بين يديه، لقد ذكر لهن أن هناك شخصًا يدعى هاري غسان يسكن في نفس المدينة، تأكدت أنه هو، وفجأة انتابها الضحك ولم تتمكن من منع نفسها وسط دهشة باقي أفراد الأسرة، لقد أعادهم والدهم إلى سوريا ليلقوا الأمرين بحجة تعليمهم الإسلام، وها هو يترك ابنًا له يدعى هاري يفعل ما يشاء ويؤمن بما يشاء، إذن فتلك كانت مجرد حجة واهية، شعرت أن كلام أمها ناقص، كيف تخاذلت وتركته يأخذهم بهذه البساطة؟ لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تلومها في أعماقها على كل ما مر بها، لكنها لم تنطق بهذا، لأن ما فات قد حدث، فهل يغير اللوم شيئًا منه؟ مهما فعلت لمحوه ستظل آثاره تعيش فيها ما تبقى من حياتها، وها هي الآن جوار أمها وإخوتها حولها تشعر للمرة الأولى

في حياتها بمعنى كلمة أسرة، صحيح أن والدتها لم تكن ودودًا كما يجب، ولكنها تعرف أنها أمريكية، ولم تعتد وجودهم، فكان من الطبيعي ألا تشاركهم كل الوجبات، أو تسألهم أين يذهبون أو ماذا يفعلون، أو حتى تهتم لذلك، لأنها تعلم أنهم ناضجون، حتى مسألة عيشهم معها كانت مضحكة بالنسبة لأي عائلة أمريكية، لكنهم كانوا استثناء ليعوضوا ما فاتهم بالفراق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صافح هاشم مازن بحرارة، وشكره مازن كثيرًا لكل ما فعله من أجل إخوته، كانت فاطمة تتطلع إليهم مندهشة، هاشم الساحر يصافح أخاها، لم تتوقع أن يحدث هذا يومًا، قامته تزداد طولًا عن قامة أخيها، وهو قطعًا أكثر أناقة ولباقة، ابتسمت خلسة لأفكارها المجنونة، ثم قادتهم لمائدة العشاء، كانوا يتندرون على المائدة بالأحداث التي عاشوها في تلك المغامرة التي لا تصدق، كان هاشم سعيدًا للغاية بوجود الإخوة الثلاثة معًا إلى جانب أمهم، وكأنهم وجدوا سكينتهم أخيرًا، شعر كم كان مازن بحاجة إليهم، وليس العكس، شعر بذلك وهو يتطلع إلى ملامحه المتأثرة حاملًا خالد، لم يكن يفلته من بين يديه إلا كي ترضعه أمه، كان يعشق هذا الصغير ويحاول تعويض ما فاته بعدم حضور ولادته، باحتضانه وتقبيل أقدامه الصغيرة كلما سنحت له الفرصة، ابتسم مازن وبقيت عيناه حزينتين حين تذكر خالد الذي أحبته فاطمة، والذي كان أول حلم ذُبح في أعماقها، حتى بات يستمتع وهو يعيد نداءه مرارًا وتكرارًا باسمه، أتاهم هاشم يحمل هدية، وهو رقم هاتف صديقتهم بثينة، فلقد تمكن من الاتصال بها في منزلها ليُطمئنها على وصولهم بسلام، وكذلك حصل منها على رقم هاتفها الخاص الجديد، اختطفت آشيا الرقم من يده بفرحة لا مثيل لها، وتطوعت والدتها بجعلها تستعمل هاتفها الشخصي في أي وقت تحب لتكلم أحباءها، أخبرهم هاشم أنه سيمكث بعض الوقت في أمريكا، لأجل بعض الأعمال، وأنه سيزورهم من آن لآخر، من لباقته كان يتحدث طوال الوقت بالإنجليزية، حتى لا تشعر ميريديث بالحرج، اكتسبوا هذه العادة منه وصاروا جميعًا يتحدثون الإنجليزية معظم الوقت، ليشعروا أنهم حقًا عائلة واحدة ولو فقط بتوحيد لغتهم، ثم رحل هاشم بعد قضاء أمسية ممتعة.

حين يرتبط لديك شخص تحبه بمأساة عشتها، تجد من الصعب عليك الاتصال به بعد مرور تلك المأساة، وكأن حديثك معه سيذكرها بك فترجع لتعذبك، مرت أيام ترددت فيها آشيا آلاف المرات قبل أن تتصل، لا تدري هل لأنها لا تحب أن تتذكر، أم لأنها خافت أن تفتح في وجهها فوهة الحنين، فتسقط إلى أعماقها السحيقة، ولا تستطيع أن تعود لتصالحها مع نفسها بما حققته في حياتها، فلقد استطاعت الوصول لنقطة التصالح تلك بعد صراع طويل، أمسكت ذلك الهاتف مرارًا ثم تركته دون اتصال، حتى حين كانت تصحو في منتصف الليل أو حين تخرج، أو حين تأكل، أو حين تصمت فجأة وتفقد خيط الحديث، سارحة فيما عليها أن تقوله، حتى وضعتها فاطمة أمام الأمر الواقع، وأمسكت الهاتف، وهددتها أنها هي من ستتصل، حينها اختطفت آشيا الهاتف وضربت الأرقام دون وعي، وكان سؤالا واحدًا يعذبها طوال الوقت، هو كيف صارت صحة جدتها، خافت كثيرًا أن يكون عمها محمود قد أخذ

الهاتف منها بالقوة، بل إن خيالها سافر إلى عنان السماء وهو يصور لها أن عمها سيعرف عنوانها إذا عرف رقمها، ويأتيها في الليل ليتهجم عليها ويهشم رأسها، ضحكت فاطمة حين علمت ما وصل إليه خيال آشيا وقالت لها:

- الله يخليكِ بعدي عن أفلام الأكشن... أثرت على عقلك.... أصلا لو حصل على فيزا بينسانا وبيحقق أحلامه اللي كان ناطرها من سنوات.... ولو ما عرف يحصل على فيزا ويجي لهون شو بيسوي؟... بيرسل ورانا قاتل مأجور؟... ايه بعرف ها الفيلم... بعدها ماراح يقدر يقتلنا لأنه بيقع في حبي وبيصير يتعذب.

ثم انهمكت في الضحك، وشاركتها آشيا، حتى نفضت عنها كل مخاوفها، واتصلت، طال الرنين حتى شعرت أنه مدفون في مكان لا تصل إليه يد إنسان، ولكن بعد الاتصال الثاني سمعت صوتًا واهنًا يجيب، كان صوت جدتها، ذرفت عيونها دمعة وهي تحمد لله، جرت عليها تحتضنها بنبرة صوتها المشتاقة، فارتدت الروح لجدتها، وعلت نبرتها، وكأن الحيوية دبت فيها من جديد، وظلت تكرر عشرات المرات كم اشتاقت لها ولأختها، فتحت آشيا مكبر الصوت في الهاتف لتشاركها فاطمة البكاء، وهي تستمع لصوت جدتها، المرادف الحقيقي في أعماقهم لكلمة حب، ظلا يجيبانها عن أسئلتها التي لا تنتهي عن صحتهم وأخبارهم وأين يسكنون، فقالت لها آشيا وهي تشهق بكاءً وفرحة في نفس الوقت:

- لقينا أمي ياستي.... لقيناها وهلأ عايشين معها.... نحنا سعدا ياستي.... والله سعدا كتير.... هلأ أنا رجعت الدراسة وراح سجل بالجامعة... كمان إلتقينا بمازن وهلأ عاش معنا.... عم يشتغل وبيقدم في جامعة قريبة... حياتنا أخيرًا تحسنت يا ستي.

- الله يوفقكن... الله يحميكن.... الله يخليكن... آشيا اشتقلها وفاطمة بدي بوسها وخالد الصغير... الله يجمعني فيكن.... باتمنى أشوفكن ولو مرة واحدة.... اشتقتلكن.

كانت جدتهم تبكي، وصوتها يتهدج من الشهقات، لحظة لا يمكن أن تُمحى من ذاكرتهم، لم يتصوروا قط أن يأتي عليهم يوم ويحادثوها وهم في قارة أخرى، لم يتخيلوا أن يأتي يوم ويتركوها خلفهم، فقد كانت دائما أمامهم، تحبهم وتحيطهم برعايتها رغم كبر سنها وعجزها، اشتاقوا لحكاياتها، اشتاقوا للمسة يدها، تفرك صدوغهم فتحيل كل أحزانهم رمادًا، اندهشوا حين أوصتهم بالسلام على ميريديث، وحين أخبروا ميريديث ابتسمت فرحة وهي تقول:

- امرأة عظيمة.... لا يمكن أن أنسى ما فعلته من أجلي.... ذلك اليوم الذي كانت فيه طريحة الفراش في المستشفى..... كنت يائسة أكلمها باكية وأوصيها أن ترعاكم وكأنها ستفهمني.... أخبرتها أن تعلمكم كيف تحبون بعضكم، ولا تتفرقوا أبدًا وأني سأحس بالاطمئان وأنتم معها وسأدعو لها بالعمر المديد.... ولكن يالسماوات فهمتني ومدت يدها المرتعشة تمسك بيدي..... ضغطت كثيرًا على يدي وهي تطمئني، ثم قالت لي إنها ستعتني بكم... قالتها بالعربية... لكني فهمتها... شعرت بها.. كان وجهها وملامحها في ذلك اليوم هما طوق نجاتي..... ربما كان هذا سببًا في جعلي أحاول تعلم العربية.

شهقت آشيا وهي تسمع حديث أمها، قالته بعفوية دون أن تدرك ما يعني لها، نفس المشهد الذي وصفته لها جدتها وهي صغيرة، أعادته على مسامعها أمها بنفس التفاصيل، أدركت أنها كانت معجزة من الله أن تفهم كل منهما الأخرى، وتتعاطفان مع بعضهما بعضا رغم اختلاف كل منهما عن الأخرى اختلاف الضد، هدأت مخاوف آشيا حين حدثت جدتها، علمت أن عمها محمود لم يبلغ الشرطة عن هروبهن، ولم يبحث عنهن، فلقد أخبرته بثينة أنهن سافرن إلى أمريكا، وأنهن لن يعدن أبدًا، وحده أكرم أصابه الجنون، وظل يطلق السباب كلما فتح عينيه وحتى يغلقهما في المساء، حتى بعد أن زوجوه إحدى بنات رولا، أدركت آشيا أن جدتها حاولت جاهدة تجنب الحديث عن مرضها وتفاقم حالتها، وحاولت أن تصرف انتباههم بالحديث عن رد فعل أفراد الأسرة، بعد أن أغلقت آشيا الخط، بكت كثيرًا في حضن فاطمة ومازن كما كانوا يفعلون وهم صغار، حين يلتفون في أحضان بعضهم بعضا، فتندمج دموعهم، وتلتف أذرعهم حول بعضهم، فلا يعرفون مَن يواسي مَن، ومَن يبكي في حضن مَن!

اتصلت آشيا ببثينة، أشرق وجهها بهجة وبثينة ترحب بها على الهاتف، وتسألها عن أحوالها، في كل جملة تجيب بها كانت تشكرها، وأضافت:

- بعد فضل الله لولاكِ ماكنا وصلنا لهون.. ولا قابلنا أمي... ولا رجعنا لدراستنا ولا أي شي.

- خلاص بلشي تصيري عظيمة وبها الطريقة بترديلي كل اللي سويتلك ياه.

ثم اندمجت ضحكاتهم، صمتت آشيا حائرة كيف تصيغ سؤالها، أدركت بثينة سؤال آشيا قبل أن تتفوه به فقالت:

- ما مر يوم بدون ما يسألني عدنان عنك وعن رقمك.... انجن لما سمع من الجيران أنكن هربتوا... سموه قيس... ضل يسير بالشوارع كلاتها ويطوف في القرية كأنه بده يلاقي شيء يدله عليكِ.... مسكين والله حالته تقطع القلب.... الله يخليكِ آشيا لازم تتصلي فيه.... أو تركيني أعطيه رقمك لحتى يتصل فيكِ.

وحده عدنان حلمها الذي لم يكتمل، أمير بلا مملكة، رجل تحمل له الكثير من المشاعر والحب الصافي، لكنه لم ينم ليصير غرامًا، هل أوصل له هروبها منفردة هذه الفكرة، أم أنه لا يزال يعيش على أمل أن تقع في حبه؟ ليس مسموحًا لها منذ هذه اللحظة أن تقع في حب سوري، لأنها لا تريد لأي شيء أن يربطها بهذا المنفى، هل سيغفر لها أنها تخلت عنه وهربت وتركته دون كلمة واحدة، ودون حتى أن تُعلمه بنيتها، ولكن لم يكن بيدها حل آخر، فهي لم تخبر حتى عزيزة، ترددت طويلًا في الاتصال به، لكن كلما استرجعت كلمات بثينة وتوسلها لها أن تكلمه حسمت أمرها، وبينما تسير في حديقة قريبة من منطقة سكنها، بين الأشجار وتحت مطر من ورق الشجر، رأت عاشقين يسيران متعانقين، لا تدري كيف رأت في ملامح الشاب صورة عدنان، تذكرت الفرح الذي طُبع في وجهه وهو يأخذها من يديها حين هربا، ابتسمت متذكرة، وأمسكت هاتفها واتصلت برقمه، على الجهة الأخرى كان هاتف عدنان جزءًا لا يتجزأ من جسده، أينما ذهب يكون في يده أو في جيبه، لا

يفارقه وكأنه ظله، وحين تأمل مفاتيح الرقم الذي يتصل به، عرف أنه من أمريكا، لشدة لهفته انزلق الهاتف من بين أصابعه، لكنه التقطه بسرعة وأجاب، كان صوتها هادئًا نقيًا مغلفًا براحة البال وهي تقول بدلال:

- عصفورة أجت على شباكك.. بدها تقلك يامحلاتك... اشتقتلك ونهلت من قبلاتك... وظلت تلف وتدور في سماتك.

ارتجف جسده كله وهي تضحك وتغني له، الفتاة التي لن يقدر أن يحب أحدًا كما أحبها، الفتاة التي باع عالمه كله لأجل أن يبني عالمًا صغيرًا بجوارها، عض على شفتيه يمنع الشهقة أن تخرج، فقد خارت قواه في انتظار هذه اللحظة، حتى ما عادت رجولته تقدر على كبح دموعه، صمت للحظات فأكملت:

- شو مابدك تحاكيني؟ ماعدت بتريدني؟ بس أنا بريدك.... ومارح بعد عنك لحتى تقلي... اشتقتلك آشيا.... راح ضل أحكي وغني لحتى تجاوبني.

بماذا كان يمكن أن يجيبها؟ بأي حروف يستطيع أن يشكل فرحته، وأذناه تحتضنان صوتها؟ تكلمت كثيرًا وصمت كثيرًا، يحاول كبح الشهقات، حتى خرج اسمها بصوته الذي يقطر تأثرًا:

- آشيا..... آشيا.

ظل يردد اسمها وهو يخفي جفونه الباكية خلف أصابعه، يضغط على جانبي جبينه بقوة، ثم يأتي نداؤه لها ضعيفًا مكسورًا، لم يقل لها شيئًا، فقط كان ينادي اسمها، أما هي فأدركت مدى الألم الذي يحسه من خلال صوته، ومدى فرحته بإمساكه بخيط اتصال بها أخيرًا، حكت له كل الأحداث التي مرت بها، وصفت له الأشجار التي تسير تحتها، والألوان التي تعانق عينيها، والعصافير، كأنها سافرت إلى جنة خاصة بها، لكنه استمر ينادي اسمها فقط، وفي نهاية الحديث قال لها جملة واحدة:

- انت حياتي كلها آشيا.

هو الرجل، لكن الحب أضعفه، فصارت هي أقوى منه، أكثر تحملًا لظروف الفراق. وضع هاتفه جانبه وهو يتخيل حجم المسافة التي تفصلها عنه، بينما أمضى كل سنواته الماضية وهي على بُعد شارع منه، كان يسير بمحاذاتها ويضحك معها ويراقب عينيها التي تضيقان حين تضحك، تذكر جنته الخاصة بقربها، وهو يمدد جسده على سريره، مضى في مستقبله وهو يتخيل يومًا يسافر فيه إليها، ويتلمس كفها، لم يفقد الأمل في نيل حبها وهي قربه، ولكنه الآن يتمزق ألما لأن عليه أن يمضي حياته وهو يعرف جيدًا أنها لن تكون له، حين كانت بقربه لم تتمكن من أن تحبه، فكيف سيحدث هذا وقد خلقت لنفسها حياة جديدة بعيدة عنه بملايين الأميال؟ أغلق عينيه، وبقي على سريره يحلم بذكريات لن تعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت آشيا البيت، فسمعت شجارًا عنيفًا وصراخا قادمًا من المطبخ، رأت فاطمة تقف على باب غرفتها وهي تحمل رضيعها الذي هاله الصراخ، فظل يصرخ هو

الآخر، سألتها ماذا يجري فأخبرتها أنها مشاحنة بين أمها وساندرا التي عادت مخمورة إلى المنزل، لأن هذا البيت كان الأقرب للحانة التي سهرت فيها حتى طلوع الفجر، تقيأت على الأريكة وبقيت نائمة بين القيء، حتى استيقظت ميريديث صباحًا، ورأت المنظر، تطورت المشاحنة حتى ظلت ساندرا تدفع أمها بيديها، فتدخلت آشيا وحالت بينهن، فصرخت فيها ساندرا قائلة:

- وما دخلك أنتِ أيتها القذرة.... لا تختلفين كثيرًا عن قذارة أبيك.... ألا يكفيني ما فعله في؟ لقد دمر حياتي... وأنتِ يا أمي.... رأيته يفعل كل هذا بي ولم تفعلي شيئًا لإيقافه... دوما كنتُ رخيصة عندك... تخليتي عني من قبل ثم رميتني فريسة لهذا القذر.

فدفعت ميريديث آشيا وظلت تصرخ في ساندرا:

- اخرسي... توقفي عن هذا الهراء..... قلت اخرسي.

- ماذا؟ ألم تخبرينهم بعد؟ ربما كانت إحداهن ضحيته أيضًا... اسأليها، ربما تلاعب بجسدها هي أيضًا!

- أمي ماذا تقصد ساندرا؟

- أبوكِ القذر اغتصبني حين كنت أبيت عندكم في مراهقتي.... لقد دمر حياتي.... إنه السبب في كل ما أنا فيه.

رجعت آشيا خطوات إلى الوراء وهي لا تصدق ما تسمع، أما ميريديث فدفعت ساندرا طاردة إياها من المنزل وهي تقول:

- أنتِ من دمر حياتك لا هو، نعم كان يضربك، لكنه أبدًا لم يفعل ما تقولينه وما اتهمته به.. تحاولين إلصاق فشلك به.... تحاولين أن تبرري قذارتك بكذبة.... لن أغفر لك هذا.... اخرجي ولا تعودي هنا أبدًا وأنت مخمورة.... لقد خاب أملي فيكِ.

ارتجفت آشيا وهي تتخيل ما حدث، تحاول أن ترسم أبعاد حقيقية لما قالته ساندرا، لكن أمها اقتربت منها بحذر وهي حزينة ثم قالت:

- اهدئي آشيا... ليس هذا الكلام صحيحًا.... إنها مجرد غبية سكيرة.... لا تصدقيها.

ثم تزاحمت بعض الصور في ذاكرتها، كانت تظن أنها مُحيت منها، أو أنها لم تعش فيها بالأصل، والدها كان يضرب ساندرا وأمها تحول بينهما، أجل كانت ساندرا تصرخ وقتها:

- أيها القذر الوسخ... سأحاكمك على اغتصابك لي... ستمضي كل عمرك في السجن أيها الحقير.

ثم أظلم كل شيء حولها فجأة.

لو الواحد بيختار المشاهد اللي بيشوفها

ماكنتش هختار إني أشوف مشهد وداعك

كنت ودعتك وعينيا مغمضين

كنت ودعتك وأنا بمسح دموعي بإيديا الاتنين

لو الواحد بيختار يودع مين

عمر طاهر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

حين فتحت آشيا عينيها، لم تدر تحديدًا كم من الوقت نامت، بدا لها أنها نامت أيامًا عديدة، لم تتذكر شيئًا سوى صور متفرقة لا معنى لها، رجل يمسك بيديها، أمها تبكي وهي تحدق بها وتناديها، تسمع بكاء خالد الصغير بجوارها، لكنها لم تفهم شيئًا، حاولت النهوض من الفراش فسمعت باب الشقة، كانت أمها قد عادت للتو من عملها، وفاطمة في المطبخ تعد بعض الطعام، تنهدت ميريديث بارتياح وهي تراقب ابنتها تخرج من الغرفة، وأمسكت بكتفيها قائلة:

- حمدًا لله على سلامتك.... هل أنت بخير الآن؟ كيف تشعرين؟

- أشعر ببعض الصداع.... هل نمت طويلًا؟

- أجل.. ليومين.... كنت أظن أنك في إغماء.... وجلبت لك الطبيب، لكن فاطمة أخبرتني أنك اعتدتِ النوم لأيام حين تكتئبين، والطبيب الذي فحصك قال نفس الشيء.

هزت رأسها، وتقافزت إليها الذكريات الأخيرة فقالت:

- أريد أن أعرف يا أمي.... أريد أن أكلم ساندرا.

تغيرت ملامح ميريديث من الارتياح إلى الضيق، تعلم أن آشيا لن تترك الموضوع يمر، نادت فاطمة وأجلستهما معًا أمامها على الأريكة، كانت تصر على نقل أي خبر لهن في وضعية الجلوس، وكأن الكرسي سيخفف عنهن، أو يسندهن وقت الحاجة، وكأن الأخبار تهز كل ما فينا فيجب علينا الجلوس، لكنها عادة قديمة ورثتها أمهم من مجتمعها، بدأت ميريديث قائلة:

- لو ذهبت وتكلمت مع ساندرا فستقول لك هذا الكلام.... ستحكي لك فيلمًا سينمائيا عن اغتصاب زوج الأم للمراهقات.... وستضيف تفاصيل من خيالها لم يصل إليها أي مخرج.... صدقيني أنا أعرف ابنتي جيدًا.... لكن هذا لم يحصل أبدًا يا بناتي.... أبوكم فعل الكثير من الفظائع لكن اعتداءه على ابنتي لم يكن واحدًا منها.

صمتت تحاول بلع ريقها، وهمت آشيا بسؤالها عن شيء، لكن أمها أشارت إليها لتهدأ مكملة:

- ساندرا فقدت عذريتها مع صديقها في المدرسة الإعدادية.... أي قبل أن تأتي لتعيش معنا.... لم تُرد إخباري أنها حامل... بكت كثيرًا وهي تخبرني أنه من الضروري أن تعيش معي، رغم أن المدرسة الداخلية التي ألحقتها بها كانت لا بأس بها... سكنت معي وصار الجو مشحونًا بينها وبين رامي... ألصقت به تهمة اعتدائه عليها وحملها..... لم تكتف بذلك، بل إنها رفعت ضده قضية لشدة حنقها عليه من ضربه لها وقررت أن تدخله السجن.

شهقت فاطمة وآشيا، هل من الممكن أن تصل ساندرا وهي في هذه السن لمثل هذه الأفعال؟ هل هذا نتاج حرية مجتمعاتهم؟ ظنن أن حياتهم كانت تعسة، ولكن يبدو أن

ساندرا كانت أكثر منهم بؤسًا، فها هم في مجتمعهن يشتكين الاختناق لشدة تدخل الجميع في حياتهم وإجبارهم على السير في طريق معينة، من وجهة نظرهم، وإما النبذ إن خرجوا عن رأي الجماعة، أما في هذا المجتمع فلا أحد يتدخل في شئونك على الإطلاق أو حتى يرشدك، أكملت ميريديث:

- لم تتحمل ساندرا رعايتي لكم.... كانت دوما تصرخ قائلة أنا ابنتك أيضًا لما لا تحبينني مثلهم، أو ترعيني مثلهم... حين أنجبت ساندرا كنت صغيرة في السن لأنه كان حملًا مفاجئًا لي من علاقة عابرة، كما أني كنت بلا مصدر للمال، مما دفعني لإلحاقها بهذه المدرسة بمنحة من الدولة، ليتولوا رعايتها، حيث لم يكن لدي وقتها مكان لأعيش... بمرور السنوات تحسن وضعي، وتزوجت رامي، وأنجبتكم، وفي كل مرة كنت أحاول أن أضمها كان رامي يرفض رفضًا قاطعًا.... لم يترك فرصة إلا وذكرني فيها بماضي المؤلم.... دوما كان ينعتني بأني أم فاشلة وبشعة وبلا قلب وأني أستحق الموت... ولن يكون هو الضحية ليتحمل أخطاء حياتي... ينعتني بالعاهرة وكأنه ملاك.... لكن حين رأيت ساندرا منهارة بهذا الشكل لم أتحمل، ووضعته أمام الأمر الواقع... جلبتها لتعيش معنا، وتبيت بعض الأيام، ولم أكن أعلم أنها ستكون السبب في حرماني منكم.

اندهشت آشيا من حديث أمها، وهي تتساءل بأعماقها عن العلاقة بين رجوعهم سوريا وأختهم ساندرا، كان السؤال واضحًا في ملامحهم، ربتت ميريديث يدي فاطمة القريبة منها وأكملت:

- لم أكن أريد أن أحكي هذه التفاصيل، كنت أريد لكنَ أن تنسين الماضي كاملًا، وكل ما فيه من قاذورات.... ولكن إن كان لا بد أن تعلمن... فسأخبركن.... ساندرا بتلك القضية كانت تهدد بقاءكن في حوزتنا..... اعتداء رامي عليها كان سيكلفنا في القضية حرماننا منكم.... كانت الحكومة ستأخذكم لتتبناكم أسر أخرى، وكنا سنعيش طوال عمرنا في المحاكم نحاول استعادتكم ولم نكن لنفلح قط.... كان انتقام ساندرا مروعًا... انتقمت من رامي لكل ما فعله فيها.... وانتقمت مني لأني لم أعطها الاهتمام الذي أعطيته لكن.... فقررت أن تعاقبنا جميعًا... لست أدري حتى من أين تعرفت على ذلك المحامي الذي أوحى لها بتلك الفكرة.... لم أكن لأتحمل فكرة انتزاع الحكومة لكم من بين يدي.

ابتلعت ريقها ونظرت بعيدا، وكأنها تعيش في ذاكرتها يومًا تكرهه:

- ذات يوم جاءني رامي وأخبرني أن لديه خطة محكمة... أن يعود بكم إلى سوريا حتى نحل المشكلات كلها مع ساندرا... ومن ثم نعيدكم من جديد لنعيش بسلام.... بالطبع هذه لم تكن نيته.... ولكنه كان الحل الوحيد.... سافرت بكم، وانتظرت فترة، ولكن رامي أصر على عودتنا إلى أمريكا فورًا، حتى في ظروف مرض والدته.... جاءني إحساس أنها قد تكون المرة الأخيرة التي أراكم فيها.... لذا بكيت وأوصيت السيدة عزيزة بكم.

مسحت ميرييديث دموعها التي تناثرت على خدودها، فلقد فتحت الجرح الذي تجاهلته كل تلك السنوات، ثم أكملت:

- كنت على حق.... رامي كان في منتهى القسوة..... أخبرني أني لن أرى أولادي من جديد ونعتني بالقذرة وهو يقول (لولا أني أنقذت أولادي من قذارتك لكانوا الآن مع عائلة لا نعلمها..... من المستحيل أن أعيدهم إليكِ أبدًا)... كما أن ساندرا لم تتنازل عن القضية.... لكن "الدي إن إي» أثبت حملها من شخص آخر... ياللسخرية.... نجا رامي ولم يدخل السجن.... وأكملت ساندرا طريقها نحو إذلاله، وقررت رفع قضية أخرى عليه بالتعرض لها بالضرب.... أعترف أني لو كنت أعدتكم إلى أمريكا لكنت خسرتكم لأسرة أخرى لا نعلمها..... مما جعلني أؤمن أن فكرة عودتكم لم تكن بهذا السوء.... لكني لم أحتمل رامي أكثر من هذا.... خانني عشرات المرات، وأهانني واعتدى علي بالضرب وهو يقول إنه يفضل الموت على أن يعيدكم إلي... طلبت الطلاق وألغيت عقد المنزل.... ولكنه أخذ سيارتي قائلًا (لن تستطيعي الحياة دوني أيتها السافلة وسوف أرقبك ذات يوم وأنتِ تجرين عربة تسول على طول شارع فلوريدا، ولن أشفق عليكِ بسنت واحد).

لوت فمها بسخرية، ثم تطلعت إلى وجهي ابنتيها، فرأت دموع القهر تتسل من عيونهن، فابتسمت تحاول التخفيف عنهم قائلة:

- كان لدي أمل.... كنت أعلم أن ربي سيعيدكم إلي.... كنت مؤمنة بذلك كثيرًا... لهذا حاولت تعلم اللغة العربية... أذهب إلى الكنيسة كل أحد وأصلي.... أصلي لأظل على قيد الحياة حتى أحتضنكم من جديد... وها قد صرتم معي... وصرنا أسرة مرة أخرى.... رغم كل ما حدث... رغم كل الظلم والألم الذي مررنا به... الرب حررنا مما كان يقيدنا من ظلم النفوس البشرية..... وحاك أقدرانا لنلتقي من جديد... أبوكم فعل ما فعل وانتهى وشفينا منه، فلتسامحنه.... ليس لأجله وإنما لأجل أنفسكن... حتى تتصالحن مع أنفسكن... ولننس كل شيء ونعيش سعداء بسلام.

ثم ضمتهم إليها، كانت أمًا بطريقتها الخاصة، حنونًا رغم أنها لم تنشأ على هذا، داوت جراحهم وآوتهم جوارها، عملت وتحملت لأجل أن تلقاهم من جديد، بقيت تحمل الاسم الأكثر كراهية لنفسها، فقط لتُبقي على آخر خيط واهن بينها وبينهم، لسنوات استمعوا إلى أكاذيب أبيهم وظلم أهله لهم، ومعاملتهم السيئة، وما كان كل هذا إلا حربًا بين والديهم، عنادا وانتقاما، راحت سنوات طفولتهم ضحيته، ولكن هل يفيد اللوم أو الندم الآن؟ الكثير من تفاصيل حياتهم كلها خطأ، كلها حرمان، كلها ألم، لكن جوهرهم لا يزال صافيًا بريئا مقبلًا على الحياة بكل ما فيها، خصوصًا في أمريكا، البلد الذي يسهل كل شيء حولهم، فيها لكل إنسان فرصة ثانية وثالثة وعاشرة، ليبدأ من جديد، ويعيد بناء ما تهدم، ليس فيها من يحاكمهم لأخطاء آبائهم أو إهمال تربيتهم، ليس هناك من يهتم لماضيك طالما يعجبه حاضرك، الحياة لا تتوقف على فشل ما أو خسارة ما، فطالما لديك العزيمة يمكنك أن تكون أي شيء في أي وقت، ومهما ضاعت منك السنوات، إكمال آشيا لدراستها كان حافزًا لها لتحقق ما حُرمت منه من أحلام، كانت تريد أن تكون مدرسة مثل أمها، في البداية لم تدر بالضبط طبيعة الوظيفة التي تريدها، ففي كل مرحلة من حياة الإنسان يرى

نفسه منجذبًا لوظيفة ما، ها قد نضجت ووصلت إلى مفترق طرق وعليها اختيار طريق تسير فيه، فها قد اختار مازن دراسة الهندسة، بينما يعمل موظفًا في مكتبة صغيرة بشارع بيلمونت، ساعدها كثيرًا في استعارة الكتب التي قد تنير لها الطريق، قرأت في العديد من المجالات واختارت مجال الأدب الإنجليزي لتدرسه وتصير مدرسة فيه، كان من شجعها على ذلك أيضا هاشم، فقد كان مولعًا بقراءة الكتب الأمريكية في الأدب، كانت الحكومة تسهم بشكل كبير في مصاريف دراستهم، وكذلك ميريديث، لكن آشيا قررت العمل حتى يكون لهم دخل إضافي إلى جانب دخل أمها ومازن لتحسين حياتهم، فعملت في محل ملابس صغير في شارع فلوريدا، وفي وقت قصير استطاعت شراء جهاز كمبيوتر، كما نصحها هاشم ليسهل عليها الاتصال بأي شخص في العالم، وكذلك ليسهل عليها دراستها ومحاضراتها المعروضة على الشبكة العنكبوتية مباشرة، كان عليها أن تواكب تطور طرق التعليم في أمريكا، فتح لها النت آفاقًا كثيرة، لم تكن في حسبانها، فما عاد وقت فراغها مملًا ينحصر في دروسها فقط، بل تمكنت من الوصول للعديد من المعلومات، ومضت سنواتها بأمريكا بشكل مريح وهادئ.

على مدار السنوات، حافظت على محادثة بثينة بشكل يومي، كذلك عدنان، واستطاعت كذلك أن تتواصل مع هاشم في أي مكان في العالم يسافر إليه، وصارت علاقة وطيدة تربطهم بهذا الرجل الذي بقي في لائحة أقرب الناس إليهم، يحدثونه بكل التفاصيل، وكأنه صار فردًا من أفراد العائلة. كان العمل يملك ساعات صباحاتها المبكرة بينما اختارت جدول محاضرات مسائيًا، الدراسة مريحة جدا في أمريكا، حيث يمكنها أن تختار موادها والمواضيع التي تفضل وميعاد امتحاناتها، وكذلك مواعيد محاضراتها، وتبقي ساعات الليل التي بسبب اختلاف التوقيت تتقابل مع ساعات نهارية في سوريا، حين يكون قلبها راضيًا، تنام ساعات قليلة جدًا، لا تتجاوز أربع ساعات، وتقدر على المواصلة هكذا لأيام عديدة، كأن حزنها يبث في خلاياها الخمول بينما الفرح يغذيها بالحماس واليقظة، كما أنها انضمت لمجموعات تحفيظ على الإنترنت، حتى لا تدمر الإنجليزية لسانها في القرآن، وصارت تواظب على هذه المحاضرات اليومية في الحفظ والتفسير والفقه، وكونت صداقات لشخصيات إلكترونية تراهم فقط عبر الكاميرا.

كل أسبوع كانت تتصل بجدتها، لم تكن العجوز لتسمح لأحد أن يرد عليها سواها، فكانت الضحكات تغمر البيت في ذلك الاتصال القصير الذي يربطها بجدتها، تحكي لها كل شيء فرح وسعيد ومريح، فتطمئن العجوز، وتهدأ، وتدعو لها في الثواني الأخيرة للمكالمة، لكن صحة جدتها ازدادت سوءًا يومًا بعد يوم، شيء ما في قلب آشيا كان يخيفها في كل مرة تسمع نبرة صوت جدتها، فتطيل الحديث معها، وبداخلها هاجس أنها ربما تكون المرة الأخيرة، حتى اتصلت بها بثينة ذات يوم، فردت عليها مستغربة:

- أنا ناطرتكِ ع النت ليش ما عم تفوتى؟!

فاجأها صوت بثينة باكيًا، لم تستجمع الكلمات لتصوغها خلال دقائق كاملة، حتى استنفدت آشيا كل الأسئلة عن أي كارثة يمكن أن يكون قد حدثت، صمتت آشيا ثم

جاءها الخاطر فجأة فقالت:

- ستي صارلها شي؟

فاستنشقت بثينة بعض الشجاعة ثم قالت:

- أنا آسفة كتير آشيا.... سمعت الخبر من عدنان من شوي... ماقدر يتصل فيكِ... ماقدر يكون هو اللي بيحملك هيك خبر.

- هاد مستحيل... مو معقول... مو معقول يا بثينة لا تمزحي.... سكري هلأ وباحاكيكِ بعدين.

وقفت فاطمة على باب غرفتها بعد أن جلبها صوتها العالي، رأتها ترتعش دون أن تبكي، كانت تحاول الاتصال برقم جدتها، سألتها فاطمة عما بها لكنها لم تجب، فقط كانت تتصل بجنون على هاتف جدتها وهي تقول:

- مو معقول... مو معقول تتركني ستي... مو معقول منوب.

كم عدد المرات التي اتصلت فيها، لا تذكر، لكنها تذكر كيف احتضنتها فاطمة وهي تبكي غير مصدقة، استطاعت أن تخمن موت جدتها من الجنون الذي يطل عليها من ملامح آشيا، وحركة أطرافها المرتعشة، اتصلت للمرة العشرين فأجاب صوت ذكوري، كان هو، وحش كوابيسهم القديم، هربوا من بطشه وذله وها هو يخيفهم من هذا البعد، وهو لا يملك حيلة للوصول إليهم، أجابها بالسباب قائلًا:

- الله ينتقم منكم يا سافلة انت وأختك... ماتت بسببكن... ماتت من حسرتها على سمعة عيلتنا اللي وسختوها بأفعالكن... اصطمخ لحمكم... وسختوا بنات العيلة... انتو السبب في كل اللي مرينا فيه واللي عم نمر بيه لهلأ... بأطبق بايدي على رقابكن وأدفنكن أحياء..... وبا يقشك انت واختك وأمكم الزانية.

كانت آشيا تبكي وسيل الشتائم يغرقها، حتى أخذت فاطمة منها الهاتف وأغلقته في وجه عمها، ومسحت هذا الرقم من عليه، حتى لا يتصلوا به مرة ثانية، واحتضنت أختها طويلًا، ارتجفت الفتاتان لقلة حيلتهم أمام عمهم الذي ما إن أُزيحت أمه حتى انهال عليهم بالسب والشتائم، وكأنه كان ينتظر موتها حتى يفعل هذا. بعد أن انقشعت غمامة خوفهم منه، وتذكرهم للألم الذي كان يلحق بهم بمجرد سماع صوته، بدأوا يستوعبون الضربة القاسية التي شطرت قلوبهم، المرأة الأحب إليهم، أمهم الحقيقية التي أعطتهم من الأمومة ما لم تفلح أمهم بالدم أن تعطيه لهم، تلك المرأة التي بكوا على صدرها مرات ومرات، دفنوا بين أصابعها الحانية حزنهم لسنوات، وكانت ابتسامتها المشرقة وكلماتها المواسية المتفائلة تصنع شقوقًا في قلوبهم، ليدخل منها ضوء الأمل، انطفأ الضوء الذي كان يرشدهم، ذهب رحيق سوريا الذي كان يبقيهم مشتاقين لها رغم هربهم منها. جاء مازن من عمله ليستقبله البكاء، انهار لسماعه الخبر، حتى أمهم ميريديث شاركتهم الدموع، ماتت تلك المرأة بعد أن اطمأنت أنها أدت واجبها وأعادت الأمانة، أعادتهم لأمهم سالمين وارتاحت لوصولهم بر الأمان، فماتت هانئة، كل ما أوجعهم كان عزاؤها، كيف لا يكونون حاضرين في يوم كهذا ليتلقوا عزاءها؟ لعنوا السفر لأول مرة في حياتهم، اتصل

مازن بوالده لأول مرة منذ رحيله، أخبره الخبر باقتضاب رغم سباب أبيه له، لكنه لم يكترث، كان يريد أن يرجع إلى سوريا مع والده في إجازة لبضعة أيام حتى يتلقى العزاء نيابة عنهن، لكن ميريديث أبدت قلقها من الموضوع، وكذلك إخوته، أمسكت أطرافهم بثيابه ليمنعوه، تقطعت أحشاؤهم وهم لا يعرفون ما يجب عليهم فعله، كيف يعودون وكيف لا يكونون هناك في يوم كهذا؟ وجدت آشيا نفسها تتصل بهاشم عبر الإنترنت، وما إن شغل الكاميرا حتى رأى دموعها فسألها:

- شو بكي آشيا ليش عم تبكي هيك؟

- ستي توفت أمس.... خلاص راحت وماعاد بسمع صوتها منوب يا هاشم.... مابصدق لحد هلأ.... ماكنت أتوقع أنه يوم موتها ماراح كون جنبها أمسك بيدها... ماعندك فكرة عن الألم اللي عم عيشه هلأ وأنا بعيدة حتى مو قادرة أحضر عزاها.

- طولي بالك... الله يرحمها ويغفر لها.... بتكون بجنة الخلد بإذن الله.. بعرف قديش كنتِ بتحبيها وقديش كانت بتحبك.

ولما وجدها مستمرة في بكائها صمت قليلًا ثم قال:

- ماتقلقي أنا باحضر العزا كرمالكن راح أنزل على سوريا اليوم.

فشهقت واتسعت عينا آشيا قائلة:

- معقول بتروح اليوم؟ عن جد عم تحكي؟

- إيه طبعا... لو هاد بيخفف عنك باسويها.

- وعملك يا هاشم؟

- ماتقلقي علي يا حلوة..

ثم غمز لها، فقالت:

- لا يا هاشم ما بيصير تروح لسوريا وتترك عملك وكل شي هون مشان عم تتطلع فيني وأنا بابكي.

- عندي أوراق بدي أخذها معي لمديري.... وأخوي حكيتلك عنه ياللي بيشتغل في قطر هو هلأ في أجازة مع أهلي بسوريا وبانزل لحتى أقابله كمان.... يعني كنت بانزل سورية عن قريب في كل الأحوال.... ماتحملي هم... انت بس هدي حالك وارتاحي... بدك جيبلك شي من سوريا؟

فردت فاطمة بلا وعي قائلة:

- أي شي من ريحة ستي... الله يخليك.

- من عيوني.

ثم أشار لهم بيديه قائلًا إن عليه سرعة الاستعداد والحجز.... في كل يوم كان امتنانهم إليه يرتفع درجة تلو الأخرى، حتى باتوا لا يعرفون كيف يردون له كل ما

فعل وما يفعل وما سيفعل لأجلهم، توالت الأيام قاسية عليهم جميعًا، الحزن غلف وجوههم وعيونهم وكلامهم فصارت ميريديث حائرة لا تعرف ماذا يمكن أن تفعل لتخفف عنهم، مر أسبوع بطيء للغاية حتى عاد هاشم إلى أمريكا، واتجه رأسًا إلى شارع فلوريدا، كان يحمل كيسًا في يده، وما إن التقي بهم حتى سلمهم إياه قائلًا:

- متل ماوعدتكن..

تطلعت آشيا وفاطمة إلى بعضهما، ثم فتحوا الكيس بحذر، فقد أصابتهم حمى الخوف من أي شيء يتعلق بسوريا، حتى قال هاشم معلقًا على ترددهم:

- ما فيها وحش بيعضكن!

ابتسمت آشيا لتعليقه ثم فتحت الكيس وأخرجت منه قطعة قماش مثلثة الشكل، فردتها وقربتها إلى أنفها ثم شمتها، شعرت أن جدتها في تلك اللحظة تعانقها، وأن روحها قريبة جدا منها، همست في أذنيها بطريقتها المحببة (ياصغيرة شو حلوة اليوم) مثل ما اعتادت أن تقول لها في كل صباح، رائحة جدتهم انتشرت في الشقة، حتى خرج مازن من غرفته، وكأن أنفه التقطت تلك الرائحة، ظلوا يحتضنون الشال الذي كانت ترتديه في أيامها الأخيرة، الشال الذي اشترته من سوق الحميدية في ذلك اليوم، وأهدته لها، لم تتخيل أنه سيعود إلى يديها ويظل الذكرى الوحيدة لها من جدتها، بكت وهي تلفه حول صدرها لتستشعر أن جدتها تعانقها، وكذلك فاطمة أمسكت بطرفه وقالت باكية:

- كيف سويتها؟!.... كيف رجعت بيه لهون؟

- أنا وعدتكن ودوما بأوفي بوعدي.

فقال مازن:

- إيه بس كيف؟.... معقول حضرت العزا؟.... شو صار؟... الله يخليك ما تبخل علينا بكل التفاصيل.

- وصلني أخوي أنس بسيارته إلى دير مقرن قال أنه بيعرف الطريق... بعدين سألنا على عنوانكن وطبعًا كان سهل كتير الوصول... اتفرشت المنطقة حوالين بيتكن بالبسط والكراسي.... نحنا حضرنا باليوم التاني للجنازة... كتير كانوا حاضرين تقريبًا كل أهل القرية والكل كان عم يبكي.... والدكن كان هو اللي بيتلقى العزا باعتبار أنه أكبر أولادها الرجال على قيد الحياة لأنه سمعت أن لها ابن اسمه محمد توفي هو كمان.

- ايه عمي محمد الله يرحمه كان أحسن زلمة بالكون كله.... كمل الله يخليك.

- قعدنا بالعزا وما حدا سألنا نحنا مين.... لأنه الكل كان مشغول بالبكا.

فجأة قالت فاطمة:

- موسى كان هونيك؟

اندهش الجميع حين نطقت فاطمة اسمه، هل لا تزال تذكره أو تفكر به؟ رد هاشم مبتسمًا:

- هيك كانت الخدعة اللي اقترحها علي أنس أخوي لما حكيتله عنكن.... قلي مو واحدة منهم إلها زوج بأمريكا قلتله ايه.... قالي وهو هون؟ قلتله شو بيعرفني.... سالني طيب شو اسمه.... قلتله باتذكر بالأوراق بقسيمة زواجها كان اسمه موسى وهيك حكتلي يوم سجلت شهادة ميلاد ابنها خالد.... قام نهض أخوي وراح سأل شاب منهم لو كان موسى موجود... فحكاله أنه ما عرف يجي وماسنحتله الظروف بالسفر.... وقتها أخذني أنس وخرجنا للحديقة قابلنا صبية كانت عم توزع القهوة المُرة... تلقيناها من إيدينها وسألها أنس وهو عم يحاول يمسح دمعه.... خبيث كبير أنس.... خبرها أنه صديق قديم لموسى بأمريكا وحكالها شي كلمة انجليزي وقالها أنه بده يوصله أمانة أي شيء من ريحة المرحومة وذكرى خاصة من تيابها.... صدقتنا الصبية بعدين حكت لنا أنها بتسأل الست محروسة بس وقتها شوي قلقت فحكيتلها أنه مافي داعي لنزعجها وأنه نحنا مستعجلين.... جريت على جوة وأعطيتنا ها الشال.... بعدها خرجنا من الجنازة وماعاد شافوا خلقتنا.

ثم ابتسم مداعبًا، فلم تتمالك آشيا نفسها وضحكت وسط دموعها.... كانت خطة ذكية جدا فقالت له:

- ذكرني أشكر أخوك أنس.

- إيه ولو... نحنا عيونا كلنا إلكن.

- تسلملنا عيونك.... الله يكرمك ياهاشم.

رحل هاشم واعدًا لهم أنه سيظل على اتصال دائم بهم، أما آشيا فمنذ ذلك اليوم وهي تضع هذا الشال على وسادتها، تشعر بطمأنينة بالغة حين ترقد برأسها عليه، ثم تغلق عينيها متخيلة أنها تنام في أحضان جدتها، وتسمع هدهداتها مثل تلك المساءات التي قضتها في سوريا، في صباح اليوم التالي وجدت ميريديث بانتظارهم، كانوا يعلمون أنها إجازة، لأنه يوم السبت لكنها قررت أن تخرج معهم حتى يقضوا بعض الوقت الممتع سويًا، تلك كانت المرة الأولى التي تخرج فيها بصحبتهم، لم يأت مازن معهم، لأنه كان دائما يعوض ما فاته من محاضرات في ذلك الأسبوع بحضورها في عطلته، فلم تكن الجامعة تتوقف حتى في العطل، خرجت ميريديث برفقتهم وأرشدتهم لبعض متاجر الملابس، كانت كريمة في ذاك اليوم وقررت أن تكون كل المشتروات على حسابها الشخصي قائلة:

- إذا لم نصرف المال على من نحب فما فائدته؟

اشترت لهم بعض الملابس الشتوية التي تناسب الجليد القادم، حاولت التخفيف عنهم بطريقتها، شعرت فاطمة بالدفء وهي تراقب أمها تُلبس خالد الصغير حذاء على شكل دب بني. ساروا لاحقين بها، يرقبن الشوارع والذاكرة تهديهم صورًا من الماضي شيئًا فشيئًا، وتذكرن أن أمهن اعتادت التنزه معهن وهن صغار، وحين باحت لها فاطمة بهذه الذكرى ابتسمت قائلة:

- لازلتما تذكران؟ تلك الأيام الجميلة... كنتما قصيرتا القامة تمسكان بيدي الاثنتين ومازن كان يسبقنا راكضًا... وها أنتن معي الآن... جميلات وناضجات.

ابتسمن لها، فلفت ذراعيها حولهما، وأمسكت كل منهما يدها من الطرفين مثل السابق، مررن بشارع أوديل فتطلعوا إلى ذلك العالم الأخضر الضخم إلى يسارهم، وحين سألوها عن المكان قالت لهم إنها حديقة روسلون التاريخية، لكنها حاولت إيقافهم محذرة أنها بالأصل مقبرة كبيرة يرقد فيها أكثر من 5000 شخص، وهي ترجع لأوائل القرن العشرين، لكنهم كانوا مأخوذين بسحر المكان، أثار الأمر ذهولهم، فحتى مقابرهم أجمل من أفضل أعراس الشام، حول جثث بعض الموتى تكونت أجمل وأكبر حديقة وإبراشية، ساروا تحت ظلال أشجار البلوط الضخمة التي كانت فروعها في الأعلى بسمك جذوع الأشجار العادية، أوراقها تُحدث شبكة ظلال متشابكة، بين بعضها بعضًا وكأن أوراق الأشجار جميعًا متصلة ببعضها لو حاولت قطع إحداها لانهار الصف كاملًا، كأنها ترسم خيمة وهمية من الفروع فوق الطريق الرئيسي في الحديقة، الزهور ذات الأوراق الأربع والتماثيل الرمادية التي مال لونها للصفرة بمرور السنوات جعلت تلك الحديقة وكأنها متحف لروعة النحت، تكاد تقسم وأنت تنظر إلى التمثال أنك ترى صورتك في حدقة عينيه، وأنه يقصدك أنت ويتطلع إليك وعلى وشك التحدث معك، ثنايا ثياب التماثيل التي تشعر أنك لو لمستها لوجدتها ناعمة كالحرير، وخصلات شعرها المجعدة المتقنة النحت.

بعض التماثيل تشعر وكأن دموعها منحوتة على وجهها وجعًا على الموتى، والبعض الآخر صُمم وجهه وكأنه يتطلع إلى قبر شخص ما ويناجيه، ومنهم من نُحت وهو يصلي، في الجانب الآخر كانت الأشجار منحوتة لتكون كلمة روسلون كبيرة بشكل مائل على سطح الأرض، ثم تتناثر شواهد القبور في كل مكان، كلٌ محفور عليه اسم الذي يرقد تحته، تطلعت آشيا إليهم وظلت تقرأ أسماءهم هامسة وهي تتذكر جدتها، لم يعد مسموحًا لها أن تزور قبرها، تُدمينا أشكال القبور حين يرقد أحد أحبائنا فيها، حتى يصبح منظر أي قبر في أي مكان لأي إنسان كان يغمرنا بشهوة البكاء، وهذا ما شعرت به آشيا وأختها فاطمة وهن يتلمسن شواهد القبور حولهم، لم يعد بإمكانها إلا أن تدعو لها من مكانها هنا ليرحمها ربها.

رحلوا وقد تمنت أمهم أن يكونوا قد دفنوا أحزانهم هناك وتطلعوا إلى ما ينتظرهم في مستقبلهم.

دائما كانت الفتاتان تحبان خروجهما مع أمهن، يلححن على اصطحابها في كل عطلة ليقضوا النهار بالخارج، بمرور الوقت كانوا يحاولون التقرب منها، ومشاركتها حياتهم وحكاياتهم اليومية ومشاعرهم، لم يتحملوا برودها الأمريكي ولا عدم مبالاتها بتفاصيل حياتهم، وقرروا جعل علاقتهم بها فقط سورية دافئة، فكانوا يذيبون حاجز السنين والتقاليد بينها وبينهم شيئا فشيئًا، في إحدى العطلات كانوا يسيرون بسوق الخضروات القريب من منزلهم حين التفتت آشيا لتأخذ بعض ثمرات البندورة، فوجدت والدها أمام عينيها! أجل كان هو، رغم أن الشعيرات البيضاء احتلت مقدمة رأسه، رغم تلك المرأة الشقراء الصغيرة في العمر التي تتأبط ذراعه، رغم ابتسامته المشرقة المستفزة للعين والتي لم تعتدها منه، فلقد اعتاد التجهم في

وجوههم، تسمرت في مكانها وهي لا تصدق أن مثل هذه المصادفة يمكن أن تجمعها بأبيها الذي لم تره منذ أخذ أخاها مازن إلى أمريكا ورماهم خلفه، ولم يسأل عنهم قط، حتى إنه كان يجيب اتصالاتهم بشكل متقطع وبفتور، تغير لونه حين وقعت عيناه عليها، كأنه رأى شبحًا من الماضي ثم ضغط بيده على يد زوجته، وكأنه يستمد منها القوة، للمرة الأولى في حياة آشيا شعرت أنها في تلك النقطة أقوى منه، كانت مستقلة بذاتها، بحياتها، باحتياجها المادي إليه، أو بحنينها لدوره كأب، ببساطة لم يعد له مكان في حياتها ولا هدف ولا احتياج، وهذا بالضبط ما جعل الحيرة تصيبه، لم تبق للحظات حتى بادرها بالسلام، وكأنها زميل قديم غريب عنه، جاءتها فاطمة وكذلك ميريديث.

اجتمعت العائلة لأول مرة منذ سنوات أمام بعضهم بعضا بمصادفة فجائية، جعلت الشحوب هو السمة المشتركة لوجوههم، أدركت زوجته ميليسا أن هذه هي زوجته السابقة ميريديث وأن هؤلاء بناته، بعد أن عرفها عليهن، وهو يضغط على أسنانه ذاكرًا اسم كل واحدة منهن، ليس لأنه يشتاق لهم أو يحترمهم أو يفخر بهم، بل لأن اللياقة أجبرته على ذلك، أثارت ميريديث اندهاش بناتها وهي تكلمه بهدوء، وكأنه لم يكن يومًا زوجها ولم يؤلمها ويجرحها ويدمر حياتها، واندهشت هي من مقدار الألم الذي أحست به حين رأته، تذكرت كل ما مرت به هي وإخوتها، كل هذا المرار اكتووا بناره جميعًا، فقط لأنه أراد ذلك، فقط لعناده، فقط لأنانيته ورغباته، لامته آشيا على كل شيء، واحتقرته لكذبه، وغضبت أكثر حين رأته مع تلك الزوجة فلقد علمت من مازن أنه قد تزوجها منذ فترة طويلة، إذن فهو كان سعيدا مرتاحا، ولم يفعل كل هذا إلا ليتهرب من مسئوليتهم، ما آلمها هو الكراهية التي احتقن وجهها وروحها بها، كراهيتها لرجل من المفترض أن يكون والدها، جعلها تتألم، وتبذل جهدًا كبيرًا لمحاولة نسيانه والتعايش مع أذاه، حسدت أمها لأن الوقت أعطاها هديته، النسيان، وتساءلت كم تحتاج من وقت للتعافي من كل تلك الآلام، وكل تلك الجروح، سألها بكل برود عن دراستها وكأن هذا يهمه، كل ما كان يهمه هو فقط مظهره أمام زوجته الجديدة، يريد أن يظل أمامها متحضرًا مهتمًا بما يحدث لأبنائه، كانت هي الأخرى توزع ابتساماتها عليهم، وكأنها ممثلة وسط معجبيها، فقط انتفضت آشيا وهي تسألها عن مازن، لم تتوقع أنها تعرفه المعرفة التي تجعلها تسأل عنه، أخبرتها أنه بخير، فرد رامي وقد امتقع وجهه قائلًا:

- أعرف أنه الآن يعيش معكم.... ابعثي له سلامي... وأنت كذلك آشيا إذا أردت أي مساعدة لا تتردي في اللجوء إلي.... أنا وميليسا نزور باتون روج كثيرًا بحكم عملها، لذا سنكون متجاورين.... إذا احتجتني في مصاريف الدراسة لا تتردي في الطلب يا بنيتي.

- أنا مو محتاجة شي ماتقلق.

ترفعت عن مساعدته أخيرًا، بدا لها وكأنها فجأة قد أخطأت العنوان، وأن هذا ليس والدها قط، بل صورة من مجلة، مرت اللحظات بطيئة للغاية، لكنه كان مختنقًا بلقائهم أكثر منهم، لذا تركهم سريعًا متذرعًا بمواعيده، زفرت آشيا وسحبت فاطمة وميريديث بعيدًا، حل الصمت بينهن بهذا اللقاء، كل واحدة منهن غارقة في أفكارها

وآلامها الخاصة التي سببها، حتى مازن تغير لونه حين عرف أنهم قابلوه، تذكر مرحلة بشعة في حياته، تمنى لو أنه يفقد الذاكرة حتى ينساها، تطلعت إليه آشيا وهي تفكر، هل من الممكن أن يكون أخوها لا يزال يخافه؟ فلقد صار الآن هادئا مستقرًا بحياة جديدة، ولكن هل لا تزال مخاوفه تؤرقه من آن لآخر؟ هل يشعر بالندم لأنه هرب بهذه الطريقة؟ فلقد سجنه في مخاوفه طويلًا، لم يكن مازن يتحدث عن هذه السنوات التي قضاها برفقته، ولا ذكر الشقة القبر في كلماته قط، وكلما حاولوا سؤاله رفض الإجابة، أغلقت آشيا عينيها يومها ووقفت مع نفسها وهي تقول كفى، لقد أخرجته مني وصارت لي حياتي الخاصة، علي أن أنساه وأنسى كل ما سببه لي، ببساطة لأنه صار ماضيا وقد خرجت منه، استطاعت أن تتدثر بذراعي أختها التي جلست بجوارها، وانهالت بالقبل على الصغير خالد، لتحيط نفسها بوشاح من الدفء، فالدفء هو أفضل علاج لوجع الكراهية.

حكت آشيا لبثينة عن الثقافات المختلفة في ولاية لويزيانا، عن أماكنها المفضلة وعن التنوع الكبير في أعراق الشعوب التي تعيش في الولاية، كلما نظرت في الوجوه وجدت كل جنسيات العالم من الهنود الأصلين والأفارقة والأيرلنديين والإسبانيين والفرنسيين والإيطاليين ونسلهم المتشابك والمتداخل، حكت لها عن الاختلافات بين الشعب السوري من وجهة نظرها وهؤلاء الذين تتعامل معهم في الوقت الحالي، أخبرتها عن اختلافات نوعية الحياة وطبيعتها واختلاف الطباع والعادات والتقاليد، أرسلت لها بعض صور الإبراشيات العديدة الموجودة في ولايتها والتي تجاوزت العشرين إبراشية، أخبرتها عن حب شعب لويزيانا للطعام البحري ونكهاته وإقامتهم لاحتفالات كثيرة خاصة بنوعية الطعام، مثل مهرجان تشرين للمحار المميز الطعم بهذه الولاية خصيصًا، أرسلت لها صور عديدة لتلك المهرجانات، أخبرتها كم تحب زهرة الماجنوليا التي تتميز باتون روج بزراعتها في كل شارع، كانت بثينة مستمتعة جدًا بهذه المعلومات وظلت تنهم منها وتسجلها بحذافيرها لأنها قررت عمل برنامج قصير عن عادات الشعوب المختلفة، فمنذ دخولها كلية الإعلام وخطوتها إلى الأمام في اتجاه حلمها وهي تقرأ كثيرًا وتحب أن تعرف في كل الأمور، لم يتغير اهتمامها بالسياسة وانتقادها لكل ما يخص النظام، صارت عضوًا في الحزب الذي كانت تحضر اجتماعاته وهي مراهقة، وأخبرت آشيا أنها وُفقت كثيرًا في جامعتها وأنها قطعًا ستكون مراسلة مشهورة، أخبرتها كذلك أنها كونت صداقة متينة مع عدنان، وأنها تراه كثيرًا، ثم قالت ممازحة:

- طبعًا ماعم يمر يوم بدون ما يسألني عنك كأنه ماعم يحكي معك بشكل مستمر على النت مثل ما بتحكي معي هلأ.... حتى بعد ما انضم لكلية الشرطة ماخفف من تواصله معك... بتمنى لو يحبني حدا بها الشكل.... مابصدق أنك مابتعطيه وجه.

ابتسمت آشيا بخجل، لم تخجل من اهتمام عدنان ولكنها خجلت من عدم قدرتها على مبادلته هذه المشاعر، فقالت لها:

- صدقيني هو مثل مازن في نظري.... وأنا كتير بحبه بس مو بها الطريقة.... بتعرفي آخر مرة حكيت معه طلبت منه يستمع لكلام أهله ويخطب... هلأ صار

مناسب أنه يخطب.... حسيت أني آلمته وقتها بس مافيني علقه بشي مو موجود بأعماقي....

- ليش يا آشيا؟.... شو ناقصه هو لحتى يحبه قلبك؟.... مافي حدا سوالك متله.....

- نحنا ما بنحب الشخص مشان اللي فيه واللي ناقصه.... متل ما أمي حبت والدي.... وكان فيه كل عيوب الكون... مابدي كون متل فاطمة..... جربت تحب موسى وتقبلته برغم كل شي مشان قدرها وحاربت تا ينجح زواجها وبالأخير لعنته ولعنت اليوم اللي تزوجته فيه لأنها حبتها بس مشان كانت بتريد أنها تحبه... بس برأيي الحب بيجي فجأة مو بإرادتنا.... وما بنختاره ولا بنختار الشخص اللي بيدق قلبنا له.... ببساطة هو بيرمي سهمه بشكل عشوائي وبدون مبرر منطقي... متل أسطورة كيوبيد..... نحنا مو بنحب الشخص لأنه مناسب نحنا بنحبه لأننا بنحبه وبس.

- من يوم سافرتي ع أمريكا وصرتِ فيلسوفة....

فضحكت آشيا وهي تكلمها، فأكملت:

- وشو رأيك بهاشم؟

- شو فيه هاشم؟

- ماحبيتيه كمان؟

- هاشم؟... معقول عم تحكي؟... مافكرت فيه بالمرة بها الطريقة.

- ليش؟.... شو فيه هو التاني؟

- مافيه شي بس أوقات باحسه متزوج - كل ها السنوات حكيتِ معه مافكرتي تسأليه مرتبط ولا لا؟

- مو هاي القصة... بأعرف أنه مو متزوج.... بس لما بيتعامل معي أو مع أختي فاطمة بأحس كأنه متزوج.... بأحس كأن في امرأة بحياته.... قد ما بيكون قريب منا قد ما بيكون بعيد..... بنحكيله تفاصيلنا وبيضل هو غامض... يحكي عن المحيط يالللي حواليه بس مابيحكي عن اللي بداخله أبدًا....

- انطريه لحتى يجي لأمريكا وحاكيه وجهًا لوجه... حاولي تقربي منه.... الرجال الحقيقين كتير نادرين...

- هو كان بأمريكا من شي شهر... هلأ هو بسوريا.

- خلاص بعتيلى ياه.

فضحكت آشيا لكلمات بثينة، لم يكن هذا الحوار الأول من نوعه، بل إن نفس هذا الحوار قد مرت به مع أختها فاطمة، أدركت أن فاطمة لم تتمكن من منع نفسها من الإعجاب به، لشدة ما تسأل عنه، وتحاول محادثته، كانت آشيا تقلق عليها، تخاف أن تكون قد وقعت في حبه لأن قلب فاطمة ليس مثل قلبها، قلب ضعيف بأمسِ الحاجة للحب على الدوام، تبث حبها وقلبها لخالد لكن بياتها بين حضن رجل يحبها ويحميها

كان ينقصها، كلمات خالد القليلة كانت تخفف عنها وطأة الوحدة، حين يركض إليها ويحتضنها، كانت تشعر بكل حب وسعادة الكون، ولكن كلما راقبتهم آشيا تساءلت هل هذا كاف لفاطمة؟ تعلم أن فاطمة لا تستطيع أن تعيش دون رجل، دون حب، تعلم أنها لا تزال تفكر بزوجها الذي يعيش في نفس المدينة، والذي رماها خلفه منذ سنوات وحتى بعد أن وصله خبر قدومها إلى أمريكا، لم يفكر في التواصل معهم، تعلم إحساسها رغم أنها لم تذكره أمامهم قط، لكن منذ موت جدتها، وحين سألت هاشم عن موسى وهي متأكدة أنه لا يزال حيًا في تفكيرها، متواريا خلف كبريائها، ولكنه موجود، ربما تحاول الهرب من التفكير فيه حين تُكلِم هاشم، مقارنة خاسرة قطعًا بين الرجلين، فهاشم فيه كل ما تمنته فاطمة بل وكل ما تتمناه أي فتاة، لم تتكر أنها تمنت لو أن هاشم يتطلع إلى فاطمة بعين الإعجاب، تمنت لو أن تلك المرأة التي تحس بها في نظرات عينيه وفي غموضه مجرد تخيلات منها، ليس لها أي وجود، وجدته موجودًا على النت، فقررت أن تسأله صراحة، ضغطت زر الاتصال به لكنه لم يجب، استغربت، فهي المرة الأولى التي لا يجيبها فيها، تساءلت هل لأنه مشغول مع تلك الفتاة التي تتخيلها، اتصلت به من جديد فأجاب الاتصال، فتحت الكاميرا أمامها وظهرت صورته، لم يكن هو، كان رجلًا آخر يبتسم، صمتت للمفاجأة، وشعرت بأصابعها تتحرك وحدها لتضبط خصلات شعرها وياقة ثوبها، فقال محدثها:

- هلا وسهلا.... باعتذر هاشم بالحمام... أنا كنت عم استعمل الجهاز لحتى يرجع.... جيت أكتبلك رسالة لقيتك بتتصلي مرة تانية.

- آسفة ماكنت بعرف أنك مو هاشم.... آسفة.

- أنا اللي باعتذر.... انت أكيد الهاربة الخارقة موهيك؟

فاجأها التعليق، فضحكت، وجلجل صوت ضحكته، أعادت التطلع إلى ملامحه، إنه يعرفها، فلا بد أن هاشم حكى له عنها، يشبهه كثيرًا لكنه يبدو أصغر سنًا، فسألته:

- انت رفيقو لهاشم؟

- لا أنا أخوه.

- انت انس؟

اندهش هو الآخر أنها تعرف اسمه فابتسم بترحاب:

- بتعرفيني متل ما بعرفك...

- طبعا باعرفك... بس انت شو بتعرف عني؟

- كنت باعرف عنكم بس اللي حكاه هاشم عنكم.... صرت باتخيلكم متل الفتيات الخارقات!

فتوالت ضحكات آشيا لمزاحه ثم قالت:

- من زمان كان بدي أحكي معك وأشكرك ع اللي سويته... كنت كتير سعيدة بوشاح ستي..... كتير ممتنة إلك.

- لا تحكي هيك... من يوم حكالي هاشم عنكن.... وأنا كنت باتمنى أقدر أساعدكن.... كتير أثرت فيني شجاعتكن... مغامرة تستاهل فيلم اللي مريتي فيها أه؟

وضحك، فضحكت كثيرًا لتعليقه، لم تدر كيف شعرت وكأنها تعرفه منذ مدة طويلة وفكرت في ذهنها أن ذلك ربما للتشابه بينه وبين أخيه، تحدثا في مواضيع جانبية حتى ظهر هاشم في خلفية الكاميرا، وهنا نهض انس قائلًا:

- راح أتركك مع المتعوس.... مابعرف كيف بتتحمليه.

فدفعه هاشم ضاحكًا، مال أنس برأسه، وأشار إليها بيديه على جبهته بتحية عسكرية وقال لها:

- بنلتقي بوقت آخر أيتها الخارقة.

فخفضت عينيها خجلًا وهي تضحك، في ذلك اليوم تحدثت كثيرًا مع هاشم، دون أن تذكر السبب الذي جعلها تحدثه، نسيت ذلك السؤال الذي كانت نفسها تلح عليها بسؤاله، فقط ارتاحت بتغير دفة الحديث إلى ذلك الأنس.

تبقى المرأة متوازنة حتى تتذوق رجلًا ما،

فيخلطُ في داخلها كل الأشياء، بدءًا من لسانها،

ومرورًا بقلبها وماضيها وحبها ووفائها

محمد حسن علوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

12

تبقى الشاشة أمامك سوداء للحظات، ثم تظهر صورة من يحاكيك في الفيديو، يقيس قلبك المسافة بينك وبينه، يحسب عقلك كيف كنت ستعيش لولا هذه التكنولوجيا التي تخفف عنك أنين شوقك لمن تحب، هكذا كانت تشعر آشيا كلما رأت عدنان أو بثينة أو هاشم عبر الإنترنت، كانت تمضي بعض الوقت أحيانا في تخيل حياتها السابقة، وطفولتها، لو أنها تمكنت من التواصل مع أمها بهذه الطريقة، وأخيها حين سافر، كانت قد محت الكثير من دموعها عبر السنوات، لكنها كانت تنفض عن نفسها الذكريات، كلما فُتح بابها، أحكمت إغلاقه بسرعة حتى لا تتكاثر عليها وتلتهمها، نفضت عن نفسها كل ما يتعلق بالماضي، حتى لغتها العربية صارت ثقيلة على لسانها، تفضل لو تتحدث الإنجليزية، اللهجة السورية تذكرها بتلك الوجوه والصفع والصراخ والبؤس، النسيان تعلق فقط بذكرياتها السعيدة، وحُفر الألم فيها، فصارت صورة سوريا تحمل في ذاكرتها الألم، بقدر ما كانت تسعد برؤية من تحب، كانت ملامحهم تذكرها بالألم، كلما تطلعت في وجه بثينة - الذي لم يكبر بمرور تلك السنوات، فقط تغيرت تسريحة شعرها- تذكرت المدرسة وعودتها منها وعمها محمود حين كان ينتظرها ليُشفي غليله بضربها أو سبها، حين عاد خالد في ذلك اليوم من الحضانة، يسأل أمه لم ليس لديه أب، بعكس زملائه، تألمت، تذكرت ما حصل لأختها وكيف بيعت كجارية في زواجٍ لا تريده، من أجل تحقيق أحلام موسى وأمه، تداخلت أفكارها ومشاعرها حتى فتحت الكاميرا، وظهر عدنان أمامها، فانسحبت أفكارها المشوهة خلف ابتسامة دهشة، وهي تراه ببدلة عمله، طلبت منه مرارًا أن يرتديها وهو يكلمها لكنه كان ينسى، ضحك بخجل وهي تصرخ منبهرة قائلة:

- يا محلاتك... قديش وسيم ماشاالله عليك..... فعلا ها البدلة تلبقلك كتير.

- وانت بعدك حلوة آشيا... خدودك صاروا يبتسمو موردين... عيونك الوساع... اشتقت حاكيهن ويجاوبوني.

- شلون عم تحكي هيك.. عم تغازلني؟.... خلاص صار لك خطيبة تغازلها وفر كلامك إلها.

كلما ذكرت آشيا خطيبته سلمى، تتغير ملامحه، لا تدري أيتضايق لأن أهله من رشحوها له وأجبروه على سرعة ارتباطه بها، أم لأنه كان يحبها فيما مضى، ولا يريد أن يأتي على ذكر امرأة أخرى أمامها، بالطبع كانت آشيا مندهشة حين ذكر لها عدنان أن سلمى تعلم بحديثه معها، حتى سألته بقلق:

- وما عم تمانع؟

- أنا خبرتها إذا بتمانع مافي داعي لحتى نستمر بالخطوبة... خبرتها أنك كتير مهمة بالنسبة إلى وإننا...

ثم صمت ليجبر نفسه على نطقها:

- إننا رفقات كتير مقربين من الطفولة ومافيها تبعدني عنك.

- وافقت بالأخير؟

- إيه.... ماحكت كتير... أوقات بتسألني عنك.... بتقلي شو أخبار رفيقتك الأمريكية... عم تتخيلك متل الأجنبيات بالأفلام.

ثم انحنى بظهره ضاحكًا، فابتسمت بحذر، لم يكن عدنان يحافظ على الحدود التي صارت بينهما حتى بعد أن صار مرتبطًا، وكأنه لا يعترف بوجود هذه السلمى في حياته، حتى آشيا، ليست هذه فقط هي المشكلة، بل إنه تغير كثيرًا عما كان عليه حين كانت في سوريا، ومنذ أصبح شرطيًا صار عصبيا متقلبا، لامت نفسها في لحظتها وهي تتحدث عن وسامته، فقد وعدت نفسها أن تلتزم معه في الحديث، حتى وإن لم يفعل هو، حاولت أن تغير الموضوع سريعًا فقالت:

- بدي شوفها لسلمى... فرجيني صورتها.

فنهض من مكانه باستسلام، رأته يسير ليأخذ محفظته من فوق طاولته، فتحها وأخرج منها صورتها، لامس قلبها وهو يحمل صورة خطيبته في محفظته، كانت تلك المرة الأولى التي تمنت حقًا أن تكون مِلكًا لرجل، لحبيب، شعرت باحتياجها للحب وتمنيها لو تصير مكانها، ألصق الصورة بعدسة كاميرا جهازه، فرأت ملامحها، كانت حقًا جميلة، وهذا ما اعترفت له به، فسحب الصورة وتطلع إليها وكأنه يحاول أن يبحث عما رأته آشيا من جمال، ثم لوى فمه بسخرية، فلامته آشيا، كانت تلومه دائمًا لأجل سلمى، فيرد قائلا:

- شو فيكن؟ رفقات في حزب النساء؟ ليش عم تدافعي عنها هيك وكأنها أختك بالرضاعة.

حتى حين صار الحديث عن عمل عدنان، وعن المساجين والنظام المتبع، كان عقل آشيا منحصرًا فقط في تلك الصورة، تلتقط بعض أطراف الكلمات، كان يتحدث عن بعض السجناء السياسيين، فخرجت من خيالاتها، وركزت في كلامه، تذكرت فجأة بثينة وتحدثت معه عنها فقال:

- بثينة كتير مجنونة... ماتفهم عن شو عم تحكي لأنها ما بتعرف الحقيقة على أرض الواقع... مثلًا عملي أنا مخليني أشوف كل شيء واتأكد ان مثلها اللي عم يدمروا بلدنا... إذا حكيتيها حاولي تقنعيها ماتكون متهورة... مابعرف شو بتستفيد من مقالات وصف الفساد ياللي عم تكتبها... بدها تولع الناس؟.... والله كتير بأحكي وياها قلها أنه ممكن في أي لحظة ينقبض عليها من اللي عم تكتبه... وما راح اشفق عليها وقتها... بس مافي فايدة هي متل الجواد الجامح.

- بس مو صح أنها تسكت عن الوضع يا عدنان أعذرها.

- تسكت على شو آشيا انت التانية اللي عم تشوفه بثينة ماله وجود من الأساس... اللي عم يشحنها مشان مصالحه هو اللي مصوره إلها... شو استفاد اللي حكى واللي

أهان حزب البعث أو الرئيس الأسد؟..... كلهم عم يتعذبوا بالسجون... البلد مو بها السوء إلا بسبب الناس اللي بيهمها الكرسي وبس....

هي اللي عم تجيب معلومات مغلوطة... ولا الاعتراض والمشاكل والمنواشات بتجيب نتيجة..... وأنا مابدي شوفها بالسجن.... مابدي مصيرها يكون متل مصير خالها.

- شوبه خالها؟

- شو؟.... شلون مابتعرفي... كل اهتمامها بالسياسة من الصغر بسبب خلفية عيلتها السياسية.... مو مستغربة من كم الحرية ياللي عم يعطوها في حركاتها والاجتماعات الحزبية وحضورها ليها.... موحكيتيلي شي مرة عن هيك..... خالها عاش بالسجن من سنوات طويلة... ولما افرجوا عنه سافر برا ومارجع لهلأ... أصلا الإفراج عنه كان معجزة.

- وليش دخل السجن يا عدنان؟

- ناشط سياسي عم يحكي كلام بيدمر عقول الناس.

- اللي يسمعك يخاف منك يا عدنان.

- أنا ضد الخراب.... ضد اللي عم ضيع حاله وحياته متل بثينة مشان مصالح واحد بده كرسي ولا منصب..... نتظاهر ونسب الحياة والبلد وكل اللي تبع حكومتها..... ممكن يتغير الفساد بإننا نعمل كتير مشان وطنا... مو بالمعارضة والمظاهرات.

- ولك أصلا في مظاهرات؟ أنا بأعرف أنه مابيحصل ها الشي بالمرة.

- إيه ماحدا بده يضيع حاله مشان معارضة فارغة... بالأخير نحنا اللي بنعمل عشان حالنا ينصلح.... نحنا الأفراد... بس الله يخليكِ لا تنسي تحكي بثينة.

- بتعرفها كتير عنيدة ما راح تسمعني.

فكرت كثيرًا في كلام عدنان، لو أنه أُمر بالقبض على فتاة مثل بثينة، لما تردد لحظة، لم تشغل عقلها ومشاعرها قط بما يحصل في وطن لم يعد وطنها، لكنها كانت تشعر بالقلق من انحيازه، كانت أحيانًا تقارن بينه وبين أنس الذي تعرفت إليه من فترة قريبة وصادقته، والذي ما إن كانت تتطرق بشكل غير مباشر إلى سوريا سياسيًا، حتى تعجز لآخر الليل عن أن تُسكته، كانت تحتار بينهما، لأن الاثنين يدافعان بشراسة عن معتقداتهم، لكنها ما عادت تبالي، تجردت من سوريتها كليًا وصارت تنظر إلى الشعب السوري وكأنه شعب في وطن آخر، يحمل لونًا غير لونها، تتعاطف معهم إنسانيًا للأزمات التي يمرون بها فقط ليس إلا، إخوتها شاركوها شعورها، حتى مازن، حين اتصل به والده فجأة على هاتفه لم يجب، اتصل به مرات عديدة على مدار أيام ولكنه لم يجب، أراد المضي بحياته وكأن سوريا وأهلها لم يكونوا جزءًا منها قط، كلما سألته عن سبب عدم إجابته قال:

- متل ما نسي أولاده... لازم نحنا كمان ما ننسى أنه كان والدنا بس بالدم.

ندمت كثيرًا حين اتصلت به من هاتفها، ظنت أنه سيقول شيئًا مختلفًا، ظنت -كما في الأفلام- أن المخطئ سيشعر بخطئه في النهاية، ويُعاقب في حياته على ما سببه من ظلم للناس، غير حسابه في الآخرة، لكنه كان يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، حتى إنه تجرأ أن يخبرها أنه يتصل بمازن لأنه بحاجة إلى المال! قالت له بسخرية:

- مو حكيت أنك بتساعدني بمصاري دراستي إذا احتجت شي؟

- حكيت هيك قدام زوجتي مشان هي مابتعرف شي... هلأ أنا عم مر بأزمة آشيا بس أعطيني شي خمس آلاف دولار وبرجعلك ياهن إلك بعد شهر واحد حتى تمر ها الأزمة.

أسبلت عينيها بحسرة، وتحجرت نبرتها:

- وليش ما تطلب من زوجتك.. الأمريكيات ماعندهن عُقْد الرجل الشرقي اللي مايصير مرته تصرف عليه.

- أكيد ما بترضي أن بابا ينذل قدام مرته.

- لسنوات ما قلت ها الكلمة.

- أي كلمة؟

- بابا.

فصمت، كانت فقط تفكر بصوت عالٍ، وقبل أن يكمل كلامه المعسول الذي ما سمعته قط في حياتها، إلا الآن لمصلحته، كانت قد أغلقت الخط، حكت لأمها ما حدث، فأكدت لها أن هذا كان يحدذ معها بشكل دائم، وأكملت ناصحة:

- لو سألتني قبل أن تكلميه لحذرتك من هذا الموضوع.... رامي في الخمسينيات ومع ذلك لا يزال يتصرف وكأنه مراهق.... يتذكر فقط النساء والخمر... وينسى ما عليه من مسئوليات... نسي أنه تنصل من مسئوليتكم.... وها هو الآن يتصل مرات عديدة بكم، فقط لأنه يريد المال.... آشيا لا تتصلي به... وإلا سيظل يبتزك كل مرة بحجة مختلفة لأخذ بعض المال.

أكد مازن كلامها، وباح بقليل مما مر به في أثناء بقائه في الشقة القبر، فرغم كل شيء كان والده يأخذ النصيب الأكبر من راتبه، بحجة الديون والضرائب، وحين تطلعن إليه بإشفاق سكت عن الكلام، وأدرك أنه ذكر أمامهم بدون وعي آلام جرح بأعماقه، لم يكونوا على علم به، وحين علموا تبددت دهشتهم لرفضه القاطع تذكر الماضي أو التحدث والتعامل مع أبيه، تصاعدت موجات الألم داخل آشيا، فلجأت إلى مُصحفها، ظلت تردد الآيات وتحاول حفظها، دخلت على النت وكلمت مُحفظتها المصرية آلاء، كانت تقرأ القرآن أمامها، والأخرى تصحح لها أخطاءها، كلما شعرت آشيا بالضيق كانت تفعل هذا، وتلجأ لمُحفظتها لتشرح لها بعض معاني الآيات أو تقرأ هي بنفسها في كتب التفسير الإلكترونية التي حملتها آلاء على منتدى القرآن، المجتمع القرآني الذي أحاطت نفسها به، كان يساعدها كثيرًا في المحافظة على الجزء الشرقي الوحيد المتبقي منها.

كونت صداقة مع آلاء رغم السنوات العشر الفارقة بينهما، في كل مرة كانت آشيا تبوح لها ببعضٍ من شكواها، كانت تربط على قلبها ببعض الأدعية والآيات، نصحتها مرارًا بالزواج حتى حين قالت لها إنها في أوائل العشرينيات، كانت آلاء تؤكد لها أن الزواج في سنها مناسب جدا، ذكرتها كثيرًا أن جنسية الزوج ليست معضلة، فعليها أن تقبل بأي رجل طالما معيارها هو دينه، ابتسمت حين سرحت مفكرة في كلامها، وأفاقت على صوت أنس يقول:

- له شلون عم تضحكي بلاي.... يلا ضحكيني معك.

صداقة متينة جمعتها في الفترة الأخيرة بأنس، بينما كانت تحدثه بشكل دائم على الإنترنت، أساسها كان الامتنان، ثم بنيا سويًا فوقه طوابق من الفضول، فضول لحياتها وماضيها ومغامرتها وتفاصيلها الصغيرة، وفضولها هي الأخرى لشخصيته الجذابة الفريدة التي تشعر كأنها مغناطيس يشدها دون مقاومة، في البداية كانت تحدثه من بريد هاشم كلما تحدث إليهم ولكن حين عاد أنس إلى قطر، حيث يعمل في شركة من شركات النفط، صارت تحادثه على بريده الشخصي، ردت قائلة:

- انت.... انت اللي بتضحكني.

فاتسعت ابتسامته قائلًا:

- شو ها الحظ ياللي من السما... يا خي شو ها الهنا.... بالظلام عشنا سنة وراها سنة... لحتى ابتسمتِ.... وسحر الهوى مني دنا.

اخفت آشيا فمها بضحكة خجول وقالت:

- قديش بحب شعرك المرتجل.... ماأدري كيف بتسويها.

- ولك شو بيعرفك يا صاحبة الأدب الأجنبي انتِ... تاركة الجواهر الثمينة وعم تضيعي وقتك في فحص الجواهر الزجاجية.... شو بيعرف الخواجات في الأدب؟.... وشو لقيتي بكلماتهم ما لقيتيه فينا؟... اقري حروف محمود درويش.. ماقريتيله وهو بيكتب بدمه:

لأني أحبكِ، خاصرتي نازفة

وأركض من وجعي في ليالٍ يوسِعها الخوف مما أخاف

تعالي كثيرًا، وغيبي قليلًا

تعالي قليلًا، وغيبي كثيرًا

تعالي تعالي ولا تقفي، آه من خطوةٍ واقفة.

راقبته وهو يحرك يديه ويتلاعب بنبرات صوته، بنغمة رقيقة، يحكي بها كلمات الحب تلك، وكأنه يرميها بمعناها، وحيد كان في غربته في قطر وهي وحيدة في غربة قلبها الخالي تشعر وكأنها ظِل يسير دون صاحبه، اعترفت وهي تستمع لصوته يتلو عليها الشعر أنها تحمل مشاعر تجاهه، ذلك الإعجاب الذي جعلها تتلقف

دعوته للصداقة دون مقاومة، تلك النبضات المرتبكة في حضور ضحكته، تساءلت كثيرًا عن سر إعجابها به، لم تصل لإجابة محددة، لكن ضحكته قطعًا كانت مفتاح قلبها، حين يضحك تتحرك خصلات شعره فتنزلق على جبينه، وحين يفيق من نوبة ضحك يعيد ضبطها فوق رأسه، كم كانت تحب تلك الحركة كثيرًا بل إنها امتهنت إضحاكه حتى تحصل على هذا المشهد، تفتعل النكات ويبدع عقلها في خلقها، رحيق البهجة يفوح منها قبل وبعد حديثها معه، فتظل تنثره على جميع من حولها، أكثر ما أعجبها فيه هو صراحته في الحديث معها، أي شعور يخطر بباله كان لسانه يبوح به لها دون تجمل، واستماعه لها واهتمامه بمعرفة كل تفاصيلها، حكت له على مدار أيام كاملة ما عانته في سنوات، استمع لها وسألها تفاصيل فوق ما حكتها، كانت تحس بفرحة كبيرة كلما شرحت له حدثًا فيقول لها:

- شو حسيتي وقتها إحكيلي؟

فتخفض عينيها وتظل تحكي وتحكي، دون أن تدقق في أي كلمة تقولها، فقط تخبره ما بداخلها دون هندمة أو تمييز، في كل مرة تفهمها، في كل مرة احتواها، في كل مرة كانت تشعر أنه قريب جدًا منها، مثل قرب تلك الشاشة التي تحمل صورته إلى عينيها بغض النظر عن المسافات، منذ بداية صداقتهما لم تدرك سر اهتمامه بتخصيص وقت لحديثه معها والاستماع لها، ظنت في البداية أنه الفضول، أو علاقة هاشم بهم، لكنه بمرور الوقت جعلها تفهم أنها مسألة شخصية تتعلق بها وحدها، في كل مرة يتصل بها يحمل لها في جعبته إحساسًا جديدًا، اعترفت لنفسها أنها أخطأت حين تركت قلبها له دون أن تقيده أو تحد من اندفاعه عكس ما بقيت عمرها كله تفعله، كبر الحب شيئًا فشيئًا في كلماته وتعبيره لها، في صدقه معها ووصفه لكل ما يحسه.

سألته عن حياته في قطر فابتسم بصمت وغير الموضوع ثم اتصل بها في مرة لاحقة من هاتفه بالكاميرا وهو يسير بسيارته في شوارع المدينة، اندهشت لاهتمامه بطلبها كلما سألته شيئًا أو طلبت منه شيء يبتسم وفي اليوم التالي يحمل لها أكثر مما تتمناه، سار بها في شوارع قطر وظل يحرك الكاميرا لتلتقط ناطحات السحاب، سار بها في أجمل وأعرق الأماكن، حتى إنه علق الكاميرا على معطفه، وسار بعينيها وسط سوق واقف الشعبي، يظهر وجهه فجأة بين الحين والآخر وهو يشير بيديه إلى المبنى الحجري القديم المكون من طابقين، يلونهما أصفر باهت، التقت مع الأصالة والعراقة في تصميم المكان القديم جدا، وحكى لها أنس كيف أُعيد ترميم المكان أكثر من مرة على مدار السنوات، جلس يأكل في أحد المطاعم هناك بعض الأكل الشعبي، وهي تتطلع من خلال الكاميرا لطبقه ويديه وهو يلتهم الطعام، كان يحدثها غير مبالٍ بتطلع الناس إليه، وهو يبدو كمن يحدث نفسه وصوتها يتسلل إليه عبر سماعة الأذن، مجنون! هكذا حدثت نفسها، لم يبال بتكاليف المكالمة ولم يبال بنظرات الناس، فقط كان يريد إسعادها، كان يتحدث بطلاقة عن الحياة في قطر فقال:

- شفتي أقدم وأشهر سوق بالدوحة؟... عم يذكرني بسوق الحميدية عنا.... المهم ياستي..... النفط هون أكتر من المي.... لهيك كتر المال يعلمك تنسى السرقة... مافي

ولا حادث سرقة واحدة هون.... القطريين بيتركوا سيارتهن مفتوحة ويرجعوا بعد ساعة أو تنتين يلاقوها متل ماهي.... من كتر المصاري إللي مالها منفذ صاروا يهدون البيوت ويبنوا بدالها شي كل سنة... بيحبوا الجديد دوما... يوم رجعت من إجزاتي بسورية لقيت شارعي صار كتير مختلف وكتير من مبانيه تغيرت.... بتعرفي هون القطريين نادرين.... وما بيحبوا يتمركزوا بالدوحة.... بيصيروا في المدن الصغيرة اللي حواليها مشان الزحمة... أصلا كلهن على بعضهمن ما يكلموا 200 ألف.... والباقي كل الجنسيات.

ثم أشار بيده إلى سيارة الشرطة، وجعل عدسة الكاميرا تتركز على وجه الشرطي، وقال:

- شوفي الهندي.... البوليس هون كله باكستانيين وهنود... حتى الجيش.... البلد مافيها غير أجانب.... ماعاد تلاقي فيها روح الخليج.... كأنها لوحة مكونة من أجزاء مقصوصة من لوح من مختلف بلاد العالم.

ثم ركب الجندول الخاص بمول فلاجيو، حملته المياه الصافية بين المحلات، وهو يصور لها، ويشير بيده لروعة الألوان ما بين الأحمر والأصفر والبني والمعمار المزخرف بالنقوش والمصابيح الثلاثية الطويلة، التي تزين المكان، والنوافذ الزيتية اللون، والمثمنات والمكعبات المرسومة بدقة أسفل قدميه على الأرض بألوان متداخلة والقبب والدرج الذي يعلو طريق الجندول، ليرسم جسرًا بين دفتيه تَحِفه الزهور المتفتحة على مدار السنة، كان يشعر بنشوة كبيرة وصوتها يعانق أذنيه مذهولة:

- واااااو.... يالله قديش حلو... معقول؟.... شوف كيف؟

فيضحك ويستمر في تجواله، لف الكاميرا في نهاية رحلته، فرأت وجهه من منظور عين النملة، كان يتطلع أمامه وهو يقول:

- كل ما امشى لحالى هون بالشوارع... بحس بوحشة ووحدة مافي متلهم.... بأتذكر بأول اسبوع جيت فيه لهون بكيت وأنا عم سير مابأعرف وين أنا ولا كيف بارجع... نسيت اسم الحي ياللي كانت شقة رفيقى اللي سكنت وياه بها الفترة.... ماحدا من هادول الأجانب تعاطف معي أو فهم حتى لغتي... مافهمت عربيتهم ولا فهمت إنجليزيتهم.... لغاتهم متل البلد بدون معالم محددة ولكنات كتيرة ماتفهمي منها شي.... بكيت واناعم أمشى الوحدة والمرار والنظام ببلدي اللي رماني برة أدوب الصخر مشان أذوقلي رشفة مي.

صمت لدقائق ثم أكمل:

- بتعرفي هلأ في أدلب مدينتي الناس بيتأمأموا بالمية الوسخة مابعرف إذا بتصير صلاتهم مضبوطة بس ماعندهم حل تاني... إلى كتير أصحاب ومعارف عاطلين عم يحسدوني على غربتي.... لأنهم عم ينذلوا على أرصفة السفارات ناطرين أي فرصة يطلعوا بيها من فساد البلد والبطالة وقلة التعليم ونظام الخيار والفأووس.... كل ماكنت حاكي حدا من أصحابي المهندسين المحترمين ألاقيهم ع القواهي بيندبوا

حظهن ويحسدوني... اسكر الخط وأنا عم اتطلع بوحدتي وحياتي اللي مالها معنى ولا هدف وأقول على شو بيحسدوني وأنا عم أبكي كلمات ماعارف اتبادلها مع حدا هون..... هيه المهم كله صار ماضي..... انت هلأ معي آشيا.

ألمه أخرسها، وظلت تستمع لرأيه ومعاناته، وهي تمسح دموعها، أحس بشهقاتها فأكمل:

- طوق نجاتي انتِ.... ونور ظلامي انتِ... وكل الحنان بعد ما جافتني الدنيا كتير.... بالله عليكِ ماتتركيني منوب.

فأفلتت منها شهقة لاحتياجه لها وقالت:

- مابتركك أنس.... مابتركك.

تطلعت إلى ملامحه، وجهه يشي بمشاعره التي رفعته إلى عنان السماء، وتدثرت عيناه بالدموع، فمسحها بسرعة، وأغلق الكاميرا ليكمل حديثهما من شقته الصغيرة، غير ملابسه وجلس أمامها ببيجامته اللبنية، شعره مشعث وعيناه ناعستان، حدثها بصوت خفيض قائلا:

- شو هي أمنيتك آشيا خبريني.... اليوم أنا جني.... خبرتيني بدك تشوفي قطر وهلأ فرجيتك إياها.... لسا عندك أمنيتين كمان بعدها اختفي واتحرر من القمقم.... خبريني.

لفت آشيا عينيها دورتين، ثم عادت إليه وقالت:

- بدي حس أنك حقيقي.

- لك شايفتيني كرتون؟.... عم تمزحي معي أه؟

- لا لا.... بس.... كل ها الفترة حاكيتك بالكلام وباشوف صورتك... بس لما بارجع حياتي بأشك أنك موجود فعلا... وإني صنعتك من أحلامي.... أو هزمتني الوحدة وخليتني أهلوس وأتخيل أني عم حاكيك يوميًا قبل ما روح نام... هلأ أنا على فراشي بسمعلك وبتطلع بعيونك.... لساتنى ماعم صدق أنك موجود.

- خلاص بوعدك حققلك حلمك عن قريب.... شو بتعطيني لو حققته؟

فردت بخبث:

- بأحررك من القمقم!

- أه منك.

ضحكت، وراقبته وهو يسند رأسه، يطلب إليها أن تحكي عنها، عيناه نصف مفتوحتين، وخصلاته نامت على جبينه، استسلم للنوم وهو يحدثها، همست له وهو نائم، قالت له وهي متأكدة أنه لن يسمعها:

- بدي صدق أنك رجل حقيقي.... ماقابلت رجال حقيقين كتير بحياتي.

ثم صمتت مترددة لكن تواطؤ الليل وهدوءه شجعها فأكملت بجرأة:

- بدي اتأكد يا أنس أني يوم وضعت قلبي بين إيديك.... مارح يجي يوم واندم على هيك قرار.

احتفظت بصورة له وهو نائم، كانت تلتقط صور خلسة له من الكاميرا، وتحتفظ بها دون أن يدري، دون أن تفهم سر تصرفها، أو تواجه نفسها بمعناه، حين يباشر العمل في موقع لا تصل إليه ذبذبات النت، تشعر أن الحياة كلها غابت عنها، تساءلت وهي تسير بين قاعات جامعتها هل أدمنته؟ أو صاغت وحدتُها احتياجَها له؟ أم أنها أحبته؟

أجابها قلبها حين نادتها أمها بعد أن عادت من محاضراتها قائلة إن لديها شيئا تعطيها إياه، وحين وصلت باب غرفتها، كانت هناك بطاقة بريدية، وجهها صورة فتاة خليجية متلفحة بعباءة سوداء مطرزة، حتى يداها مطرزتان بالحنة، وهي تنحني بدلال ممسكة بإبريق القهوة ذي الفم المقوس تصب به لضيف مجهول، وفي ظهر البطاقة خطه المجعد، لم تستطع عيناها، لعدم استيعابها وصول رسالة منه، أن تلتقط الحروف بوضوح، فقط كان اسمه واضحًا في المربع السفلي على يسار البطاقة (أنس).... شهقت وهي تتلقف البطاقة بين كفيها، تلمستها وحاولت أن تصدق أنها في الواقع، وليس في خيالها، سألتها أمها عن صاحب البطاقة البريدية فردت:

- إنه صديقي أنس... شقيق هاشم.

- أجل أعرفه.... أليس هو نفسه الذي تمضين ليلك تحدثينه كل تلك الشهور الماضية؟ أليس هو صاحب الشعر الأسود والذقن الحليقة على الدوام؟ رأيته من قبل على شاشة جهازك..... كل تلك السنوات ونحن نعرف هاشم ونتحدث معه، ولم نكن نعرف أخاه بشكل مباشر... لكن أنس اقترب منك في هذه الشهور القليلة على ما يبدو أكثر مما فعل هاشم يومًا... إن كان يحدثك على النت فلم يرسل تلك البطاقة؟ هل هو صديقك الحميم؟

ارتطم قلبها بتلك الكلمة، فسقط نابضًا بسرعة خيالية وهي تقول دون أن تنظر لعيني أمها:

- ماذا تقولين يا أمي؟ بالطبع ليس صديقي الحميم.... لقد تعرفت عليه عن طريق هاشم وأنت تعلمين كم أنا ممتنة له.

- غريب، مع أني أذكر أنك لا تحبين أن تعرفي أحدًا من سوريا.... عزيزتي لا أحاول التدخل في شئونك أو إجبارك على طريقة تسيرين بها حياتك.... المهم أن تتعلمي من خطأ ساندرا.... ولا تحملي!

شهقت آشيا خجلًا، وصرخت والكلمات تتلاكم على لسانها:

- أمي!! ما هذا الذي؟.... من أوحى لك؟..... أنه.... أني.... أرجوكِ لا تفكري هكذا أبدًا.

ضحكت أمها وهي تتطلع إليها بعينين متفحصتين قائلة:

- لا تستغربي..... أنا لا أستغرب نهاية كان طريقها الحب!

جرت آشيا مسرعة إلى غرفتها، وأغلقت الباب، كانت فاطمة تراقبهم من طرف الغرفة، وحين التفتت أمها إليها قالت لها:

- أنا سعيدة لسعادة آشيا.... كل ما يهمني أن تكونوا سعداء.... أدرك تلك اللذة التي تنجم عن الحب... فطعم سعادته قطعًا ليس مثل أي سعادة في الكون.

تظاهرت فاطمة أنها ترعى خالد، هي في الحقيقة كانت تفكر فيما سمعته، أختها وقعت بالحب، هل تحسدها؟ ربما، هي فقط تتمنى لو أنها تختبر هذا الشعور مجددًا، طاف خالد بخيالها وهي تنادي ابنها، لم تشعر أن ذكراه باهتة الآن؟ لم تشعر أنه لم يكن يستحق أن تطلق اسمه على ابنها الوحيد؟ ربما لأنه تخلى عنها ببساطة، وماذا كان بمقدوره أن يفعل وأهلها يتشككون في رجولته وهو قادم ليخطب فتاة مخطوبة؟ لكن لماذا شك بها؟ لماذا تشكك في صدق حبها؟ لماذا لم يحاول ملاقاتها أو الحديث معها؟

لماذا استسلم؟ لماذا لم يخط بضع خطوات أخرى خلفها؟

خطر في بالها فجأة سليم خان، ذلك الباكستاني الأرمل الذي تلتقيه يوميًا عند بوابة الحضانة، يتلقى ابنته كارما بين ذراعيه، وهي تكبر خالد بصف واحد، كان يمسح على لحيته وهو يحيها مبتسمًا وغاضًا بصره عنها، لم تبح لأحد ولا حتى لآشيا بصداقتها الجديدة مع هذا الشخص، ولكن هل تعتبر تلك المرات القليلة - التي التقيا فيها وتبادلا الكلمات أو الطعام أو جلسا متجاورين على كراسي الانتظار الخشبية المزينة في حديقة الحضانة- صداقة؟ خالد صار صديقًا مقربًا لكارما، متقبلًا قرب والدها من أمه.

حاولت أن تطرد ذكراه بسرعة من ذهنها، لكنها في اليوم التالي قابلته وهي توصل صغيرها لصفه، سلمت على كارما وتلاعبت بجدائلها، وسليم يحدق بهم بابتسامة، ما إن دخل الصغيران حتى خرجت كلماته المتلعثمة، لا تدري سر تلعثمه، أهو ضعف في إنجليزيته أم في شجاعته، لكن لعثمته تلك كانت تعطيها ثقة بالنفس، كانت تحادثه بصدق، ودون تحفظ، ربما لأنه كان في نظرها مجرد باكستاني في نفس وضعها، ولكنها فجأة بدأت تنظر إليه كرجل، تبحث عنه لتتبادل معه بضع كلمات حين تنهار من ضربات سوط الوحدة، حتى إنه سألها مرة بصوت يكاد لا يسمع:

- لماذا لم تحصلي بعد على طلاقك؟ قلتِ لي كثيرًا إن زوجك آذاك ولم يكترث لطفلك... ولكن كما فهمت من كلامك فأنت لم تتطلقي منه رغم مرور كل تلك السنوات.

اعترفت لنفسها أن سؤاله فاجأها، لندرة الأسئلة الشخصية التي يوجهها لها عادة، ذكرت نفسها بأنه لا شيء تخسره إن أجابته فقالت:

- لست أدري حتى الآن لما لم أفعل.... مع أن هاشم... أعني أحد معارفي عرض علي أن يساعدني في الأمر.... ربما رغم مرور تلك السنوات ورغم حياتي هنا، لا

تزال عروقي مشبعة بالعادات الشرقية.... ربما ما زلت أخاف لقب مطلقة رغم أني لم أكن متزوجة بالمعنى... وكأن اللقب يهم أكثر من الإحساس ذاته! أو ربما لأني أخاف أن يصير اسمي وحده دون أن يلتحق باسم ذكر كتابع له... هكذا ربونا... الأمر ليس بيدي.

صمت مفكرًا في كلامها لكنه همس من جديد:

- الحياة ليست فرصة واحدة.... هناك العديد من الفرص.... إذا شعرت حقًا أنك مطلقة... فعليك الحصول على الطلاق.... لا تعنينا الألقاب فهي لا تعيش، وإنما قلوبنا تلك التي تعيش... أنصحك أن تحصلي على الطلاق في أقرب فرصة.... لتفتحي الباب لتجربة جديدة.

تطلعت إليه وكأن كلامه فاجأها، فوجدته يتطلع إليها بدوره، لم يخفض عينيه هذه المرة ولم يتردد، بل تلعثم قلبها فقط، تذكرت أنه مسلم، تذكرت أنه في نفس وضعها، وله صغيرة وحيدة بلا أم، كما أن ابنها بلا أب، لم تفكر فيه بقدر ما فكرت أن عليها حقًا أن تحصل على الطلاق بأسرع وقت ممكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في كل أسبوع تتلقى آشيا بطاقة بريدية من أنس، يكتب إليها نبضاته لا كلمات، جريئًا كان في الحب، مجنونا كان في تصرفاته، لا يخشى شيئًا ولا يستصعب أمنية، يفاجئها بأن المستحيل ممكن، في كل أسبوع صارت تنتظر بطاقة بريدية تحمل صورة أجمل من سابقتها، يختارها لها بعناية، فتبادله هي الأخرى بطاقات أمريكية الصور، أثبت لها أنه حقيقة، وأنه مجنون وذكي للغاية، فسألته ذات ليلة:

- شو امنيتك؟.... الحين بأحققلك أي أمنية بدك ياها....

- هلأ عرفتي أخيرًا أنك الجنية الخاصة فيني... أي أمنية متأكدة؟

- إيه متأكدة...

- بوسيني!

فدفعت الشاشة بيدها، فتحرك مبتعدًا وكأنها حقًا أصابته فقالت:

- استحي على وجهك.... أنا عم أحكي جد.

- خلاص خلاص لا تعصبي.... أمممم... بدي شوف وياكِ فيلم.... كأننا في السينما.

- أي فيلم؟

- أي فيلم... بدي تابعه وياكِ ونضل نضحك ونعلق على كل مشاهده.... كنت عم اتخيل أمس لو كنت معي بدار السينما وظلينا نعلق على كل مشهد... يالله قديش بيكون قلبي مرتاح بها الموضوع.

فصمتت آشيا قليلا وقالت له:

- خلاص عندي فكرة... بُكره بعد محاضراتي بأجي ونتفرج أنا وياك على فيلم... أي فيلم ننزله من النت وتنزله انت كمان ونتفرج عليه بنفس الوقت... ونتطلع لبعضنا بالكاميرا ونعرف شو رأي بعضنا بنفس الوقت.

لمعت عيناه للفكرة، وتساءل عن الفيلم المختار الذي قررت مشاهدته، فاختارت فيلمًا أمريكيًا... قصة حب أرادت مشاهدتها معه ورؤية تعابير وجهه، كان فيلم wicker park، الحبيبان اللذان ضلا الطريق عن بعضهما بعضا، ولم ييأسا على مدار سنوات من إيجاد أحدهما للآخر، تركت الجهاز مفتوحًا يحمل الفيلم طوال اليوم، وحين أنهت ساعات عملها وكذلك محاضراتها عادت لتجد أمها جالسة تتحدث لشخص ما على جهازها، كانت تضحك والصوت الآخر يجيبها بتهذيب بالإنجليزية، لم تصدق آشيا عينيها حين رأت أنس، كان يتحدث إلى أمها فسألتها مذعورة:

- أمي؟.... كيف حصل ذلك؟.... كيف تحدثتِ إليه؟

- ماذا؟.... ألا يجب علي أن أحميكِ؟ هذا الرجل يتحدث إليك الآن أكثر مما تتحدثين إلينا... يتسلل إلى قلبك شيئًا فشيئًا دون أن نعلم نواياه... قررت تحذيره بنفسي حتى لا يتسبب في إيلامك أو يبكيكِ.... أليس هذا من حقي يا بنيتي وقد آذاك الكثيرون وأنت بعيدة عني؟

- أجل ولكن....

ثم تطلعت إلى أنس الذي قال بإنجليزية متقنة:

- لا تقلقي آشيا، لقد سعدت كثيرًا بالتحدث إلى والدتك... إنها امرأة رائعة... ولقد استمتعت بالكثير من خبراتها في الحياة.

أشارت إليه ميريدث بيدها، ثم نهضت وتركتهما وحدهما، تطلعت إليه بفخر، وتطلع إليها هو بشوق رغم أنها لم تناقش الموقف معه، لكنه عرف أنها فخور به، عدوا حتى رقم ثلاثة وبدأوا الفيلم معًا، كبرت نافذة الفيلم وصغرت نافذة كاميرته، لم تستطع أن تركز في أحداث الفيلم فقد كان مشهده وحده كفيل بفقدان تركيزها في كل ما حولها، كان هو فيلمها الذي تابعته بدقة، راقبت ملامحه التي تتغير مع كل مشهد، ضحك وهو يشجع البطل حين تردد في طلب رقمها في محل الأحذية وظل يقول:

- شبك يازلمة؟.... خبرها الصراحة؟

فردت مداعبة:

- هو خجلان أكيد لا تعتب عليه.

- مو وقت الخجل البنت رح تروح من إيده.

راقبت عينيه تلينان بحب، وهو يراقب البطل يراقص البطلة، بعد أن اختطفت الجريدة التي تحجبه عنها، نظر إليها وقتها، وثبت عينيه على الكاميرا، فرأته يحدق بها صامتًا وعيناه تقولان لها سأراقصك كما يرقصان الآن، قال لها مرارًا إنه

يعرف شعور البطل الحائر وهو يكاد يجن ليصل إلى حبيبته من جديد، سب تلك المرأة التي فصلت بين الحبيبين مرات عديدة، كان ينظر إلى آشيا وهو يطلق أي تعليق، ومع كل مشهد محبب إلى قلبها كانت تقول له عند بدايته:

- دير بالك... ها المشهد روعة.

فيضاعف تركيزه، ويطرق بأصابعه على مكتبه، حتى التحم البطلان في عناق لا فكاك منه بين مئات المسافرين في آخر مشهد، وجدها أخيرًا بعد أن ظل يبحث عنها طويلًا، لم يتكلما قط، فقد أذابهما الشوق في عناق حار، فلم يشعرا بالحشد من حولهما، ولم يحتاجا للكلمات ليصفا ما يحسان به، أغلقت آشيا الفيلم، وتطلعت لملامح أنس العاشقة وهو يسألها بعد صمت:

- بتحضنيني آشيا؟.... لو إلتقينا بيوم من الأيام... بتحضنيني؟

سألها بهون وقد أضعفه حبه، سألها بصوت راجف، وكأنه يتوسلها ويترجاها فقالت بصدق:

- مابعرف شو ممكن سوي لو شوفتك قدامي.... مابعرف لأنه.... الجنون وحده اللي بيتصرف وقتها.

وبقيا وقتًا لا تعلم مقداره يحدقان ببعضهما بعضا عبر الكاميرا، دارت روحها أيامًا بين طيات الحب وفيروز تغني لسهرها الليل تفكر به:

حبيتك تنسيت النوم... ياخوفي تنساني

حابسني برات النوم.... وتاركني سهرانة

أنا حبيتك حبيتك... أنا حبيتك حبيتك....

فأجابتها بطاقته البريدية الأسبوعية في اليوم التالي، أخذتها من يد أمها ناعسة، تفرك عينيها، لكنهما اتسعتا وهي تقرأ الكلمات، تخلى عن لهجته السورية وقال لها بفصحى سليمة:

أستطيع أن أعطي من حولي أي شيء

إلا قلبي.... لا أعطيه

حتى أتيتِ وأهديتك إياه دون تردد

لو سألتني من أنت بداخلي

فأنت الفتاة التي تستطيع أن تحطم قلبي

أجل سأقولها قبل أن ألقاكِ

وقبل أن ألمس كفيكِ

وقبل أن أشتم رائحتك

أحبك.

عشان فيكى منى فى طبع الجنان..

عشان فيا منك فى طبع الحنان..

عشان إحنا نسخة..

عشان إحنا مُسخة..

عشان فيه تشابه بشكل ابن وسخة..

عشان فيه ف دروبنا علامات كذالك..

برغم إن مفيهاش ولا درب سالك..

وعشان إحنا أصلًا سوا من زمان..

بحبك..

لذلك..

وأكتر..

كمان..

عشان مش ضروري..

يكون فيه عشان

مصطفى إبراهيم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

قلب أدمن الحزن، لا يعرف كيف يتذوق الفرح، لا يعرف بأي زي يستقبله، ولا كيف تكون الابتسامة التي تليق به، اختبرت آشيا تلك السعادة، السعادة الخالصة التي تجعل القلب غير قادر على تحملها، مذاق جعل حياتها جديدة عجيبة، كأنها ولدت للتو في عالم ساحر، هكذا إذن يكون التحليق، هذا هو جمال وجه السعادة، هكذا يكون الضحك الممتع الصافي، هكذا هي السماء جميلة حين يسطع فيها قوس قزح من الحب بكل ألوانه، كم مرة قرأت اعترافه الفريد بحبه لها، أرسل لها تلك البطاقة منذ عدة أيام، إذن فهو يريد أن يقولها لها منذ فترة، ولكنه أمسك قلبه حتى لا يعترف أمامها، حتى تصلها الرسالة بالنبأ، لتصدق أنها حقيقة، تطلعت إلى صورة البطاقة، رجل يتطلع إلى البحر الفسيح أمامه، يفكر في محبوبته، أنس يفكر بها الآن، ينتظرها، طرق باب قلبها وينتظر لها أن تفتح، تبسمت، كيف يطرق والمفتاح بين يديه؟ كيف ينتظر ردها وهي التي أحبته أولًا؟ هو فقط أظهر لها حبه بوضوح قبلها، لو أنه التقاها فيما مضى لأدرك أنها تغيرت كليًا معه، لم يكن عقلها معه أبدًا هو حاكمها بل إن قلبها - الذي صار ملكه منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها على الكاميرا، بابتسامته، والبهجة التي تفوح منه على الدوام- صار يسيرها بأمره في كل ثانية وحتى نهاية حياتها، فهي تحمل له من الحب ما تعلم أنه لن يتكرر في قلبها تجاه شخص آخر مهما عاشت.

حاورت نفسها كثيرًا وهي تعيد قراءة كلماته للمرة الألف، كيف يمكن أن تحمل كل هذه العواطف لشخص لم تلقه من قبل؟ كل معرفتها به كانت على النت فقط، لم تلمسه بيديها، لم تقف أمامه لتقيس ارتفاع كتفها إلى كتفه، لم تقس درجة حرارة صدره وهو يحتويها، لم تعتد ردود أفعاله وتعابير وجهه مع كل موقف، إلا فقط عن طريق الكاميرا، هي لم تكن من المجانين ولم تتصرف قط إلا كما يملي عليها المنطق، شيء ما أخل بتوازنها بمجرد معرفتها به، وكأن قلبها تعرف عليه، وأذعن معلنًا لها، هذا هو الساكن الذي كنت أنتظره، نظرت إلى الساعة، لا تستطيع النوم رغم تأخر الوقت، ولكنه الآن صباح جديد لأنس، اتصلت على هاتفه ليفهم أنها تنتظره على النت، كادت تجن لو أنها لم تحادثه في تلك اللحظات، وكان حدسها صحيحًا، كان يرتدي ملابسه وعلى وشك الخروج لعمله، تطلع إليها قائلًا:

- عم تجهدي حالك آشيا.... ليش مانمتي لهلأ؟.... عندك محاضرة هامة بكرة وشغلك كمان..... شك بكِ؟

قلبها يدوي بين ضلوعها وهي تحدق به، عيناها تصرخان، كل ما فيها يصرخ بكلمة واحدة، أحبك، عرف أن البطاقة وصلتها، فتطلع إليها، وصمت هو الآخر، الحب وحده تحدث إليهما، رسم على ملامحهما الأمل والفرح والدهشة والجمال، كانا جميلين في عيون بعضهما، وحده الحب عانقهما وأحرقهما ودمجهما، ثم شكلهما ليتطلعا إلى بعضهما عاجزين عن النطق، فالكلمات قد تدمر سحر اللحظة، قاطع سيمفونية الحب بينهما هاتف أنس، كان زميله الذي يأخذه أنس بسيارته في طريقه

إلى العمل يهاتفه ليستعجله، فتنهد أنس بحسرة، لأن عليه النهوض وترك آشيا لكنه قال:

- راح كون صبور في انتظار ردك.

ثم نهض واقترب من الكاميرا قبل أن يغلق الجهاز وملامح آشيا تستمر بالصراخ بحبها له فقال هامسًا وكأن الحب أسقمه:

- إرسلي لي... اليوم آشيا.... إرسلي لي ردك.... ماراح أحكى معك لحد ما يوصلني.

ثم أغلق، نهضت من مكانها ولفت حول نفسها، كل شيء حولها مختلف، فجأة فقدت القدرة على تذكر روتين يومها، وجدت نفسها ترتدي ثيابها بالمقلوب، تذكرت الإفطار قرب وصولها إلى عملها، ندمت لأنها نسيت كراس محاضراتها في المنزل، نسيت هاتفها، حين نظرت إلى صورتها المنعكسة على زجاج المكان الذي تعمل به، اكتشفت أنها نسيت تسريح شعرها، وأنها رسمت خط كحل تحت عينها اليمنى فقط!

ضحكت لمنظرها الطفولي، لم تعرف كيف تكون طفلة، فطفولتها قست عليها، وأجبرتها على أن تظل امرأة طوال الوقت، وها هو حبه يعيدها طفلة، يعيد إليها جنون الحماقة ولذتها، تطلعت إلى المال في جيب بنطالها، تحمل ما يكفي لتشتري البطاقة وترسلها، هذا فقط ما تذكرته اليوم!

بقيت هائمة في عملها، تبتسم للجميع بعذوبة، وكأنهم ألطف كائنات العالم، مرت الساعات ووجدت نفسها بين مئات البطاقات، عليها أن تختار واحدة لتكتب عليها ما لم تقله لأي رجل في حياتها، لتخط عليها عذرية قلبها وتهديها إليه، لتكتب إقرارها بامتلاكه كل خلية فيها، لتهبه نفسها طوال حياتها، وجدتها، بطاقة تحمل امرأة تلف ذراع حبيبها حولها، وتحتمي بصدره، وهو يحدق بها عاشقًا مشتاقًا رغم احتفاظه بها بين ذراعيه، يركبان قاربًا لا يرسو، لا بد وأن تحتمي به وهي تجدف نحو مستقبلها، لا بد أن تشعر بهذه السكينة التي تمنتها منذ ولادتها، بالأمان والراحة بين ذراعي إنسان لن يتخلى عنها مهما كانت الظروف، رجل يحبها ويحميها، جلست على أقرب كرسي خشبي في الحديقة المقابلة للمكتبة، تتطلع إلى الأشجار والوريقات الراقدة بالقرب من قدميها، راقبت العصافير وهي تغني، راقبت الجمال حولها وقد ازداد وهجًا في عينيها العاشقتين، صمتت وحبست أنفاسها، وكأنها على وشك الغوص في أعماق حبها ثم كتبت:

لم علينا أن نصيغ حبنا في كلمات؟

ستظل أبدًا عقيمة

لم تظل كلمة أحبك فقط هي ما يجب أن أعبر به عن مشاعري نحوك؟

فأنا لا أحبك فقط، ولا أشتاقك فقط، ولا أفكر بك فقط

إني أعيش بك

وأعيش لك

وأموت دونك

وأعلم جيدًا أنه الجنون

فمرحبًا به!

لست أدري بأي كلمة أصيغ اعترافي

سأبدأ إذن بـ

إني..... لك.... وحدك.

توردت خدودها وكأنها تعترف له وهو يقف قبالتها، أرسلت البطاقة على الفور، وتذكرت وعده بعدم الحديث معها حتى تصله بطاقتها، تمنت لو أنها أركبتها الريح، فتطير مباشرة إلى نافذته لتصل في ثوانٍ، فتعود لتجده متاحًا للحب، كانت تريد كتابة لغة قلبها كما هي، كانت تريد أن تعبر أفضل، خافت أن تكتب له بالإنجليزية فيغضب، كم من بيت شعر إنجليزي دار بخلدها وأحست بنار كاتبه، لأنه يصف بصدق شعورها، ولكنها لم تكتب شيئًا، لم يتحدثا لمدة ثلاثة أيام، فقط يتطلعان إلى بعضهما في الكاميرا بصمت، حين فتحت، وجدت منه كلمات درويش وكأنه إن أرسل لها كلامًا لشخص آخر لا يكون قد نكث بوعده في عدم محادثتها فقرأت:

في انتظارِكِ، لا أستطيعُ انتظارَكِ

لا أَستطيعُ قراءةَ دوستويفسكي

ولا الاستماعَ إلى أُمِ كلثوم أَو ماريا كالاس

وغيرهما

في انتظارك تمشي العقاربُ في ساعةِ اليد نحو اليسار

إلى زَمَنٍ لا مكانَ لَهُ

في انتظارك لم أنتظرك، انتظرتُ الأزَلْ

لم تكن تحفظ الشعر مثله، ولا تحتفظ بقطع منتقاة منه وقت تأجج العاطفة، فتدس قلبها في ثوب حب من صنع شخص آخر ليليق بلقائها بقلب محبوبها، فتركت له أبياتًا بين رموشها وهي تتطلع إليه، تتوسله ألا يكون دقيقًا في وعد مؤلم كهذا، خاصة في لحظة إعلان الحب بينهما.

حاولت أن تشغل نفسها، جعلت نفسها مرئية للكل على بريدها الإلكتروني، فجاءها اتصال من بثينة، ولامتها كثيرًا لتغيبها كل تلك الفترة، لم تُرد أن تَرد قائلة إن الحب اختطفها وخبأها في سردابه طويلًا، وأن انقطاعه المؤقت جعلها تخرج للسطح، لكنها تقبلت عتابها بصدر رحب وعاتبتها بالمقابل:

- سمعت من عدنان أنك عم تلعبي بالنار.... بثينة لها الدرجة انت مستغنية عن عمرك؟ ماتخافي على مشاعر أهلك؟

- عن شو عم تحكي آشيا؟.... بتتوقعي بالأصل أنه في معارضة حقيقية في بلدنا؟... بتتوقعي أنه الحزب ياللي عم اشارك فيه إله دور بأي شي بها البلد؟..... الحكم استبدادي لدرجة أنه عم ينظم لكل مواطن أنفَاسُه يا آشيا!.... يمكن لأنك كنتِ عم تعيشي معنا بنفس البلد بس ماكنت تلاحظي هموم الغير.... ماعم تلاحظي نسبة البطالة آشيا... مابتطلعي بالقهاوي بكل زاوية وكم شاب بيجلس عليها يبدد طاقته وشبابه وعمره.

- انت كتير غاضبة عشان اللي صار لخالك.... بس هيدا مو معناه تفتحي النار بالكل.... انت داخلة معركة مو قدك بثينة..... ها البلد مابيصير فيها تقولي لا... خاصة لآل بشار... أصلا أنا باخاف عليكِ من مجرد الكلام اللي عم أحكيه إلك هلأ.

- لاتكوني هيك جبانة..... حتى لو كمموا كل الأفواه... مابنعطيهم راحة زوال كلمة لا.... العذاب اللي انت خايفة أنه يصير إلي... مايساوي التخلي عن المبدأ.... آشيا اللي عم يصير للمعارضة من تعذيب بيكفي لحتى نقول لا حتى لو كنا عايشين برخاء... مابالك كل المصايب في بلدنا في شوارعنا في نفوسنا.... صدقيني مارح اتوقف أبدًا ولا راح اسكت لحتى أشوف بلدنا أحسن بلد بالكون.... لو ماسويت هالشى لنفسي باسويه حتى لأولادي ياللي جايين في المستقبل.

بقيت بثينة تشرح لآشيا كم الفساد المتغلغل في الحكومات والقطاعات العامة والخاصة، عشرات الأخبار طرحتها عليها، وصرخت تسأل آشيا كيف يمكنها أن تطلب منها أن تسكت عن هذا كله، تألمت آشيا لحال صديقتها، فهي تشعر بنفس هذا الشعور تجاه أنس، لأنه يعيد على مسامعها نفس الكلام، تعلم كم هي عنيدة، رغم ذلك كانت محقة في كون آشيا لا تهتم، ربما هي لا تشعر بقضيتها لأنها ليست قضية في نظر آشيا، أو ربما لأنها لم تحب سوريا قط، ربما كان كل كلام بثينة صحيحًا، ولكنها في نظرها فتاة في مقتبل عمرها لا تزال كل خيارات الحياة مفتوحة أمامها، فلم تضيع هذا في سبيل كلمة مبهمة تسمى وطنا، الوطن ليس وحشًا يطالب بدم أبنائه المهدور قربانا لصدقهم في حبه، في رأي آشيا ليس هناك مكان في العالم يستحق أن يموت الإنسان لأجله، تحدثت إلى عدنان توصيه ببثينة، بعد أن كان قد أخبرها أن تجعلها تعيد النظر فيما تفعله فقالت:

- عدنان صدقني إذا بثينة عزمت على شيء مافي انسان بالكون بيقدر يقنعها بالعكس.

- شوفوا مين عم تحكي.... كأنك بتوصفي حالك.... ملكة العند انت ومسوية حالك بريئة.

وكان ردها ضحكًا، فأكمل قائلا:

- باعتقد بثينة ناقصها الحب.... بيكون هو لجامها.. رجل يعشقه قلبها تقوم تسير ورا كلامه متل المنومة.... متلي هيك وياكِ.

- وبعدين معك يا عدنان.

- خلاص خلاص.... بيوم من الأيام بتفهمي كلامي... لما تحبي من كل قلبك لين يوجعك حبك.... بتفهميني... بتحسيني... بتعذريني.

فخفضت عينيها، وقالت همسًا:

- فهمتك.... وحسيت بشعورك.

هل كانت صاعقة أصابته؟ كيف لم يحترق من خارجه؟ وكيف يبقى قلبه وحده هو من يحترق؟

سألها عن حبيبها، محافظًا على ملامحه، فأرسلت له صورة، حملها وبقي لحظات يتطلع إليها، صورة رجل لا يتميز بأي شيء، ليس فيه شيء لا يحمله، ربما في الأمر لغز ما، سألها:

- ليش هو بالذات حبيتيه؟

- الحب مافيه ليش ياعدنان.... هيك حصل فجأة.

- شو هو اللي حصل فجأة؟

ثم ارتفعت نبرته صارخًا، وفوهة بركانه تطلق حممها:

- من وين عرفتيه؟..... قديش قضى معك لحتى تحبيه؟... قديش وقف جنبك؟... شو بيعرف عنك؟... شو بيحمل أنا ما بحمله؟.... ليش حبيتيه وماحبيتيني؟.... فكرتك مو قادرة تحبي.... فكرتك مو مقتنعة في الحب.... لو كنتِ سويتي هيك مشان أنا خطبت.... بتعرفي منيح أن خطوبتي مالها وجود بقلبي.... كل يوم عم ذكرك بها الشي.... لحتى ترجعيلي يوم يتفتح قلبك للحب.... ليش آشيا؟.... ليش؟.

- عدنان.... طول بالك.... الحب مافيه ليش ومشان شو... أنا بحبك عدنان... بنفس المقدار وأكتر... بس مو بنفس الطريقة.... بيكفي أني باثق فيك وبحبك لدرجة خليتني أهرب معك وأترك كل شي خلفي وسمعتي وأهلي وكياني... لو كان اللي حبيته هو اللي طلب مني أهرب ماكنت هربت معه.... انت مكانتك بقلبي مافي حدا بياخدها.... بس مو لازم تاخد كل كرسي بقلبي وكل المسميات.... حسيت معه شعور جديد ما حسيته مع أي رجل آخر.... حتى انت... هاد مو بإيدي... هاد من عند الله.

- ليش ماحسيتيه معي؟..... ليش؟

- ليش ما حسيته مع خطيبتك؟

فبُهت، أراد أن يقول المزيد لكن ما فائدة الحديث، أفاق من نوبة جنونه، وندم أشد الندم على كل ما باح به، وكل الخطوات التي سارها في طريق يعلم جيدًا أنه مسدود، غضب على نفسه وهي عاجزة عن كرهها، أو حتى التوقف عن حبها، غضب من أنانيته ومن إحراجه لذاته، حتى يخرج ما يشعر به، وتمنى لو أنه لم يقل لها هذه الكلمات قط، أغلق الخط واستلقى على فراشه يحاول إعادة شريط الحديث،

ويعدل الكلمات التي كان من المفترض أن يقولها، لِم لم يحافظ على ما تبقى من كرامته ويتوقف عن عادة استجداء حبها، ويقول لها إنه هو أيضًا قد فتح قلبه لخطيبته؟ ثم تساءل بينه وبين نفسه، لم لا يفعل ذلك بحق، لم لا يحب خطيبته؟ لكنها ليست آشيا، هكذا جاوبه قلبه، فاستسلم عدنان طاردًا التفكير فيها من ذهنه، لأنه لا يستطيع أن يرجع فيما قاله أو يبتلع ما قالته، طوال تلك السنوات استطاع أن يتحمل فكرة أنها لم تكن له، على أمل أن تصير له في المستقبل، ولكنه الآن سيبدأ مرحلة جديدة في التعايش مع عذاب أنها لن تكون أبدًا له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي اليوم الرابع، فتح أنس الكاميرا، ونطق أخيرًا بنبرة عاشقة وهو يمسك ببطاقتها بين أصابعه:

- عم تعني كل كلمة؟

- إيه... أنس.

- آشيا.

نطقا اسميهما ملحقين بالحب بدلًا من النطق بالحب، كم ظل يقول اسمها وكم ظلت تقول اسمه، حتى تلوت نبرته بدموع حبيسة، فتماسك صامتًا ثم قال لها:

- هاشم بأمريكا هلأ... خبرك؟

- لا ماخبرني.

تذكرت أنها لم تحادث هاشم منذ مدة طويلة، نهض وأحضر شيئًا من حقيبته، لم تعلم أن في هذا الشيء سيكمن كل فرحها، رفع يده أمام الكاميرا حاملًا التذكرة، سألته وعقلها في إجازة، هكذا تكون دائما في حضوره فرد قائلًا:

- شايفتها منيح؟ هاي تذكرة إلى باتون روج..... تذكرة إلى آشيا غسان.... تذكرة إلى الجنة.... تذكرة لحضنك... آشيا.

شهقت بجنون وهي تغطي فهمها بيدها، فأكمل:

- اشتريتها بنفس اليوم ياللي بعتلك فيه بطاقة اعترافي بحبك.... ماكنت بعرف شو بيكون رد فعلك وقتها.... بس بكل الأحوال... حتى لو قبلتيني أو رفضتيني... حتى لو حبيتيني أو كرهتيني أو حبيتي غيرك... بأسافر لحتى شوفك.... آشيا موعد سفري بعد بكرة.... باسكن مع هاشم وخبرته كل شيء.... خبرته ما يحكيلك أي شيء عن قدومي لأنه رجع أمريكا حتى يستقبلني.

لم بكت؟ هل يغمرنا الفرح حد البكاء؟ هل يمكن أن يكسرنا فرط الفرح حتى تنهمر دموعنا؟ أهو عدم تصديق؟ أم خوف؟ ضخامة السعادة تخيفنا وكأنها ستسحقنا، حاول أنس كثيرًا تهدئة آشيا، لكنها ظلت تبكي وتبكي، ظل يقول لها:

- بالله عليكِ.... بيكفي... راح جيكِ... راح قابلك آشيا.... راح تيجي اللحظة ياللي نطرتها طول عمري.... الحب بيناتنا جمعنا... بيكفي الله يخليكِ... خربتي اللحظة.... شوبدك سوي؟.... آشيا لا تبكي هلأ... انطريني تا أجي بعدها تركيني أمسحلك دموعك.

تماسكت وظلت تزفر وتشهق بصوت عالٍ، حتى قالت أخيرًا:

- حققتلي أمنيتي بدون ما خبرك ياها.... سمعتني بدون ما أحكي.... جاوبتني بدون ما اسال..

فأعطاها ابتسامة شوق، مسحت دموعها وشهقت قائلة:

- يالله... شو بألبس؟.... بعد بكرة؟... وقت قصير كتير لاستعد... ليش ماخبرتني من يومها؟

فقال لها بنبرة دافئة:

- ماتستعدي مشان تقابليني.... مانك محتاجة... إلبسي بس الحب وتعالي... بتكوني أجمل امرأة..

هذه المرة تحديدًا أغلقت معه بسرعة، لتنقذ ما يمكن إنقاذه، جرت إلى غرفة فاطمة فوجدتها تجلس سارحة حتى لا تجيب على كلمات خالد، فدفعتها لتفيق، داعية إياها لتساعدها على اختيار ثوب مناسب لمقابلة حبيبها أنس، فرحت فاطمة لأجلها، ووجدت أن ما يحدث في صالحها، فهي أيضا تريد أن تشتري ثوبًا جديدًا، سليم رأى كل ثيابها وعليها أن تختار ما تبدو به امرأة جميلة، فاختيار ثوب من أجل إرضاء عيني رجل يختلف كثيرًا عن اختيار ثوب بلا هدف محدد، شدوا ميريديث من ذراعيها لتذهب معهما، كانت مرهقة من العمل وهن يعلمن أنها لا تخرج أبدًا إلا في يوم الأحد، لم تتبق سوى ساعات قليلة جدا على موعد إغلاق المحال، ألغت آشيا محاضراتها ذلك اليوم، ونزلت تبحث عما يليق بأول لقاء يجمعها مع حبيبها.

قررت أن تشتري له هدية، لم يسبق أن اشترت لرجل هدية سوى عدنان، لكن عدنان تربى معها وتستطيع أن تعرف ما يحبه وما لا يحبه، تستطيع أن تتحمل الذنب إن لم يعجبه ما انتقته له، ولكن كيف تتحمل هذا لحبيبها أنس؟ كم ثوبًا جربت لترقب تناسق ألوانه مع قوامها وبشرتها وملامحها؟ ثوبها ذاك سيبقى محفورًا في ذاكرتها مرتبطًا بأجمل لحظات حياتها، لذا عليها أن تنتقيه بعناية، اندهشت ميريديث لاختيارات فاطمة، اختارت ثوبًا مزركشا في حين أنها لبست طوال حياتها ثيابًا محايدة الألوان غير ملفتة، تساءلت هل هي الأخرى تغفو على وسادة حب؟ كان واضحًا على ملامحها مهما حاولت التظاهر بالجدية أو اللامبالاة أنها حقًا سعيدة، فمهما كان قناع الوجه مُحكمًا لا يخفي ألوان السعادة، وجدت كل منهما ضالتها، وتفرغت آشيا في اليوم التالي لتتسوق لحبيبها وحده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعلقت عينا فاطمة بسليم لتكتشف تأثير اهتمامها بنفسها على وجهه، تطاير من عينيه الإعجاب وامتلأ الجو توترًا، عاد لتلعثمه، وهي تقوقعت في خجلها، شعرت لأول مرة منذ سنوات عديدة أنها أنثى تتلقى الإعجاب والحب، كما هو طبيعي في سنها، لا تدري لما صمم على الاحتفال معها بحصولها أخيرًا على الطلاق، ذهب الأربعة إلى كافيتريا بعد موعد نهاية اليوم الدراسي، أكل الصغيران بوظة، وذهبا ليلعبا سويًا، بينما بقي سليم يشرب عصيره بتؤدة، وهو يحدق في وجهها، لم يكتف في ذلك اليوم من التحديق بها، حتى امتلأت لآخرها خجلًا، بدأ يحكي لها عنه وعن حياته وعن طبيعة عمله موظفًا في إدارة شركة ماجو للتصدير، أخبرها عن عمره الذي يزيد على عمرها بثماني سنوات، وأخبرها عن خط سير يومه، حتى أيام الإجازة الأسبوعية، كيف يقضيها وأين، كان مباشرًا وصريحًا وهادئًا، مما أربكها، فلم يكن حديثهم مع بعضهم بعضا قد أوصلها نفسيًا لتتقبل فكرة أن تبني مستقبلًا معه، فقد كان من الواضح أنه يلمح لها لنيته للزواج بها، وأنهى حديثه بقول:

- أعتقد أن شخصين مثلنا في نفس الظروف يحملان نفس الديانة وفي نفس المدينة يمكنهما أن يكملا بقية حياتهما معًا.

لم يكن هناك معنى لكلمة معًا سوى مرتبطين، عادت فاطمة في الطريق مع ابنها وهي تسير ببطء شديد، حكى لها كثيرًا عن ألعابه ومغامراته وزملائه وتصرفاتهم وحديثهم الجانبي، كل هذا كان في خلفية تفكيرها، فقد كانت تستمع لحوار عقلها مع قلبها، من غير المعقول أن تظل هكذا طوال حياتها، سليم يحب خالد، والأخير يستلطفه، طبعًا هو محق في كونهما ملائمين لأحدهما الآخر، يعجبها سليم لكنها لم تحبه، وهذا هو سبب أنين قلبها، تشعر معه بشعور هادئ لطيف، وليس مثل تلك الحرائق التي تتأجج في قلب أختها نحو أنس، كما أن شعورها نحوه لا يشبه الشعور الذي اختبرته تجاه خالد فيما مضى، وقتها كانت مراهقة، أما الآن فهي امرأة مسئولة ومطلقة.

توقفت عند باب العمارة وهمت بالصعود، حين سمعت صوتًا يناديها باسمها فالتفت، هزت الرجفة أوصالها، وفغرت فاهها غير مصدقة لما تراه، شخص من الماضي اقتحم سلامها النفسي في الحاضر، وأعادها سنوات إلى الذل، كان هو زوجها السابق موسى! التفت إلى خالد وبدت عليه الدهشة وهو يراه قد كبر إلى هذا الحد، كان موسى مختلفًا، يرتدي ثيابًا نظيفة منمقة ويسرح شعره ويهندمه على الطريقة الغربية، ويرتدي قبعة غريبة، وكأنه صنع من نفسه شخصًا محترمًا، وبدا منظره مثيرا للضحك بالنسبة لفاطمة، لأنها تعرف أصله، يضع السيجار في فمه، ويتظاهر بالرُقي والغنى، اقترب منها مبتسمًا بتلطف، عادت خطوة متحفزة للوراء، فتوقف، سألها خالد عنه فقالت:

- خالد حبيبي اسبقني للبيت... جاية بعدك.

- راح تكوني بخير؟

- إيه ما تقلق.

تطلع الصبي بنظرة أخيرة مستفهمة لموسى، ثم صعد الدرج راكضًا، لحقت به عينا موسى وما إن التفت حتى وجد فاطمة قد خطت بسرعة لتصبح قبالته، برحيل ابنها وطلاقها ومرور سنوات على حريتها، اعتادتها ووثقت بنفسها، وقفت أمامه محذِرة كأنما تقف أمام معتدٍ وهي تقول:

- شو بتريد؟ شو جابك لهون؟

- بدي شوف زوجتي؟... حرام؟

- زوجتك؟.... يعني كنت بتعرف أنك متزوج؟... وينها زوجتك؟

- أخذتِ ورقة بالطلاق وشو يعني... أنا ماكان بدي طلقك... ها الطلاق مابيقع.... انت لساتك زوجتي!

- مين انت لحتى تفتي يقع ولا ما يقع.... زواجنا أصلا ما وقع... شو جابك لهون؟.... بعد كل ها السنوات بتتذكر هلأ إن إلك زوجة... مشان خلصت منك هلأ بترجعلي بعد ما ذليتني ورميتني.

- تغيرتِ كتير فاطمة... ماعدتِ ها البنت الرقيقة الضعيفة اللي ما بتعرف تقول لا.... ولا بتعرف ترد... صرتي... قاسية.

- الظلم بيبدل القلوب..... عن جد ماكنت باتمنى شوفك لحد ما اندفن.... لا ترجع هون منوب.... خلاص كل شي بينا انتهى.

- مافي شي انتهى يا فاطمة.... أنا خبرتك تنطريني لحتى يتحسن وضعي... هربتي ع أمريكا وتطلقتي مني.... نسيتي ابننا.... كيف بيكون مستقبله؟

- هاد ابني أنا... وما رح اسمحلك تقرب منه لأنك مابتستاهل... لا كأب ولا كرجل ولا كإنسان.

- بيحقلي شوفه وأقعد معه وخبره أني بيه اللي أمه حاولت كتير تنسيه إياه.

- انت مالك حقوق هون... وإياك ترجع أو تقرب من ابني وإلا أقسم بالله بخبر البوليس.

ورحلت من أمامه فرمى خلفها جملته:

- رح أحكي معك يوم تاني شكلك معصب.

وحين التفتت كان قد اختفى، شدة الغضب جعلتها ترتجف حين وصلت إلى الباب، كان هاشم بالمنزل، يتحدث إلى ميريديث وآشيا، ما إن رأوا شحوبها حتى نهضوا من أماكنهم، حاول هاشم سندها حتى جلست، سألت عن خالد، فأخبروها أنه بغرفته، أفضت إليهم بكل ما حدث، جن جنون آشيا وأمها وهن يستمعن لكلامها، أما هاشم فقال لها بإنجليزيته الهادئة الواثقة ليعيد هيكلة توازنها:

- أتمنى ألا تقلقي أبدًا... لا يمكنه رؤية خالد إلا بإذنك... ولا يمكنه أن يصيبك بأي مكروه.... يمكننا أن نقاضيه إذا أردتِ أو نبلغ عنه الشرطة.

سكتت قليلًا ثم تنهدت لتطرد عنها تلك الرجفة، ومن ثم تقلصت ملامحها وقالت صارخة:

- لماذا اليوم؟ لماذا تذكرني الآن فقط بعد أن.... أن استمررت بحياتي.... بعد أن عثرت على من سيعوضني.... لماذا؟

ازدادت رجفتها حدة، فضغط هاشم على يديها ليهدئها، كلامها باح بالكثير مما أرادت أن تخفيه حتى يحين وقته، أدخلوها لترتاح وتنام، وطمأنهم هاشم قائلًا إن أحدًا لا يستطيع أن يمسها أو خالد بسوء، تطلعت آشيا إليه بامتنان، فتبسم لها قائلًا بالعربية:

- هلأ بأتركك ياعروس.... فينا نتقابل بعد ما يوصل أنس بكره المطار بالسلامة..

دق قلبها لكلمة عروس، وبعد أن بقيت مع أختها ساعات تهدئها، ذهبت لتغلق الباب على نفسها، انفردت بأفكارها، وظلت تحلم طويلًا، لم تدر كيف نامت، لكن الصباح أتاها يغني، استيقظت وكأنها ما نامت، فقد غرقت في أحلام تخص تفاصيل يومها ولقائها، قبل موعد طائرة أنس بساعات كانت قد ارتدت ثوبها، ووضعت لمسات رقيقة على وجهها، دارت حول نفسها في المرآة ورحلت راضية، اصطحبها هاشم بسيارته للمطار، حدثها كثيرًا عن أخيه وتفاصيل حياته، فرح قلبها لأنه كان قد أخبرها بكل هذا قبله، بل إنها شعرت أنها تعرف عنه أكثر مما يعلم هاشم، سار بها في شارع ميد سيتي نورث، حتى مطار ميتروبولتن، هذا المطار يحمل لها أجمل ذكريات حياتها، وها هي على وشك إضافة أهم حدث في عمرها إلى تاريخ المكان.

كيف يمكن للقلب أن يدق سريعًا طوال ساعات الترقب بمجرد ركوبها السيارة في طريقها إلى المطار، وحتى وصول طائرته، والإعلان عن هبوط المسافرين، انزوت تخبئ جسدها خلف المستقبلين، وأخرجت رأسها فقط لترقب المسافرين، صاح هاشم باسم أنس في نفس اللحظة التي التقطته عيناها فيها، كان يرتدي معطفًا كاكي اللون وبنطالا أسود، مع قميص به خطوط رفيعة من اللون الأسود والكحلي، خصلات شعره حرة على جبينه، وكل ملامحه تشي بفرحته، اقترب منهما مهللًا، فالتزمت آشيا الصمت مخبئة نفسها بقامتها القصيرة جدًا مقارنة به خلف أحد الواقفين، احتضن هاشم أخاه أنس، الذي يصغره سنًا، لكن يفوقه طولًا، حمل من يده حقائبه، فزاغت عيناه بحثًا عنها، فهمه هاشم وقال له:

- بدك آشيا مو هيك؟

- وينها؟ ما أجت وياك؟

- قديه بتدفعيلي وبخبرك؟

- مو وقتك يا هاشم الله يخليك.

هنا أشار هاشم إلى مكانها بعينيه، فالتفت أنس إليها، اقتربت منه منكسة الرأس لا تقوى على رفع نظرها إليه، تأمل الزهور التي ترقص على أطراف ثوبها الأحمر، تأمل جمالها الأخاذ الذي لم يلتقط سوى القليل منه عبر الكاميرا، تأمل وجه الحب

الصافي يرسل إليه تحية عبر خدودها المتوردة، تأملها صامتًا مدهوشًا حتى وقفت أمامه تمامًا، رفعت رأسها قليلًا لتقيس مدى قصر قامتها بالنسبة له، مستوى عينيها يوازي أسفل صدره، نادى اسمها بنبرة عاشقة، فرفعت نظرها ببطء وأسلمته عينيها، شكلت ملامح وجهه كل تعابير الحب.

لم تدر ماذا يُفترض أن تقول، حملت معها حقائب من الكلمات والحوارات، فطارت من عقلها وألقت نفسها بين أحضان عينيه، بعد دقائق من التطلع المشتاق مد أنس لها يده، فمدت يدها إليه مرتجفة، فأمسك بها ولفها وقبل راحتها، كانت لمسته لها قد أكدت لقلبها أنها لا تحلم، وأنه حقًا أمامها، حضر ليراها بعد سنوات حب ضوئية، قطعتها قلوبهم سويًا، مال برأسه واقترب من عينيها، تذكرت رغبته أن تعانقه يوم لقائه، تذكرت مشهد الفيلم الوحيد الذي شاهداه بنفس الوقت، تمنت لو أنها تملك الشجاعة لتفعل كما يريد قلبها، تمنت أن ترتمي بين ذراعيه وتعانقه حتى تذيبها حرارة حبه فتندمج به، تمنت الكثير لكنها تجمدت بالسعادة، ولم تعد قادرة على قول أي شيء، لم تستغربه ولم يبد لها أنه اللقاء الأول بينهما، شعرت أنها تعرفه جيدًا وأنهم التقوا آلاف المرات، ألفته كثيرًا من الوهلة الأولى، وأغلقت عينيها تشتم رائحته وعطره، أخرج أنس نفسه من سحر اللحظة مرغمًا، وهو يقول لهاشم أن يأخذ حقائبه، ويعود لأنه سيمضي اليوم مع آشيا، هنا فقط نطقت وقالت:

- لكن... مو لازم ترتاح بعد السفر؟

- أنا فعلا بدي إرتاح... لهيك بدي روح معك.

- لوين؟

- لأي مكان... ماجيت هون لحتى أنام وأرتاح... جيت مشان شوفك وملي عيوني منك.

اقترب منها فضحكت بخجل، راقبهم هاشم راضيًا ثم أخرج ورقة من جيبه وكتب بالإنجليزية عنوانه، ووضعه في جيب معطف أخيه، وعاد بالحقائب وحده مبتسمًا بتفهم، أما هما فقد خرجا سويًا، وركبا سيارة أجرة، بدا الموقف مضحكًا لآشيا، فهي لم تتوقع أن يكون أنس جادًا في الذهاب معها في سيارة أجرة، وأخوه يملك سيارة بانتظارهم عند بوابة المطار، حين ركب جوارها، سألهم السائق إلى أين، فحدق أنس بها، ففكرت آشيا قليلًا ثم قالت لأنس:

- بنروح مكان أنا مازرته من أول ماجيت لباتون روج... راح تكون أول مرة إلك وأول مرة إلي.

- أول مرة إلنا... مع بعضنا.... يا حبيبتي.

ثم أخبرت السائق أن يذهب إلى حديقة أرسنال، لم يكن الطريق طويلًا إليها، لم يتبادلا كلمة واحدة، فقط تبادلت أصابعهم المتعانقة آلاف الكلمات، هبطا سويًا ودخلا الحديقة، اصطفت الأشجار ذات الارتفاع الشاهق بجانب بعضها بعضا، وكأنهم جنود يقفون بانتظام على الجانبين، تشابكت خصلات رؤوس الأشجار فصارت سماؤهم خضراء اللون، يرتفع مبنى الكابيتال ليتطلع إليهم وحدهم من أعلى، سارا

وتبادلا النظرات الضاحكة، كم مرة قال لها أحبك؟ كم مرة قالت له إنها تعشقه؟ بات يسير بظهره إلى الأمام، ووجهه قبالتها، فتشده ضاحكة مستنكرة حتى لا يصطدم بشيء، دارا في الحديقة مرات عديدة وتحدث بينهما الحب، وجدت نفسها تتعلق بذراعه طفلةً، يغازلها ويناجي جمالها الأخاذ بفستانها الجديد، فتحت حقيبتها وأخرجت له الهدية التي حملتها له، مدت يدها بالعلبة إليه، فاختطفها بفرح طفل، وخصلات شعره تتحرك مع حركته، فتح العلبة فوجدها محفظة مزخرفة باللون البني، ابتهج وجهه وفتحها، وقال باستنكار:

- وين صورتك؟.... ليش ماحطيتيها؟

- ماتصورت.... ماكنت باعرف بدك ياها.

- شوها الكلام يابنت؟.... يلا بنتصور هلأ.

- شوو؟

- يلا قربي حالك مني.

ثم ضمها إليه في حركة خاطفة، والتقط هاتفه ولف عدسة الكاميرا إليهم، وأبعد جسد الهاتف بذراعه، والتقط صورة فريدة لهما سويًا ثم قال:

- بأخلي خي يطبعها بمكتبه..... لحتى خليها بمحفظتي.

- خليه يطبع نسختين!

حدق بوجهها، وضحكا سويًا، أخرج محفظته القديمة وأخذ كل ما بها ووضعه في محفظته الجديدة، ثم رمى القديمة فوق العشب بحركة مسرحية، وكأنها مجرد قمامة، فضحكت آشيا بجذل ودفعته من كتفه، سارا بمحاذاة البحيرة الكبيرة، شاهدا البط يسير على الماء، جلسا على كرسي خشبي يقابل وجه البحيرة، حوله خيمة من ظل الأشجار، شعرا أنهما يسيران في الجنة، هناك بعض اللحظات التي تعيشها في حياتك التي تعلم جيدًا أنك لن تعيش بسحرها وجمالها من جديد، لأنها فاقت أحلامك جمالًا، هناك في تلك النقطة، تطلع إليها أنس وقال بصوت بحه الشوق:

- بحبك آشيا.

- بحبك أنس.

هذه المرة قالتها بثقة، وضغطت على يده، في رمشة عين مر هذا اليوم الجميل، شعرت أن أنس لم يكن قط غريبًا بالنسبة لها، وكأنها كانت تعرفه منذ ولادتها، منذ نظرت في عينيه ونعتها بالخارقة، شعرت أنها تحدثت إليه آلاف المرات في حياة سابقة، حين هبطت إلى منزلها من التاكسي وودعته، تألمت لأن يومًا من الأيام الأربعة قد مر، كانت تريد للزمن أن يتوقف، لا يرحل، ولا تكبر، أدمنت بقاءه، ولم يعد بإمكانها تحمل سفره بعيدًا عنها، صعدت إلى البيت وهي تشعر أنها لا تسير على قدميها، بل إن أجنحة خرجت من قلبها وطارت بها فوق الأرض، حتى أمها

شعرت بالحب يتدفق من ملامحها، دخلت غرفتها وفتحت جهازها وطلبت من فيروز أن تشاركها لحظة حبها وترد بالنيابة عنها لسؤال أمها:

يامي ما بعرف كيف حاكاني..... كنت حد العين حيراني

يا مي مابعرف كيف..... يحكي ويحكي وصرت اسمعلو

والحكي كيف كان طايعلو..... صارو الزنابق حدنا يعلو..... ولو ضل كان الورد خباني

ضحكت آشيا، وظلت تغني مع فيروز، ودارت حول نفسها، وراقصت خياله بفرح عذب وهي تكمل هامسة مع فيروز:

يامي مابعرف كيف..... غابت الشمس وخفت واحتديت

ما عاد عدرب لنا استهديت..... ما وعيت كيف ركضت صوب البيت

قلبي يدق وكنت فزعانه..... مبارح بعتلي محرمة هديي

سر وعطر ابيض وغنيي..... متل الزاغو هيك عينيي.....

وحسيت شي بالباب بكاني

ثم قالت آشيا متنهدة:

يامي بحبه يامي.

عندما يعجز الوطن

أن يمنحنا أكثر

من صدوع ضيقة لدفن أبنائنا

هل نبقى؟

محمد حسن علوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

الصباحات الهادئة تحمل دائمًا في طياتها صخبًا مؤلمًا، حين أوصلت فاطمة ابنها خالد كانت سعيدة، وجدت سليم يجلس على كرسي الحديقة بانتظارها، بابتسامة شوق، أسرعت في خطاها وجلست جواره، تبادله الكلمات، سألها بلهفة عن كيفية قضائها أيامها، فكانت تحكي له بالتفصيل، وتستمتع بتعليقاته الهادئة التي تدل على اهتمامه، كان يحكي لها كل شيء في حياته حتى نوعية الوجبة التي يتناولها، أذهلها أنه يجيد الطبخ، وأضاف بنبرة حزينة أن الظروف أجبرته أن يتعلم، أشفقت عليه مما زاد من حنانها تجاهه، فضغطت على ذراعه بود، فوضع يده فوق يدها بتوافق، نظر إلى عينيها وقال:

- هل تسمحين لي أن أقول إنك امرأة رائعة؟

فضحكت معجبة بذاتها، وتأملت بعينيها وجوه من حولها، لترى إن كان أحدهم قد التقط تعليقه، ثبتت عينيها عند وجه واحد، وشاخت ملامحها فجأة وهي تحمل تعبيرًا متخوفًا، لاحق سليم مكان عينيها، فرأى رجلا يقف ويتطلع إليهم، سألها بهدوء عنه، فردت بصوت مرتجف:

- إنه زوجي.

- زوجك؟..... ألم تقولي إنك حصلتي على الطلاق؟

- أعني طليقي.

اقترب منهما، فازداد شحوبها، ألقى عليهم التحية بود، فقالت فاطمة لنفسها ساخرة من أين أتى بكل هذا الذوق فجأة؟! الحياة في أمريكا تصنع العجائب، نهض سليم وصافحه دون أن يحمل وجهه أي تعبير، لكن فاطمة لم تتحرك، ولم تسلم عليه، ولم تُجب نداء يده الممدودة نحوها، فابتسم موسى وقال لسليم:

- أحتاج أن أكلم فاطمة على انفراد.... هل تسمح لنا؟

- أجل بالطبع.... سأنصرف.. سنلتقي في وقت آخر.

قالها ثم انصرف مسرعًا، وهو يلتفت بين الخطوة والأخرى ليتطلع إليهما، بينما جلس موسى جانبها، منذ رأته أول مرة على بوابة المبنى الذي يحوي شقتها وقد شعرت أنه صار شبحها الخاص، يظهر لها حيث لا تريده، في كل الأحوال هي لا تريده، كانت تدرك أن أمره لن ينتهي على هذا النحو، وأنه لن يستمع لتهديداتها، ولن يتركها وشأنها، لهذا مهما حاول هاشم طمأنتها كانت تعلم أنها ستمر بهذا الموقف. سألها عن هوية سليم وعن مكانته في حياتها، فانفجرت فيه لأنها ما عادت تخافه، سفرها إلى أمريكا جعلها تكسر قضبان الخوف، لا يوجد لديها ما تخسره وما عادت تخجل من مهاجمته ورفع صوتها عليه، وهو بالمقابل استكان وتهذبت أخلاقه منذ قدم أمريكا، وكأن الأمر صار معكوسًا بينهما، كلما رفعت صوتها واحتدت، زاد هدوؤه واستكانته، كان يذهلها تحمله لإهاناتها، وتذهله قوتها وهي ترد عليه، متأكد أنها تمثل، مثلما هي واثقة أن كل ذوقه هذا مجرد قناع، قال:

- لهيك حصلتي على الطلاق؟.... مشان ها الباكستاني؟.... ولك شو فيكِ انت خلصو الرجال من الكون؟

- إيه خلصو.... هو الزلمة الوحيد الحقيقي يالي قابلته بحياتي... على الأقل ما رمى مرته وراه متل الزبالة ونسيها وجاي يتذكرها يوم هي رمت ورقة الطلاقة بخلقته.

- مارميتك فاطمة انت اللي ما صبرتي... وماعرفت أوصل لشي عنوان او أي شي يخصك من يوم جيتي أمريكا... بعدين يعني انت فعلا بتحبيه؟.... في ها الحالة مو لازم تعطيني خالد؟.... أربيه بدالك.... مايصير يعيش مع زوج أمه وإله أب.

- لا تذكر اسم ابني على لسانك الدنس.

- ماتنسي أنه ابني أنا كمان فاطمة.... مهما حاولتِ تنكري مشان غضبك علي.... مابتقدري تحرميني من حقي فيه.

- اسمع منيح..... هاي آخر مرة بأحذرك تبعد عني وتخرج من حياتي... أنا مابدي بلغ عنك.

- شو بتخبري الشرطة عني؟.. أنا ماسويتلك شي بتتبلي علي فاطمة؟.... الله يرحم يوم سافرت تمسكتي بطرف توبي وصرختي.... ماكان بدك بعد عنك منوب.

سكين طعن قلب فاطمة وهي تتذكر نفسها وضعفها وذُلها، كانت قبل كل الذكريات تريد أن تنسى نفسها القديمة، وبمجرد التطلع لوجهه كانت تتذكر ما لا تريد تذكره، نهضت من مكانها ورحلت دون كلمة، شعرت بالراحة حين لم يلحق بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتدت آشيا تلك العباءة السوداء المزخرفة بأطراف كمها وأطراف ذيلها وخطين سميكين من رقبتها، وحتى قدميها، موشاة بالزخارف المذهبة والزهور المرسومة بخيوط حمراء دقيقة، لفت الحجاب الملحق بالعباءة فوق شعرها، وخرجت إلى أمها وفاطمة ومازن، أخبرتهم وهي تلف حول نفسها ضاحكة بحب، أنها هدية أنس لها، عباءة قطرية جلبها لها، استغربت أنها تناسب مقاسها، اعترف مازن أن ذوق أنس يعجبه وقال:

- شكله بده ياكي تحتشمي.

فضحكت فاطمة، أما ميريديث فلم تضحك، لأنها لم تفهم سوريته، لكنها أمسكت بثوب آشيا تتلمس قماشه وكأنها تمسك بشيء مقدس، طارت إعجابًا بهذا الثوب، كأنها ترى أمامها تراثا شرقيا وتاريخا وحضارة في صورة ثوب، قالت لها:

- أنت جميلة يا آشيا... تبدين حقًا جميلة في هذا الثوب وكأنك أميرة.

- طبعًا جميلة بالحب.... أتمنى أن نقابل هذا الرجل آشيا... ألن تعرفينا إليه.

قالها مازن محاولًا إخفاء غيرته، لكن آشيا كانت خائفة من ردة فعل أنس، فأخبرت أخاها بتردد متناسية الإنجليزية:

- هو أخوه لهاشم... أكيد بتعرف ها الشي.... وانت قابلت هاشم وبتعرف قديش زلمة محترم.

- إيه بعرف آشيا.... بس طالما أجا لهون المفروض نلتقي فيه.

- راح اسأله وشوف رأيه.

هنا تدخلت فاطمة قائلة:

- لا تسأليه ممكن تحرجيه... تركيه يخبرك لحاله.

- ولو ما خبرها؟ مابنقابله؟.

تطلعت ميريديث إلى أولادها يتحدثون بلغة لا تفهمها، لكنها تدرك أنهم يتحدثون عن أنس، فقالت أخيرًا:

- آشيا أرجو أن تخبري أنس وهاشم أننا ندعوهم للغداء عندنا في المنزل... ستكون حجة جيدة لنلتقي بفتاكِ.

ضحك الجميع تعليقًا على كلمة فتاكِ، ثم نهضت آشيا لتستعد، أخذت إجازة من محاضراتها وكذلك إجازة مرضية من عملها، ولم تهتم حتى لو فقدته، فلقد بقي من إجازة أنس يومان فقط غير يومها هذا، كان أنس واقفا ينتظرها بالقرب من شقة هاشم، لم يوصله أخوه لأنه خرج لإنجاز بعض الأعمال منذ الصباح، فاتصلت آشيا بأنس، وفهمت الوضع منه، وطلبت منه أن ينتظرها في بداية الطريق، كان يصر ألا تصحبه إلى أماكن جديدة بباتون روج، قائلًا إنه قدم لمقابلتها وليس للسياحة في المدينة، لكنها أصرت أن تأخذه لزيارة أحد المتاحف التي تعرض تفاصيل الحياة الخاصة بالسكان الأصليين القدماء للولاية.

كانت تشير إلى ما هو معروض بالمتحف، وتشرح له باهتمام وحماسة، لكنه لم يملك من الفضول ما يجعله يتطلع لشيء سوى وجهها، كلما تطلعت إليه وجدته يتطلع لعينيها ويبتسم تلك الابتسامة التي تعني أحبك، فأمسكت بذقنه، وحركت رأسه محاولة دفعه للنظر إلى حيث تشير دون جدوى، كان في النهاية يمسك يدها، ويرفعها ليقبلها، فتنسى ما تراه أمامها، وما أرادت قوله، سارا معًا في الشوارع دون وجهة محددة، كانت آشيا تشعر بالأسى لمضي الساعات بسرعة البرق وهي برفقته، وكلما تذكرت هذا قطب جبينها فضغط أنس بسبابته بين عينيها وقال:

- شو بكِ؟... مو سعيدة معي؟...

- بالعكس... من فرحتي مابدي الوقت يمر.

- قدامنا العمر كله آشيا.... ماراح تكون آخر زيارة لهون بحياتي.... مفكرة حالك لحالك المهمومة؟.... وحدك ياللي محتاجة تتطلعي فيني؟.... أنا كمان ماعدت بقدر بعد عند منوب... ماعاد بيكفيني النت والكاميرا.... من لحظة ما تتطلعت بعيونك بالمطار قلت خلاص.... ها الصبية إلي وبس.

أشاحت آشيا وجهها بخجل وهي تقول:

- من هلأ صرت إلك؟

- إيه... شو عندك اعتراض؟..... وينو أخوكي بدي إلتقي فيه.

غطى الارتياح وجهها وقالت:

- صحيح ذكرتني.... ماما بدها تعزمكن انت وهاشم عنا عالغدا.... فيها تشوفكن وتسلم عليكن.

أومأ لها برأسه وسكت قليلًا ثم قال:

- هلأ حاسس بالتوتر شوي... لازم أدخل قلب السيدة الوالدة.

- الماما بتحب أي شخص بحبه.

- وانت بتحبيني؟

- أنا بعشقك.

- يا الله... يا الله ماعدت قادر أتحمل.... ماتحرمني من ها الصبية يارب.

ورفع يديه بالدعاء، فأخفت نصف وجهها الخجِل خلف ذراعه وهي تضحك، في اليوم التالي دعته لركوب المنطاد في ساعات شروق الشمس، ذهب معهم هاشم وخالد الصغير، كان المنطاد يكفي لراكبين فقط، بجانب المشرف الخاص بالمنطاد، مما جعل آشيا وأنس يركبان بالبداية بمفردهما، جلسا في السلة كأنهم صغار قطط، وبدأ مقود النار يدفع القماش المتين ليتسع، فرموا أكياس الرمال من المنطاد، وبدأ يرتفع بهم شيئًا فشيئًا، كانت مراقبة شروق الشمس من المنطاد وهو يطير فوق الأرض من أروع لحظات عمرهم.

صاح أنس - من فوق المنطاد وهو يراقب قرص الشمس يطير لأعلى معه- بحب آشيا، كان ينادي آشيا صارخًا وهي تناديه، وبينهما بضعة سنتيمترات، ظلا يلوحان لهاشم الذي بقي ممسكًا بيد خالد خوفًا، وكأنه سيهرب منه، لأنه كان أمانة أوصته عليها فاطمة طويلًا، رأوا المناطيد الأخرى تطير فوقهم وتحتهم، كل من فيها يلوح لهم وهم يلوحون له بفرحة وبهجة، راقبوا ألوان الكرات المنتفخة التي تطير بفعل شعلة من النار وكأنها بيض ملون، يحمل عشرات الرسومات المختلفة من النجوم والكرات والمكعبات والمعينات المختلفة الألوان، كان منظرها ساحرًا مبهجًا أطاح بعقلهم وجعلهم يشعرون أنهم يعيشون حلمًا، شعور لا يوصف أن ترتفع عن سطح الأرض وتحس بالرياح تداعبك كأنك طير، فَرَد كل منهما ذراعيه، صاح أنس قائلًا:

- آشيا بدي إياك تصيري مَرتي....

- شو عم تحكي؟

- بدي تصيري مَرتي... بدي تزووجك...

- بدك صير شو؟

- مَرررررررتي...

ظل يصيح وهي تسأله ويصيح زوجتي زوجتي، حتى شعرت أن هذه الكلمة قد رنت في كل ولايات أمريكا الخمسين، كانت تغطي وجهها وكأنها لا تريده أن يراها في هذه الحالة، قلبها ظل يدق حتى شعرت أنها ستصاب بالإغماء، فطلبت إليه أن يسارع بهبوط المنطاد فأطفأوا المقود ليدخل إلى البالون الهواء البارد، ويهبط شيئًا فشيئًا، لم يدر أكان دوارها المفاجئ من الارتفاع الذي كان عليه المنطاد أم من الخبر، وبعد أن هبطوا أسندها هو هاشم لتجلس على أول كرسي، مراقبين صدرها الذي يعلو ويهبط سريعًا بقلق، أعطاها أنس كوبًا من الماء وحاول مرارًا الاعتذار لها فقالت له بين أنفاسها:

- مافي اعتذار بين الأزواج وبعضن...

فتراجع هاشم إلى الوراء وهو يراقبهما، كاد أنس يطير من الفرحة فقال هاشم:

- ولك شو سويت للبنت... تزوجتها بالجو؟

فضحكوا جميعًا. جلس أنس إلى جانبها ممسكًا بيدها، وهم يراقبون هاشم يرتفع مع خالد في منطاد آخر، وبعد قليل لم يعرفوا أي منطاد كان لتشابك الألوان وتشابهها في الجو، بدا لهم ذلك المنطاد الضخم جدا صغيرًا مثل الفراشة مرسومة على صفحة السماء الصافية، جلسوا وسط الحشود وظلوا يلتقطون عشرات الصور للمناطيد الملونة وقرص الشمس الراقص شروقًا وصورًا لهم مع بعضهم بعضا لذكرى يوم ساحر في حياتهم، حكت له آشيا عن أهمية المنطاد في باتون روج وأنهم يقومون بمسابقة سنوية في أواخر سبتمبر لراكبي المنطاد، أرته الصور التي التقطتها من كل عام لهذه المسابقة، صور التقطتها من شوارع المدينة لأن المنطاد كان يرتفع فوق كل مكان، فتتناثر في السماء تلك المناطيد الملونة في هذا الوقت بالذات من كل عام، شعر بالأسف لأن المهرجان فاته للتو، راقبت ملامحه الحائرة ودفعته فجأة من كتفه قائلة:

- وين الأمانة؟

- أي أمانة؟

- اللي وصيتك تجيبهالي.

- شو تقصدي؟

- فرجيني جِزدانك.

فأخرج محفظته وفتحها، رأت صورتها ترقد فيها وهو يحتضنها، فتذكرها أنس وأخرج النسخة الأخرى للصورة من جيبه، وأعطاها إياها، لامستها بأصابعها وكأنها قد تلقت للتو جوهرة، قبلت وجهه في الصورة وضمتها إلى موضع قلبها وهي تتطلع إليه، كانت تلك دون شك أجمل أيام حياتهم، عادوا جميعًا وأخذوا قسطًا من الراحة، فقد كان أنس وهاشم مدعوين على العشاء في المساء، باعتبارها آخر ليلة لأنس في باتون روج، ظهيرة الغد كان سيركب الطائرة التي ستوقظهم جميعًا

من هذا الحلم وتعيدهم إلى روتين حياتهم السابقة، اجتمعت النساء الثلاث في الطبخ، يعددن أفضل الأطباق من أجل الضيوف.

في تمام السابعة مساء كان هاشم يطرق بابهم، فتح لهم مازن ورحب بهم كثيرًا، وقفت آشيا عند باب المطبخ تراقب أنس وهو يدخل، كان يحمل بيده باقة ورد وعلبة مزينة تحمل عشرات القطع من الشوكولاتة الفاخرة، كان أنيقًا تكاد وسامته تصيبها بالدوار، أنيقًا جذابًا يجعلها تفخر به أمام كل العالم بل وأمام نفسها، كانت تريد أن تتأبط ذراعه وتقول يا جماعة هذا الرجل يحبني أنا وأحبه أكثر من أي إنسان في هذا العالم، صافح مازن، وفي غضون دقائق صارا صديقين، كان أنس يحمل في جعبته دائمًا حكايات شيقة فولدَ ودا طبيعيا بينه وبين مازن جعل الأخير يشعر براحة كبيرة تجاهه وتجاه فكرة حبه لأخته، دعتهم ميريديث إلى المائدة، جلست آشيا أمام أنس ومازن أمام هاشم وفاطمة وميريديث على رأسي المائدة، وخالد على كرسي زائد إلى جانب أمه، كان الطعام بحريًا، أعجب أنس كثيرًا بطبق السرطان البحري المحشو ذات النكهة التي تتميز بها باتون روج، أجادت ميريديث صنعه ليعجبه، تناولوا الكثير من الأحاديث على المائدة وراق لهم جميعًا هذا الجو العائلي الدافئ والأمان والهدوء والسعادة الباقية حتى آخر الليل، صرح أنس لهم أنه سعيد بمعرفته هذه الأسرة الرائعة، التي نشأت فيها محبوبته آشيا، توقف مازن عن الكلام وحدق به مستنكرًا جرأته، وجه أنس نظره إلى ميريديث وقال لها بإنجليزيته المتقنة:

- لا بد أنك فخورة سيدتي لأنك أم لفتاة رائعة مثل آشيا... فتاة يشرفني أن تكون زوجة لي.

سعلت آشيا بحدة، وقد سقطت قطرات من عصيرها خطأ في قصبتها الهوائية، اندهشت ميريديث وهي تنقل بصرها بين ابنتها وذلك الشاب، وأكمل هاشم الكلام بالنيابة عنه شارحًا لهم كم يشرفهم أن يربطوا العائلتين بهذه الزيجة ثم التفت أنس لمازن وقال له:

- أتمنى أن توافق على زواجي من أختك... سأرعاها وأهتم بها أكثر مما أهتم بنفسي وسأحميها وأعاملها كالملكة.... أعدك بهذا.

سكت مازن قليلًا، فسكتت معه النساء منتظرين رده، التفت مازن لأخته وسألها رأيها فقالت:

- بتعرف قديش بحبه مازن..... انت بتعرف رأيي.

- خلاص مدام هيك... شو بيهم رأيي؟.... هي بتريدك تبقى حلال عليك.

ثم التفت إلى أمه وقال لها:

- إنها موافقة على الزواج يا أمي.

فهللت ميريديث، ونهضت لتحتضن آشيا، ثم صافحت أنس، ولدهشته أمالته لقصر قامتها نحوها وقبلته على خديه وربتت كتفه قائلة:

- أعلم أنك ستكون زوجًا طيبًا..... آشيا صغيرتي عانت كثيرًا... ستكون أنت تعويضها.

تهللت أسارير أنس وهو يستمع لكلامها، واحتفل الجميع بتلك الليلة وكأنها ليلة خطبة آشيا.

توارت فاطمة في الداخل بحجة الذهاب إلى الحمام، أرادت أن تخفي دموعها، قطعًا كانت سعيدة من أجل أختها، لكنها تمنت لو أنها تحصل على رجل مثل أنس، تمنت لو يحبها رجل لهذا الحد ويضحي من أجلها بكل هذا، ويفعل من أجل أن ينال رضا أهلها كما فعل أنس، تمنت لو أنها لم توافق قط على الزواج من موسى حتى لو سلخوا جلدها، تمنت لو أنها تعود بالزمن إلى الوراء حين كانت شابة صغيرة وتعيد اتخاذ قرارات حياتها، لكانت تصرفت بشكل مختلف، شعرت بخطوات خلفها، ورأت خالد يمسك طرف ثوبها ويناديها ماما، تطلعت إليه وهي تمسح دموعها، لم تكن مخطئة، قد تكون قرارتها خاطئة ومن حولها أهدروا حقها كثيرا، لكن كل الحب والأمان والسعادة التي تشعر بها وهي تحتضن صغيرها الرائع خالد يكفيها ويزيد.

هذا ما جعلها ترتعد في اليوم التالي حين ذهبت لتأخذه آخر النهار وتعود به إلى المنزل، فوجدته في الحديقة يجلس مع موسى، فركت عينيها لتتأكد أن بصرها لم يصبه شيء، كان هو موسى بالفعل، يجلس بجانبه ويتحدث إليه، بدا خالد هادئًا وكأنه يتحدث إلى صديق، رأت تلك العربة الصغيرة التي تلف حولهم بالريموت، والتي من الواضح أن موسى أغرى خالد بها، جرت مسرعة نحوهم، وكأن زوجها تحول فجأة في نظرها لخاطف، أمسكت بذراع خالد وسحبته إلى حضنها بعنف، مما أفزعه وجعله يصرخ، لم تذكر على وجه التحديد السباب الذي أطلقته نحو موسى، ولكنها ظلت تسبه وتلعنه بكل ما في قاموسها، ورحلت مسرعة قاذفة بريموت اللعبة في وجهه، ورحلت بابنها راكضة، شعرت بالراحة لأنه لم يلحق بهم، لا يلحق بهم لأنه يعرف أين يمكن أن يجدهم، لم تستطع أن تعود مباشرة إلى المنزل فظلت تلف الشوارع في محيط المنزل، وهي تفكر، كانت تتطلع إلى وجه خالد بين الحين والآخر بطرف عينيها فوجدت الإحباط باديًا عليه، فجأة توقفت ثم ثنت ركبتيها وصارت عيناها في مقابلة عينيه وقالت له بحنان:

- خالد رعبتني عليك.... مو حكيتلك ماتحكي مع أغراب ولا تجلس وياهم منوب.... شو كان بيصير لو كان خطفك.

- بس ها الشخص ماكان غريب... حكالي أنه والدي.

لم تتمكن من مقاومة الرجفة التي أصابتها، فوضعت كلتا يديها على كتفيه وكأنها تستمد منه القوة وليس العكس، حاولت أن تتكلم، أن تنفي، لكنه بادرها:

- ماما..... ها الرجل حكالي كتير عنكن... عن سوريا... عن الظروف اللي خلته يسافر مشان ينشأ حياة هون تليق فينا... حكالي أنك ما تحملتي تنطريه.... لهيك تطلقتوا... حكالي أنه بيحبني وبده ياني كون سعيد.... حكالي أنه محتاجني ومحتاج

يحس بحب ابنه إله مثل ما أنا محتاج يكون لي أب وأنه ندم على السنوات اللي ضاعت.... حتى سألني عن مستر سليم.... وقالي بأوعدك ما أترك أمك تروح لرجل غيري... وراح نرجع أسرة من جديد أسرة كبيرة وسعيدة.... هو حكالي هيك.... راح نكون أسرة سعيدة ماما.... مارح تبكي مشان خالتي آشيا بتتزوج وانت لا.

هبطت دموع فاطمة وهي تراقب لهفة خالد ونبرة صوته وهو ينقل إليها خطبة والده التي لا بد وأن تأثر في أي إنسان، كلمات تحمل معاني أكبر من أن يستوعبها عقل خالد، لكنه قطعًا تأثر بها، شعرت بمدى حاجته ليكون مثل بقية أقرانه، وبأنه يحس بها رغم كل شيء، لم تستطع أن تكذب وتقول له إن هذا ليس والده، ظل يؤكد لها أنه رآها تحدثه من قبل وأنها بدت غاضبة من كلامه وقال أخيرًا بسذاجة طفل يحتاج أبًا:

- ماما سامحيه.... إذا زعلك ما راح يزعلك منوب... هو وعدني.

بكت كثيرًا، فرفع أصابعه الصغيرة وظل يمسح دموعها، كيف يمكن أن تحكي له عن معاناتها في سوريا، كيف يمكن أن تقول له إنه مر فوق جسدها وحياتها وداس على قلبها فقط ليصل إلى هنا، كيف سيتفهم عقله الصغير حجم معاناتها وأنها بيعت من أجل رغبة السفر بداخله، كيف يمكن أن تقول له إنها هربت به حتى لا ينتهي به الأمر مثله بل وأسوأ، لم ترد أن ترهق قلبه وتشوه عقليته بكم الذل والمهانة التي تعرضت لاه منه ومن أهله ومن حوله، كل ما استطاعت قوله هو:

- انت ماتعرف شو سوى فيني.... ماتعرف شي.... ماكان ممكن أحرمك من بيك مشان شجار صغير خالد.... أنا انظلمت كتير.

لم يتوقف عن مسح دموعها. دارت به الشوارع، ولفت به العديد من الأماكن لتحاول أن تتماسك، قبل أن تدخل من باب منزلها، توحشت الغربة في نهشْ قلبها ذلك اليوم، شعرت بالضعف والخوف، شعرت أن كل هؤلاء الناس الذين يسيرون حولها ويرتدون مثلها ويتكلمون مثلها لا يعرفونها ولا يحبونها ولا يتمنون لها شرًا أو خيرًا، فقط اللامبالاة، هي الرائحة المنبعثة من كل شخص هنا، لن يبالوا بها إن ماتت أو تألمت أو حتى صرخت، لن يتطلعوا لها بعين التعاطف بل سينعتونها بالمجنونة، لن يستمعوا لمشكلتها بل سيطلبون الشرطة لتقبض عليها، شيء ما بارد يُزرع في خلايا هذه القلوب مع ولادتها، اعترفت لنفسها أنها على الرغم من كل الحرية والراحة النفسية التي عاشتها في أمريكا فإن احتياجها في يوم من الأيام لشخص ما مبدأ يخيفها، وهذا هو الشيء الوحيد الذي افتقدته في سوريا، التعاطف في الناس مع أشخاص لا يعرفونهم، يهبون لمساعدتهم لشيء ما دافئ في أعماقهم، اعترفت لنفسها بهذا رغم أنها لم تشارك أحدًا هذا الشعور خاصة أختها آشيا الناقمة على كل شيء سوري في الكون، ضحكت في ذاتها وهي تتذكر أنه بعد كل هذا وقعت آشيا في حب شاب سوري، قدرها أن تعود لسوريا إذن.

لم يكن أنس نفسه يستطيع أن يودع آشيا، لذا رفض أن تأتي معه إلى المطار، وقال لها إنه بمجرد وصوله إلى قطر سيحدثها على النت، رحل من أمامها بسرعة كما

مرت تلك الأيام الأربعة، لكن ساعات سفره وحتى وصوله كانت طويلة على آشيا ومليئة بالبكاء، لامتها فاطمة وهي تراها تبكي بحرقة قائلة:

- على شو عم تبكي انت؟..... عاشقة وبتتزوجي حبيبك عن قريب... مابده من الكون غيرك..... شو بدك أكتر من هيك؟.... كلها كام شهر وتعيشي وياه وتنسينا... المفروض تكوني أسعد مخلوقة مو تبكي.

- إيه بس ماتوقعت هيك تمر الأيام بسرعة.... ماكان بدي يسافر... كان بدي يضل معي هون طول العمر.

كان جهازها مفتوحًا تتطلع إلى اسمه لتلقطه بمجرد أن يصير متصلًا، وجدت عدنان متصلا، أرسلت إليه علامة وجه دامع، كان لا يزال غاضبًا منها، حتى قبل أن تنشغل عنه في الأسابيع الأخيرة، قلتْ اتصالاته، وصار كلامه معها سطحيًا، لكنه لم يكن ليقاوم أن يمد كتفه لها لتبكي عليها، لم يكن يتحمل كلامها عن أنس، ومع هذا استمع لها بصبر، شعر بقلبه ينزف وهي تحكي له أنها ستُخطب قريبًا لحبيبها، تمنى لو أنها تسكت، لو أنها تختفي من أمامه، تمنى لو يحطم كل شيء حوله، لكنه بقي صامتًا مستمعًا لها فقط لأجل بقايا الدموع في عينيها التي قيدت قلبه وجعلته يصبر عليها، بعد أن أنهت حكايتها ومسحت دموعها، سألته عن حاله، نقل إليها خبر تركه لخطيبته بهدوء وبرود وكأنه ينقل إليها خبر خسارة فريق كرة قدم في مباراة يتابعها، شهقت غاضبة وظلت تلعنه وتلومه فقال لها بهدوء:

- ماعاد عندي حب أعطيه لحدا آشيا.... ماعاد في قلبي غير الغضب.... الحنق الألم..... ماقدرت اتحمل ابتسامتها ولا دلعها علي ولا تقربها مني.... ماعدت متحمل شي حولي.... صرت عم حس كأني قنبلة على وشك الانفجار.... يوم نجر مجرم لقسم الشرطة عندنا.... مابيريحني غير صوت ضلوعه عم تتكسر تحت أقدامي.... هذول الحثالة اللي بدهم يدمروا البلد.

جمدت آشيا وهي تراقبه يتحدث، اختفى صديقها عدنان، لم يعد موجودًا بداخل هذا الرجل الذي يكلمها، جمدت بصمت وهي تراقبه يتحدث ويحرك أصابعه كأنها مخالب، يصف لها العقاب الجسدي الذي يلحقونه بأي سجين أو مجرم كأنه يصف ما يفعله ضد عدو إسرائيلي أو آكل لحوم بشر، وليس مواطنا سوريا مثله قام بجريمة ما، تطلعت إليه كما تتطلع إلى نمر متوحش، هادئة تخاف أن تثيره، لم تلحظ أن الحب الذي تراكم بقلبها يقابله غضب متراكم في روح عدنان، غضب أظلم أعماقه وجعله هذا الكائن العجيب الذي يكلمها، تاهت عنه البهجة والضحكات، لم يعد يغني لها ولم يعد يستسيغ أي موسيقى، ببساطة كل شيء جميل كان يذكره بآشيا، حاول كثيرًا التخلص منها في أعماقه حتى وصل به الأمر أن يتخلص من كل شيء جيد في حياته فلم يترك فيها سوى القبيح السيئ، رمى الكثير من حمولة السعادة والذكريات ليطفو على بحر النسيان، حتى غرقت روحه نفسها.

تخلص من عدنان القديم لأنه كان عدنان بها ومن أجلها، هي ما عادت له، بل وتُمعِن في جرحه وتحكي له عن حبيبها، تمعن بتحجميه في دور الصديق حتى نسيت أنه رجل، نسيت أنه قلب أحبها بصدق لا مثيل له، نسيت مقدار الألم الذي يمر به،

يعرف تلك الملامح في وجهها ماذا تقول له، تقول إنه متوحش بلا قلب ليقبل أن يفعل هذا بسجين ويقنع نفسه أنه وأمثاله يدمرون الوطن وينظر إليها هو بتحدٍ يكاد يصرخ ويقول لها أتعلمين كل هذا العذاب الذي يتلقونه؟ أنا أتلقى أضعافه منكِ! ولكني أريد أن أسألك، ما جريمتي؟ ماذا فعلت لأتلقى منك عقابا كهذا؟ بقي يتطلع إلى ملامحها المشمئزة وهو يبتسم بتشفٍ، ربما فقط بهذه الطريقة، يستطيع أن يرد لها ولو نقطة من الألم الذي يمر به، حتى حين أنهى الحديث عن الأوضاع بسوريا ونقل لها خبر ذلك التونسي الذي حرق نفسه فدفع لافا من الناس لتطالب برحيل رئيس تونس، قال لها ضاحكًا إنه هرب إلى السعودية، لم تنتبه، ولم تعر الخبر أي اهتمام، فقط كانت تائهة تبحث في خطوات خلفها، لتعرف أين بالضبط أضاعت عدنان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت آشيا تمر بأجمل مراحل الحب على الإطلاق، تمازح حبيبها طوال الليل والنهار عن التفاصيل الدقيقة التي سيكون عليها بيتهم، سريرهم، حمامهم، يتشاجر معها لأنه يريد لون الحمام أزرق، ويرسل لها أكثر من صورة لتصاميم تعجبه، وهي ترسل له بالمقابل تصاميم مختلفة محاولة أن تقنعه بها، يرتفع صوتهم ويتداخل كلامهم فلا يسمع أحدهم الآخر حتى ينفجرا ضاحكين في النهاية، كان كل شيء ساحرًا حتى قال لها فجأة:

- ايمتا رح تيجي ع الشام؟... مشان تلتقي في أهلي... أمي بدها تشوفك... حكيتلها كتير عنك... مو لازم نسير ها الخطوات بسرعة لحتى نتم زواجنا على نهاية السنة؟

شعرت بوخزة في قلبها، لكنها حافظت على ابتسامتها العريضة وقالت له بهدوء:

- أنس حبيبي.... بتتذكر كيف كنت باحكي لك عن كل اللي مريت فيه بسوريا؟

- إيه وشو علاقته في أهلي؟... ماتقلقي مارح سلمك لعمك المتوحش.

- القصة مو هيك..... أنا شرحتلك قديش بأكره ها البلد.

- شو يعني آشيا؟.... كلنا بكرهها.... مشان بنعاني بسببها.... وكلنا بنقول هيك من ورا قلوبنا.... وكلنا بنرجعلا بالأخير... ونبوس ترابا.... وكلنا بنفديها روحنا.

- أنا موهيك.... أنا فعلا فعلا بأكرهها.... ومستحيل أرجع عيش فيها حتى لو...

- حتى لو شو؟.... حتى لو تزوجتيني؟

تراجعت آشيا في كرسيها، وكأنها بهذه الحركة ستقدر على التراجع عن كلامها، لكنها حاولت أن تكون أكثر هدوءا وتزن كلماتها، قالت له:

- حبيبي... مهما وصفتلك وحكيتلك مو ممكن تفهم شو بتحملي سورية بأعماقي..... مافيني أرجعلا... أنا هربت منها أنس... هربت... أخوك حكالك كل شي... حكالك كيف كانت جروح ظهري من الضرب بالسوط ياللي تلقيته وأنا بعدي صغيرة.... حكالك كيف كنا نركض وسط الليل في الظلمة مشان نوصل للسيارة قبل ما يمسكونا

ويذبحونا... حرموني من أمي وجبروني أكرهها وهي كانت مظلومة وتركوني أعيش بعيد عن حضنها كل ها السنوات مشان عند.... ومارحموني وما رحموا ضعفي ولا حرماني... أمعنوا في إذلالي.... اللي عشته في سورية مو هين أنس.... لحتى أرجعلها بهيك بساطة... انا كنت عم أقول دوما... ماراح تزوج سوري لهيك سبب...

- وهلأ؟.... هلأ صارت المصيبة.... وحبيتي السوري.... وقعتي بالخطأ ياللي هربتي منه سنوات....

شو بتسوي؟... ما استحق تعيدي النظر؟

- إيه حبيتك بس ماتوقعت تطلب مني نرجع لسورية..... انت هلأ بتشتغل بقطر...

- عقدي بينتهي بعد عام واحد آشيا....

- فيك تجدده..

- مابدي.... بدي استقر.... بدي أبني بيتنا وياكي ونجيبلنا شي دستة أولاد يكبروا ويانا ويحبونا وندلعهم صغار ويرعونا كبار....

- ممكن نسوي كل هيدا بأمريكا....

- شو؟.... بدك ياني عيش عمري كله متغرب؟

- يعني بدك صير أنا اللي متغربة؟

- شو عم تحكي انت.... سوريا وطنك... انت سورية آشيا.... مهما حكيتي أمريكاني ولبستي أمريكاني وعيشتي معهن.... انت بالأخير سورية.... ماراح تقدري تمحي هيك شي...

- إلا.... ولك بأقدر أمحي كل شيء سوري فيني.

- حتى لو كان حبي؟

- أنس لا تخيرني.... الموضوع ماله علاقة فيك..... ببساطة أنا بدي عيش وياك عمري كله وفوقه ألف عمر.... بأي مكان بالعالم كله إلا سوريا....

صدم الاثنان في بعضهما، حين أزاح كل منهما قليلًا سحر الحب، وتطلع إلى ورقة أماني الآخر، وشعر بمدى تباعد نقطة الالتقاء بينهما، صمت أنس وهو يحدق بها، ثم قال ببطء وكأنه يحدث نفسه:

- مو بس انت آشيا.... أولادنا... بيصيروا سوريين.... مابدي يكونوا بلا هوية... مابدي يلبسوا ثوب ما يلبقلهم.... أبوهم وأمهم بيكونوا سوريين.... كيف بدك ينولدوا ويعيشوا بعيد عن وطنهم... كل ها السنوات ياللي عشتها بالغربة.... كنت مثلك عم إلعن سورية وآل بشار والنظام كله..... كنت عم إلعن الجهل المتفشي فيها والزحام والدخان والوساخات اللي بتسير بشوارعنا أكتر منا... كنت ألعن كل شي فيها إلا

هي... أنا بحب سورية آشيا... بحب نفسي فيها.. بأكون نفسي بس فيها.... تربيت فيها وحفرت ذكرياتي فيها.... إذا ماكانت سوريا وطنك... شو هو وطنك؟.... أمريكا؟

صمتا، فأكمل:

- تطلعي بعيوني وخبريني إنك فعلا عم تحسي حالك بوطنك... عم تحسي بها الاطمئنان حتى في أسوء وأحلك الظروف بيخبرك عقلك... على الأقل أنا بوطني وسط أهلي ومعارفي وأحبائي..... وسط شوارع بتعرفني وبعرفها.... ناس دمي عندهم إلُه معنى.... شو بتعني انت لأمريكا ولا الشعب الأمريكي؟.... مشان بتحملي جنسيتهم خلاص صرتي منهم؟.... ماراح تكوني منهم لو سلختي جلدك وبدلتيه بجلد أمريكي.... بتضلي طول عمرك مواطنة من الدرجة التالتة بالنسبة إلهم... صحيح المواطن من الدرجة الأولى عنا بيتعامل أسوء.... بس ع الأقل... بيحس أنها بلده ملكه... كيف بدي أشرحلك؟.... مابعرف كيف أشرحلك شو معنى وطن تنتميله.... متل ما أنا مابعرف كيف بتحسي وانت مالك وطن ترجعيله.... كأنك عم تسيري بدون بوصلة...

وتوالت الأيام على هذه الحال، كل يوم شجار جديد يؤجل تحقيق حلمهم بالزواج، هو يملأ رأسها بالحديث عن سوريا والبلد والوطن وتربية الأولاد القادمين، وهي تكرر على مسامعه أبشع ما مرت به، لعله يتفهم ألمها، لم تفهم كيف له أن يعتبر معاناتها غير كافية لتكره كل ما يخص سوريا، لم يستطع أن يستوعب أنها تفضل أن تظل تائهة بلا هوية على أن تكون سوريا بوصلتها، شعرت لأول مرة أنه بعيد جدًا عنها وعما بداخلها، كما شعر هو كذلك، مرت الأيام والشهور وهو يحاول جاهدًا دفعها للسفر إلى دمشق حتى للقاء أهله، يحاول أن يصل بها لحلول وسطية، تناسب حياتهم القادمة، ألمها زاد من عنادها، لم تُرد أن تضحي بأي شيء في سبيل أن تلتقيه في منتصف الطريق، تجلس هائمة طوال الوقت، كانت تستغرب اهتمام فاطمة المفاجئ بالتلفاز، وتتبعها لأخبار الوطن العربي، كأن هزة أصابته فصارت التشققات في كل بلد تسفر عن ثورة، كل الصحف تتحدث عن الرئيس التونسي الذي هرب، وتتساءل عن مصير الرئيس المصري الذي لم يتعلم من خطأ جاره، بل إنه كان أكثر عنادًا وتمسكًا بالسلطة، لم يفكر بالهرب وإنما واجه الجميع بالسلاح.

تذكرت آشيا محفظتها المصرية وحاولت الاتصال بها كثيرًا دون جدوى، كانت فاطمة تحاول سحبها لتهتم بهذه الأحداث التي بدت عظيمة للجزء الشرقي في تكوين فاطمة، لم تعتد فكرة أن يتغير حاكم عربي، بينما بدا الموضوع مضحكًا لميريديث، تحاول أن تتذكر كم من حاكم مر عليها في أثناء حياته،ا فلا يمكنها أن تحصى أسماءهم جميعًا، لم ترد آشيا أن ترهق نفسها بهذه الأخبار التي لا تعنيها في شيء، فلديها ما هو أهم، لكنها وجدت الجميع يترقب كل ما يحدث وكأن العالم كله يسير نحو فَنائه، حتى أنس نفسه كان يتشاغل عن مجادلاتهم بأن يحكي لها تفاصيل عديدة عما يحدث بتونس ومصر وحتى ليبيا، سألته وهي تفكر إذا كان يتوقع مثل هذه الثورة في سوريا فقال لها وقد اكتست ملامحه بالحسرة:

- مابعتقد منوب أنه بتقوم أي ثورة بسورية.... كل شي مراقب بسوريا حتى الهوا نفسه.... ممكن كون أنا نفسي مراقب وأنا عم عيش في ببلد تانية وبحكي مع ناس مو من سوريا.... بكل العالم العربي الحاكم مابيرحل إلا ملفوف بنعشه... لكن نحنا بسورية.... بنأله الحاكم.... ومافي إله بيموت... ولا بيرحل... بعتقد ها الخاطر مو ممكن يمر بعقل واحد منا إلا واعتقلوه....

- باعرف كيف بتفكر أنس... من زمان بدك مثل ها الشي يصير بسوريا.

- أكيد باتمنى الوضع يتغير.... بأعرف أنه مستحيل... بس الفساد بتونس ومصر مابيختلف عن الفساد عنا... هم رجال أكتر منا؟

راقبت آشيا مستفهمة الجماهير المتجمعة في سوريا تضامنًا مع الثورة المصرية في أواخر يناير وأوائل فبراير، ابتسمت وهي تفكر في نفسها أن هذا الوضع لا بد يعجب بثينة كما هو الحال بالنسبة لأنس، فجيناتهم الثورية واحدة، ولا بد أنها الآن منشغلة بتغطية الكثير من الأحداث لهذا لا تجيب على هاتفها، لم تكن تحب متابعة الأخبار لكن شيئًا من التوتر بات موجودًا بشكل دائم على ملامح أنس، وهو ينقل لها ما يستطيع الوصول إليه من أخبار الشارع السوري، حاولت طمأنته أن الجماهير في سوريا يسيرون تضامنًا فقط مع كل ما حولهم من ثورات ليشجعوا الشعوب المتجاورة على محاربة الذل والوصول إلى الحرية لكنه قال:

- مابعتقد بيضل الموضوع لهيك.... يوم 17 فبراير تجمهر التجار في سوق الحريقة.... في واحد من الأمن أهان تاجر وابنه.... كان في مظاهرة كبيرة آشيا.... كانوا عم يصرخوا الشعب السوري ما بينذل.... الموضوع كبر كتير لدرجة أنه وزير الداخلية تفاهم مع المجموعة.... وكل اللي تظاهروا في دمشق تم القبض عليهم... كل المظاهرة تم القبض عليها تخيلي؟... وأمبارح كانت وجوه الناس عم تغلي قدام السفارة الليبية.... حاملين شعارات خاين اللي بيقتل شعبه... الناس عم تصرخ وكأنهم عم يشموا ريحة شي... حسيتهم عن يصرخوا خايفين من شي ممكن يحصل..... مو مسألة تضامن.

تألمت آشيا لمقدار الرعب الذي دب في قلب أنس ذلك الشهر، كل يوم يزودها بتفاصيل سياسية غريبة وبغضب وتأثر، ويقول لها باستمرار:

- خايف على أهلي.... خايف على وطني.

هاشم كان مسافرًا إلى اليونان لإنهاء بعض الأعمال، لذا شعر أنس أنه المسئول الوحيد، حتى جاءت تلك الليلة القاسية، شعرت فيها أن الدنيا تصفعها لتتقيأ كل السعادة التي أعطتها إياها، اتصل بها أنس فجرًا وصوته يرتجف غضبًا يحكي لها عن تلك الطبيبة التي فرحت بتنحي الرئيس المصري، واتصلت بقريبتها لتنقل لها الخبر وتشاركها الفرح، مجرد مزحة داعبتها بها، حين قالت عقبال اللي عندنا، مجرد كلمة، أنهت حياتها، وها هي الآن في السجن يعذبونها أيما تعذيب، حتى إن أحد أطفال أقاربها تألم لحالها، فدفعه الظلم البين وكتب على جدران مدرسته "الدور عليك يا دكتور" راميًا بشار بأنه سيصيبه ما لحق برؤساء العرب، وكانت النتيجة

اعتقال عشرات الأطفال من المدرسة، أطفال لم يحملوا سوى البراءة المصحوبة بالشجاعة، كل مجهول لهم جيد وليس سيئا، لم تلدغهم الحياة بعد حتى يعتادوا الخوف من المجهول، انفجر صمت الناس، كل شيء تغير، وحمل شهر مارس لهم كل المصائب، لم يتحمل أحد ما حصل لهؤلاء الأطفال ولا أهاليهم الذين تجمهروا حنقًا، لم يحتو الأمن آلام الآباء وطلب إليهم أن ينسوا أطفالهم، بل تبجح أحدهم صارخًا في وجه أب يتوسل إليه أن يعيد إليه وحيده، وأن زوجته لن تتمكن من إنجاب غيره، ليحرك فيه شيئًا من الإنسانية، فرد عليه الشرطي وهو يبصق على الأرض كأنما يبصق في وجهه قائلا:

- هاتلنا مرتك ونحنا بنخليها تنجب!

أصابها التقيؤ وهي تستمع لكل هذه التفاصيل اللاإنسانية، صعقت آشيا حين علمت باندلاع الثورة في سوريا، وصعقت أكثر لما حصل لتلك الطبيبة التي انتهت حياتها بسبب مزحة، أغلقت الهاتف مع أنس، لم تدر ماذا تفعل، اتصلت عشرات المرات بهاتف بثينة دون أن تجيب، شعرت بالخطر، دخلت غرفتها وجلبت دفترها القديم، جلبت رقم منزلها واتصلت به، مرة تلو الأخرى، حتى جاءها صوت أمها، ما إن ذكرت آشيا اسم بثينة أمامها حتى صم أذنها صراخ أمها وهي تقول:

- بنتي الصغيرة.... أخذوا مني الصبية!..... خلاص أخذوها.... بثينة راحت السجن!... بنتي راحت السجن.... بتفهمي شو؟.... بنتي ماتت... أكيد ذبحوها.... قتلوها الكفرة الأنذال.... بنتي.

ظلت تصرخ وتنوح حتى سقط الهاتف من يد آشيا.

وتسأل: ما معنى كلمة وطن؟

سيقولون: هو البيت، وشجرة التوت

وقن الدجاج، وقفير النحل، ورائحة الخبز

والسماء الأولى

وتسأل: هل تتسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف

لكل هذه المحتويات

وتضيق بنا؟

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

15

البكاء يفقدك الإحساس بالزمن، بكت آشيا لسنوات، اكتشفت أنهما يومان، كانت هائمة بين النوم والبكاء، في أحلامها تصرخ وتبكي، وفي يقظتها التي لا تستمر سوى دقائق، كانت تبكي كثيرًا، ترى على هاتفها اتصالًا من أنس، ولكنها لا تستطيع أن تمد يدها لتجيبه، جسدها كان يبكي، روحها كانت تبكي، كل خلية فيها كانت مدمرة، بثينة التي لولاها ما استطاعت أن تكمل بقية حياتها وأن تصل إلى أمريكا وترجع لحضن أمها من جديد، بثينة الآن مفقودة، قوات الأمن دخلت منزلها واجتذبوها من شعرها وقطعوا ملابسها في الطريق دون أن يجرؤ أحد على إيقافهم، شاب واحد لم يتحمل المنظر فركض ناحيتهم يصرخ أن يتركوها، فتركوه خلفهم قتيلًا بالرصاص الحي أمام الجميع! لا عدالة ولا إنسانية، شخص أزعجنا فقتلناه هذا كل ما في الأمر، تستعيد كلمات أم بثينة وقد أصابتها هستيريا، فقد رأت جسد ابنتها يُضرب وثيابها تُمزق وكأنهم على وشك الاعتداء عليها أمامها بكل بساطة، منذ تلك اللحظة لم يعد لها عقل وصارت تصرخ وتبكي طوال الليل والنهار.

أدركت آشيا منذ زمن طويل أن نهاية مشابهة ستكون لبثينة، لكنها لم تتخيل أن تندلع الثورة السورية بهذه السرعة، وأن يكون الرد متوحشًا لهذه الدرجة، تذكرت كلمات بثينة عن حافظ الأسد وما فعله في حماه، وفي المتظاهرين، في الثمانينيات، تذكرت كيف وصفت لها هروب آلاف السوريين وقتها، تذكرت كلامًا كثيرًا قالته بثينة دون أن تنتبه له آشيا لأنه لم يكن يعنيها، هو الآن يقتلها، يقتلها أن تتخيل أن الجرائم التي تحدث في ليبيا ومصر يمكن أن تحدث في سوريا، بل يقتلها أن تحدث لأقرب الناس لها، بثينة، حين تتابع موت الآلاف في الأخبار والجرائم اللاإنسانية التي تُرتكب ضدهم، يختلف الأمر كليًا، حين يكون لك قريب فيها تحبه وتخاف عليه، هذا يجعل كل عنوان خبر كالقنبلة الموقوتة تخاف أن تمزقك أشلاءً، تنتبه إلى الأماكن التي تحمل الفاجعة وتقيس المسافة بينها وبين أحبائك، والأسوأ انقطاع الاتصال بينك وبينهم، يذهب عقلك إلى أكثر الأماكن سوادًا ويتخيل أقذر التفاصيل التي يمكن أن تحصل متواطئًا مع غموض الحدث ليثير ذعرك وينهشك من داخلك، أجابت آشيا باكية اتصالات أنس أخيرًا، أجابت صراخه القلق بالبكاء والنواح، حين سألها أخبرته أنها فقدت بثينة، ظلت تبكي وتبكي، جاءها بكاؤه على الطرف الآخر، كانت تلك المرة الأولى التي تسمعه فيها يبكي، الجدار الذي تستند عليه تصدع، وانهار، انهارت لبكائه، كم هو مؤلم بكاء رجل، يشبه الزلزال، الصاعقة التي تصيبنا في يوم عاصف، ظلت تواسيه وهو يواسيها وتبكيه ويبكيها، قال لها:

- آشيا.... الله يخليكِ.... إذا اتصلت فيكِ ردي علي مباشرة.... أعصابي ماعادت تتحمل شي..... مابتحمل أي شي يصيرلك يا كل حياتي.... انتِ بالذات لا....

- حاضر.... حاضر ياحبيبي.... حاضر.... بأوعدك ما يحصل من جديد... باوعدك.... أنا آسفة إني قلقتك.

- قومي آشيا وأغسلي وجهك.... فيقي حالك.... لا تستسلمي للحزن.... لا تنامي.... أنا محتاجك.

حين خرجت آشيا من الحمام، كانت إنسانة مختلفة، خرجت لتجد الحياة تستمر كما هي، فاطمة رحلت لتحضر خالد من المدرسة، أمها في العمل، كذلك مازن، حياتهم هنا هادئة مستمرة وكأن لا أحد على الطرف الآخر يحترق، لم تستطع أن تتصل بوالدة بثينة لأنها لن تقدر على تحمل صوتها ونواحها، نظرت إلى الطبق المعد أمامها، لم يكن لديها شهية للإفطار رغم أنها بقيت يومين دون طعام يذكر، كانت تدعو وتصلي بشكل مستمر، فتحت جهازها وتابعت الأخبار عبر الإنترنت، لا شيء مذكور سوى القتل المتعمد، الرصاص الحي، صور كثيرة لجثث مشوهة وأناس فقدوا توازنهم، يجرونهم على الأرض من أذرعهم، كانت تجبر نفسها ألا تنظر، ولكن الذهول يفقد عينيها القدرة على أن تغمض، اتصلت من جديد بأنس بعد أن هدأت، لكنها لم تستطع أن تصم أذانها عما قاله، حكى لها عن حصار درعا، كانت صوته هادئًا بأسى:

- الدبابات حاصرت درعا آشيا.... منعت ألمي والكهربا والطعام وحتى الهوا يوصل لأهلها..... تصوري قطعوا الكهربا بمنتصف الليل ودخلوا على المعتصمين بجامع العمري وقتلوهم كلهم... داسوا على المصاحف تصوري..... مو هاي تصرفات جنود إسرائيليين؟... ماعم صدق أنهم سوريين.... ماعم صدق أن ممكن رئيس يقبل هيك لشعبه... لأي فرد من شعبه.

- يا الله.... عن تحكي جد؟.... معقول ها الحكي؟

- ايه.... الدبابات محاصرة درعا هلأ.... الناس لما طلعوا على أسطح بيوتهن يأذنوا.... الجنود منعوهم.... حكولهم لا تقولوا الله أكبر.

غطت آشيا وجهها، لم ترد أن تسمع المزيد، كانت تتمنى لو يتوقف، كانت تتمنى لو يعود وجهه مبتسمًا كما كان، أن تضحك لها عيناه بدل تلك الهالات السوداء التي تحيط بها، لم يعد هناك حب في حديثهم اليومي، فقط خوف وترقب ومزيد من البكاء والقتل والتعذيب، تفتح الإنترنت فتجده ملغمًا بأخبار الشهداء والجثث، طفل كان يلعب قُتل برصاص حي غدرًا ودون أن يفعل أي شيء يستحق ذلك، صار أيقونة الثورة، حمزة الخطيب، الطفل الذي مات دون أن يلحظ ذلك، لم يعرف جرمه ولم يعرف أحد كيف مات حتى زملاءه الذين احتموا معه بالأشجار حين بدأ الرصاص الكثيف، وجدوه على الأرض بجوارهم دون أن يفهموا كيف حصل هذا، بدأ الجنون يصيب آشيا، اتصلت عشرات المرات بعدنان، لم يُجبها، حاولت على مدار أيام أن تتصل به لكنه لم يجب، حمدت ربها أن دمشق هي المدينة الوحيدة المستثناه من قطع الاتصالات، لم تيأس ولم تهدأ، حتى استسلم وأجابها، حاصرته بالدموع والأسئلة عن حال بثينة فانفجر:

- لهيك بتتصلي أه؟.... مشان الصديقة العزيزة....

بيكونوا موتوها أرتحتي؟.... الناس عم تموت كل يوم موبس المواطنين كمان الشرطة ياللي عم يضحوا بحياتهم مشان يحافظوا على الامن والنظام... كيف بدك أنقذ ذبابة من وسط مليون جثة ذبابة في صندوق كهربي؟.... السؤال هون.... شو خلاها ترفع جناحاتها لحتى تطير حد هلاكها؟.... كم مرة طلبت منك تحذريها؟....

كل اللي عم يصير بسوريا بسبب المخربين القذرين اللي مفكرين حالهم وطنيين وعم يسووا مظاهرات ويغنوا شوي لحمزة وشوي لدرعا.... عم يحرقوا البلد ومسويين حالهم المساكين الضحايا..... هادول شبيحة دمروا بلدي ولما عرفنا نرد عليهم هلأ زعلانين وعم يبكوا دم على الشهدا.... ونحنا شو؟... مو شهدا؟.... هلأ خفتوا الموت؟... لك وليش ناديته وزعلتوا لما شرف لعندكن.... وين الأشراف ياللي عم يحكوا عنهن؟... هادول أشراف؟... اللي عم يدمروا أشراف؟

- عدنان الناس عم تموت عن أي نظام عم تحكي؟.... عم يحاصرهم بالسلاح والدبابات... عم يقتلوهم بالرصاص الحي.... كيف بيكونوا شبيحة وهم سلميين؟... لمتى بتصير ماشي ورا آل الآسد اللي ماراح ينفعوك؟

- هاه... كتير ضحكتيني يا حلوة.... بعدك ساذجة صغيرة مهما كبرتي.... عم تسمعي كتير للإعلام الأجنبي تبعكن.... سلميين ومساكين وبدون أسلحة ومابدهم إلا مصلحة الوطن.... هادول كلاب.... يستاهلوا أكتر من الرصاص الحي.... يستاهلوا قنبلة نووية تمسحهم وتذوب عضامهن.... هدول السبب في كل اللي عم يصير واللي راح يصير... ماراح يتوقف لهون.... راح تحصل مجازر وكل البيوت بتتهدم.... ليش؟.... عشان شي كام ماسورة مي ضاربة على كم كوم زبالة على كام شاب تافه مالقى شغل.... قلبوا البلد على رؤوسنا.... وهلأ بيقولوا قتلونا.... راح نعلمهم درس.... وبالآخير تحكي عن آل الأسد شو دخلهن في هيك مهزلة؟.

- شو صارلك عدنان؟.... شو فيك؟.... مين انت؟.... عملولك غسيل دماغي؟.... كأني ما بعرفك.....

مو معقول هيك يكون تفكيرك.... هاي بثينة يا عدنان صديقتنا.... حتى لو كانت انسانة ما بتعرفها.... كيف بتقبل رجولتك يحصل لها كل هيك؟.... كيف بتنعت الأهالي بالجنون وتتهمهم أنهم شبيحة لأن حال البلد مو عاجبهم؟.... بها السنوات ياللي قضيتها في أمريكا سوريا رجعت لورا ميت سنة.... ماتظن أني ماكنت حاسة.... يوم كنت اسمع الأخبار من بثينة كنت أمرض.... حاولت أكون لا مبالية مشان ما يؤذيني.... حاولت أرمي ورا ضهري وأقول ماعاد يهمني.... لكن انت عايش بسوريا.... كيف ها الوظيفة خليتك متلهم؟... شو كانت متطلباتهم لحتى تلتحق بالشرطة؟.... ترمي قلبك؟... تموت انسانيتك؟... تذبح رجولتك؟... شو قالولك عنهن لحتى تقبل لهن الموت والذل والعذاب لها الدرجة؟... حتى لو كانوا متل ماحكيت.... كيف بتقبل هيك يحصل لسوري متلك؟....

- مابدي حب سوري.... مابدي أرجع... مو هيك حكيتي؟.... مو حكيتي أنها مو بلدك؟... شو دخلك هلأ؟... حبيب القلب؟.... صحيح شو جنسيته؟... مو سوري هو كمان؟... هو ماشي وأنا لا؟... ليش ياترى؟

- بيكفي حقارة.... شو يعني ماكنا لبعض؟.... شو يعني؟.... هاد مو سبب يحولك لها الإنسان اللي ما بعرفه.... اتصلت فيك لأنك الوحيد ياللي بتقدر تنقذ بثينة.... باترجاك وأبوس رجليك.... إنقذها... انسى مين أنا... أنسى شو صار بينا.... بس روح

أنقذها... ولاتصير هيك ضعيف.... انت ماكنت هيك.... ماكنت هيك عدنان.... الله يخليك..... الله يخليك رجعلي عدنان.

- بثينة ماتت.... وجثتها تقطعت... ارتحتي؟.... وعدنان مات.... ولا تتصلي فيني مرة تانية.

سقطت على الأرض بعد أن خارت قدماها، ولم تعودا قادرتين على حملها، لا تدري كم بكت، لكنها شعرت بذراعي فاطمة تحتضنها، قدمت راكضة على الدرج فقد كان صوت بكاء آشيا مرتفعًا حتى التقطته أذنا فاطمة وهي لا تزال في الشارع، حملت فاطمة أختها وجعلتها ترتاح على الأريكة، هم بعيدون آلاف الأميال عن سوريا وما يحدث فيها، ولن يصيبهم أبدًا شيء من نارها، لكن قلب آشيا يحترق، تألمت فاطمة لأجلها ولأجل بثينة، حتى هاشم لم يعد يجيب على هاتفه، ولم تعد تعلم أين هو، بقيت تحتضنها حتى جاءت ميريديث، اقترحت أن تجلب الطبيب، ولكن لا طبيب يداوي الحزن، قرر مازن حين رأى حال أخته أن يمنع عنها أي أخبار مما يحدث من مجازر في سوريا، لم يعلم أن مصدرها الأساسي هو حبيبها القلق على حال أهله، حتى هو لم يجب هاشم على اتصالاته، لكن كل هذا كان قابلًا للاحتمال بالنسبة لآشيا، كل هذا الجحيم كان هينًا قبل أن تسأل آشيا أنس عن أخيه وأنها قلقة عليه فرد عليها وقال:

- هاشم هلأ بتركيا.

- شو بيسوي بتركيا... وليش ماعم يجاوب اتصالاتنا فيه والله قلقنا عليه.

- غير رقم هاتفه آشيا.... عم ينطرني بتركيا.... لأني بأروح دمشق في خلال يومين.

- شو عم تحكي انت؟.. لا تقول هيك.... بالله عليك لا تقول هيك.

ثم انهمكت في بكاء حاد متوسل، فقال لها أنس:

- لازم روح أنقذ أهلي آشيا.... هلأ كله عم يهرب من سوريا على لبنان والأردن وتركيا.... بس الهرب للبنان عن طريق وادي خالد كتير مؤلم ومتعب ومو آمن.... كذلك الطريق للأردن.... مخيمات انطاكيا بتركيا هي الأكثر أمنًا مشان في حراسة مشددة عليها.... حتى الصحافة ما بتدخل للمخيمات... هيك حكالي هاشم بعد ما درس الوضع بالكامل.... أنسب مكان نروحه هو تركيا... لازم أطلع أهلي من هيك جحيم.

- أنس حبيبي... انس اسمعني... باتوسل إليك تسمعني.... هاشم فيه يهرب أهلك.... هو زلمة قوي وفاهم منيح.... بيقدر يسويها لحاله.... بس انت لا تروح.... بأحلفك بأله لا تروح.... لو بتحبني لا تروح.

- آشيا.... هادول أهلي.... هاشم هلأ في تركيا مافيه يرجع سوريا من جديد ولازم يكون موجود في استقبال أهلي.... لحتى يوفر لهم كل الرعاية اللازمة.... بيي ختيار (11) آشيا مافيه يتحمل حياة النازحين.... أنا وهاشم اتفقنا على كل شي.

- انت مجنون... أكيد مجنون.... انت انسان أناني... مافكرت فيني.. مافكرت في مشاعري..

مافكرت كيف راح اتمزق عليك؟.... شو ممكن يصير لي لو لمسوك بضر؟.... ممكن تموت هناك أنس... لا.... إلا انت... أي شخص يروح إلا أنت.... انت حياتي أنس ابوس إيديك ورجليك لا تروح.

- آشيا لا تعذبيني.... بيكفيني السكاكين اللي عم تسير بدمي.... بيكفيني البكا ياللي في عيوني.... بيكفيني ألمي على وطني وأهلي وأرضي... أنا ماحكيتلك بأروح أجاهد.... أنا رايح لحتى أنقذ أهلي.

- ولك وين عقلك يا أنس؟.... كل اللي طلع منها مارجعلها منوب... اسمعني الله يخليك.... لا تروح.... خليهن هنن يجوا على تركيا.... لا تروح.. ليش تروح للموت برجليك.... هادول ما بيرحموا حدا حتى الأطفال والنساء.... شو بيسووا فيك؟

أغلق أنس عينيه بألم، شعرت آشيا للحظات أنه هو الآخر ليس هناك، هو الآخر فقدته، غيرته الفاجعة، ولم يعد كما هو، قال لها بقسوة:

- ما بعرف كيف تربيتي انت.... مابعرف كيف بتتحملي كلمة نازح على أفراد شعبك.... كيف بتقولي سعيد وسالم.... ولك اتطلعي فيني.... شايفتيني سعيد؟..... شايفتيني سالم؟..... مشان الدم ما بيهطل مني متل المطر ويغرق أطرافي ووجهي صرت سالم؟... مشان ملامحي ماضاعت بالتعذيب صرت مرتاح؟.... أنا بأموت مليون مرة بالثانية.... الشوارع ياللي كنت عم لف فيها ماعاد ليها وجود.... إلي أصدقاء ماتوا... مو مشان معارضين.... مو مشان كارهين آل بشار.... بل مشان ما بيعبدوه..... إلي صديق اتصل فيني وهو منهار... لأنهم قتلوا والده العجوز أمامه.... داسوا على رقبته وأمروه يقول لا إله إلا بشار... قالهالهم عشرين مرة وماصدقوه.... بالأخير قوسوه ([12])... مشان نبرته ماكانت صادقة متل ما تمنوا.... شو بيكون شعوري وأنا عم تخيل ها المنظر وأبوي مو معي؟.... أبوي في وسط فوهة البركان... وانت عم تحكي عن الحب.... وعن سلامتي؟.... أنا هون مسجون متعذب أكتر منهم.... لو متت معهن على الأقل بأكون مرتاح أني معهن... ما سألتي ولو مرة واحدة عن أهلك.... بعرف أنك بتكرهيهم.... بعرف أنهم عذبوكِ كتير.... بس هدول بينك وبينهم رابطة دم... لو شو ماصار بيناتكم مابيصير ماتفكري في مصيرهم.... شو بك آشيا؟.... هاي سورية.... سورية عم تذبل.... عم تموت.... عم يدمروها وياريتها باحتلال.... بتدمر من ذاتها.... من داخلها.... مابعرف كيف بتقدري تعيشي ومكان عيشتي فيه ولو مرة واحدة بحياتك ماعاد له وجود.... وناس قابلتيهم وحكيتي معهم ماعاد ليهم وجود.... كونك بعيدة عن دايرة الخطر مو معناتها انك مرتاحة... معناتها بتتعذبي أكتر منهم مليون مرة.... مو لازم اللحم يتقطع لحتى نحس بالألم....

حطمولنا أرواحنا.... لو حرقوا لحمنا وصفوا دمنا.... بيكون أهون.... صدقيني....

- بتلومني لأني بحبك؟... بتلومني لأني مابقدر عيش بلاك؟... بتلومني لأنك دوقتني الفرح بعد سنين ماكنت بعرف كيف طعمه؟... بتلومني أني خايفة عليك وبأحاول

أمنعك وانت رايح لقبرك... قديش قاسي.... ليش ها الثورة خليتكم كلكم بها القسوة؟.

- الموت آشيا... بعدك قاسية انت كمان.... سورية راح تكون.

- لا تحكي سورية.... لا تقول سورية مرة تانية.... مابيهمني حدا.... مابيهمني شي.... بيهمني انت وبس... إذا كنت زعلان على سوريا.... انت بالنسبة إلي سوريا.... لا تحرمني منك.... الله يخليك لا تقتلني... لاتروح.

- يوم يموت الوطن آشيا.... الفرد مو مهم.... يوم يسقط وطني ما بأكون سعيد.... مابقدر عيش.... ماعندي مكان تاني أرجعله.... أنا بحبك آشيا... بعشقك.... بعشق التراب ياللي بيلمس أصابع رجلك.... وانت بتعرفي ها الشي.... بتعرفي كيف انت إلي.... بس هاي أرضي... بلدي.... شو بيهم الحب هلأ؟.

- شو بيهم الحب؟!

ظلت تهذي وتعيد جملته وهي تبكي بكاء مريرًا ولا تشعر بنفسها وهي تبكي، اعتذر لها وأغلق الكاميرا، وفقدته، هكذا ببساطة، تركها خلفه، لم يقدر خسارتها المتكررة على مدار سنوات حياتها، لم يقدر أنه كان سقفها الوحيد، لم يقدر أنها حافظت على قلبها ولم تعطه لرجل حتى تطلعت إلى عينيه، لم يعرف معنى أن يفقد الإنسان حبه الأول، مؤلم أن يكون الحب الأول هو الحب الأخير!

منذ تلك اللحظة دخلت آشيا في دوامة لم تعرف كيف تخرج منها، حاولت أن تتصل بأنس مرارًا لكنه لم يعد يجيب على هاتفه، ومر ذلك اليوم الذي سافر فيه، صار خارج نطاق وصولها إليه، هو وهاشم، لم يعد هناك خيط يربطها به، تطلعت إلى خطاب بشار مُعلقًا على الدماء التي أراقها رجاله ضاغطًا على أسنانه لينطقها، دماء سورية، وكأن من ماتوا يؤسفه أن يعتبرهم سوريين، سمعته يضحك في الخطاب ويصفق له الجميع، كأنه ليس طرفًا في المعركة، كأنه يراقب طفلين مشاغبين يتشاجران ويؤذي كل منهما الآخر، فيوجه لهما النصائح بهدوء أبوي، كأن الرصاص الحي الذي أُطلق على الناس لم يكن سوى مزحة، وإن كان واقعًا فلا بأس، يستحقون ذلك، تطلعت إلى ملامح وجهه وتساءلت في أعماقها، كيف لا يقربه الشحوب بل كيف ينام وكل هذا يحصل تحت إمرته؟ رجل واحد، حبيبها فقط قد ذهب إلى هناك وقد رحل النوم عنها إلى الأبد، والمئات الذين ماتوا سدى، لا يستحقون أن يقضوا مضجعه؟ كيف لا يبدو عليه أي إرهاق أو شحوب أو حتى حزن، بل كيف لا يمثل حتى الحزن أو الغضب، بل كيف استطاع أن يلتقي أهل الطفل حمزة الذي مات ببساطة هكذا؟ يواسهيم ويعدهم أنه سيستمع لمطالبهم ومطالب الشعب، يعدهم برفع الأجور أكثر من ألف ليرة، ما الفائدة؟ ما فائدة كلمات مواسية لقلب أم فقدت ابنها هكذا ببساطة؟ اندهشت كيف لم ينقضوا عليه، كيف لم ينهشوا لحمه حيًا، وكيف وهي بعيدة كل البعد عن الأحداث تتمنى لو تفعل هذا بنفسها؟ أمضت آشيا كل لياليها بهذه الطريقة، تقرأ وتسمع وتتألم وتبكي، دون أن يقدر أحد على انتشالها مما هي فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبطت فاطمة الدرج ونظرت خارج الباب، فوجدت موسى أمامها، أخبرها منذ دقائق أنه بانتظارها في الأسفل فلم تصدقه، كان يرتدي ملابسٍ فاتحة اللون على غير عادته ويستند على الحائط بنوع من الاستكانة، بدا لها مختلفًا كثيرًا، وكأنه ليس هو نفسه الرجل الذي رماها خلفه ورحل دون ندم، سألها بتلطف إن كان بإمكانها السير معه قليلًا، لأن لديه مايريد قوله، سارت بجواره وهي هادئة، لم تنطق حرفا بينما سألها:

- شو أخبار خالد؟.... كيفو؟... منيح؟

- إيه.

- عم يذاكر منيح؟..... بده مساعده بدروسه؟... بأقدر أساعده صدقيني.

- المعلمة تبعو حكيتلي ما اساعده وأنها هي بتساعده وبتشرحله أي شي ناقصه.

تنهد موسى بحسرة، وكأنه تمنى أن تعطيه فرصة ليساعده، وأكمل وهو يتطلع إلى الطريق أمامه:

- كبر كتير خالد... يشبهني... مو ملاحظة؟

توقع أن تنقض عليه، أو أن تسبه، أو تتركه وترحل، لكنها وافقته بهدوء، تطلع إلى وجهها غير مصدق، تشجع، قال لها:

- عمر خالد هو الحاجز بيني وبينك مو هيك؟.... ها السنوات اللي كبر فيها بعدنا عن بعضنا فيها.... بأعرف انك بتكرهيني كتير... وأنك مو ممكن تسامحيني..... بس أنا تغيرت.... غيرتني الغربة فاطمة.. وذكراكِ.. على الأقل صرت اعترف بخطئي... لو تزوجتك هلأ ماكنت باتركك أبدًا فاطمة.... قبل ما ينتهى كل شي بالطلاق... كنت عم أجري في كل الطرق وأحاول واتعب وما اتطلع لورا..... بس يومها وقفت.... وقفت اتطلع بحياتي وبالماضي والحاضر والمستقبل.

صمت وتنهد، تطلع إليها فإذا بملامحها تلين قليلًا، فاندفع:

- كنتِ جميلة جدًا فاطمة.... يوم زفافنا... يوم أخدتك بين ايديني.... يوم صرتي ملكي... مرتي.... كنت زوجة رائعة.... اكتشفت أني ماحكيتلك هيك أبدًا... اكتشفت أني حبيتك وماكنت بعرف... اكتشفت أني ظلمتك كتير ومافقت إلا يوم خسرتك.... كنت باعرف أنك زوجتي... وإني يوم بأرجع بالاقيكِ بانتظاري وأن البعد والفراق بيدوب غضبك علي.... باعرف أني ما أرسلتلكن أي مصاري.... أني ماكنت في نظرك رجَال... فكرت كتير بالموضوع.... وتمنيت شوف خالد... حكيت مع والدك.... هو عطاني عنوانكن..... وكل المعلومات اللي احتجتها.... شفت خالد بالمدرسة.... وشفتك وانت بتمسكي بذراعه وترجعي وياه... وقلت في نفسي.... بعدك جميلة فاطمة.... أجمل من الأول.. جمالك نضج وصرتي امرأة رائعة..

في تلك اللحظة توقفت فاطمة عن السير، وتجهم وجهها، فتوقف قبالتها وقال لها:

- بعرف أنك مابتصدقيني... بس أقسملك بالله إني تغيرت.... إني بدي ياكي... وبدي خالد... بدي عوضكن عن كل اللي فات... بدي تزوجك فاطمة.... ونعيش سعدا.... بدي تعطيني فرصة مشان خليكي تسامحيني.... صدقيني أنا محتاجكن متل ما أنتو محتاجين إلي.... أو على الأقل خالد محتاج إلي.

- خالد مو محتاجك وانا بعدي مو محتاجاك..... ربيته كل ها السنين وصرفت عليه لحالي.

- بعرف..... وهاد كان غلطتي.

- غلطك؟.... مجرد غلط؟

- جريمتي..... سميها متل ما بدك.... سبيني متل ما بدك... باسمعك... وبأفهمك.... وبأعذرك.... أنا على استعداد أبدأ معك صفحة جديدة... بأوعدك كون زوج وأب مافي متله وما أتهرب مرة تانية من مسئولياتي... بدي ياكي تيجي معي للبيت اللي عمرته... بدي تشوفيه وتعيشي فيه.... نعيش فيه كلاتنا أنا وانت وخالد.

- بدي أسالك.... ليش ماطلقتني؟.... ليش بدك ترجعلي بعد كل ها السنين؟... ليش ما روحت لمَرَة تانية؟

خفض موسى ناظريه، فكر قليلًا ثم قال:

- شو بدي خبرك؟ حاولت.... كتير حاولت.... بس كنت عم تتطلعي فيني بعيونك اللوامة في كل مرة.... أكيد بتعتقدي إني مافكرت فيكِ كل ها السنوات.... بالعكس.... كل يوم كنت عم تخطري على بالي... ومن يوم هربتي من سوريا.... كان بدي إلتقي فيكِ... اعتبريه عقاب من الله على تقصيري.

- هلأ صار بعدك عنا عقاب من الله؟..... تمثيلك صار كتير ماسخ.

- أقسم بالله ما بأمثل.... بس انت عندك حق شو سويت لحتى تثقي فيني؟.... إذا مابدك تسامحيني على الأقل تركيني أكون جزء من حياة خالد ابني... ابننا.

جرحها القديم لم يكف يومها عن حرقها، وها هو يرمي عليه مياه مثلجة بعد كل تلك السنوات باعترافه بخطئه، واستكانته، وطلبه مسامحتها بهذا الشكل، تركته وعادت الطريق وحدها، ولدهشتها بقي يلاحقها حتى دخلت من البوابة وعاد أدراجه، لشد ما تغير، كانت نفسها تحدثها أنه يمثل، لا بد وأن يلتفت لها بوجهه الغاضب المشمئز بين اللحظة والتالية، لا بدَ وأن يصرخ فيها أو يدفعها، من غير المعقول أنه الآن بحاجة إليهم، من المستحيل أنه صار الآن يحب خالد وتأثر وتألم كل هذا الألم بمجرد رؤيته أمامه يلعب ويكبر، هل من المعقول أن يكون التغير في حد ذاته عقابًا إلهيًا؟ أن تكون عودة الظالم وانكساره تشفيًا للمظلوم؟ ولكن ندمه لن يعيد تلك السنين التي مرت، ولن يخرج من حلقها تلك المرارة التي لا تغير أيُ سعادة طعمها.

في اليوم التالي قابلت سليم، أخبرته كل شيء دون تمييز أو تزييف، أخبرته بكل حرف قاله زوجها، لم تخبره لأنه يعجبها بقدر ما كانت بحاجة لرأي أحد ما، صمت

أكثر من اللازم وكتم أنفاسه ولم يتحرك، حتى شعرت أنه تحول إلى جماد، وفجأة زفر ثم قال لها أخيرًا بعد أن استجمع شجاعته:

- هذا خبر جيد يا فاطمة..... لقد عاد إليكِ حقك... كذلك زوجك.

- إنه ليس زوجي.

- كان... وربما سيكون من جديد... أعطه فرصة.. يبدو عليه الندم الشديد... على أي حال لم يتغير وحده، أنتِ نفسك تغيرتِ... لا بد وأن تُديروا حياتكم بشكل مختلف... وبالتأكيد ستنتهي في مكان مختلف.

- ولكن... ماذا عنك؟

تطلع إليها طويلًا، جاءها خاطر غريب من نظرة عينيه لحظتها أنه يودعها، وأنها ستكون المرة الأخيرة، قال لها:

- لا يمكنني أن أكون سببًا في هدم أسرة.

- لكننا أسرة مهدمة بالفعل.

- هناك فرصة ليتحسن الوضع ويعود كل شيء كما كان.... أعترف أني أردت الزواج بك.... وأن نربي كارما وخالد سويًا كأخوين... لكني مهما فعلت.. لن أكون والد خالد... في النهاية أيضا مهما فعل مستر موسى... فهو والده.. وسيظل أبدًا والده..... ربما عليك أن تفكري بجدية.... وتعطيه فرصة.

ابتسم لها، وتمنى لها التوفيق، ثم نهض دون أن تجيبه، ورحل، عادت فاطمة وهي لا تدري حقًا ما يجب عليها أن تفعل، خافت ردود أفعال أسرتها، ولم تتمكن من البوح لأحد منهم بكل ما حصل لها، لقد تخيلت أن تلتقي موسى مئات المرات وتخيلت في كل مرة كيف كانت ستهينه وتسبه، لكن خيالها لم يشطح لدرجة أن يطلب منها السماح، وتفكر جديًا في العودة إليه، لم يكن هذا خيارًا ولا في أعماقها حتى، بدا لها ضربًا من الجنون، وحلا منطقيا في نفس الوقت، بقيت طوال الليل تصلي وتدعو ربها أن يلهمها التصرف الصحيح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغلق أنس جفنيه لا إراديًا، ثم انثنت ركبتاه تحته وانهار جسده وسقط، لم يدر ماذا أيقظه أهو ألم سقوطه أرضًا أم صوت ارتطامه؟! صرخت أمه تناديه لكنه نهض بسرعة ونفض عن ملابسه الغبار، لم يعد يتذكر كم يومًا مر وهو يسير هكذا مع أهله حتى الحدود، من طريق خلفي غير معروف لأحد مع بقية النازحين، لا توجد وسائل مواصلات يمكن أن تحملهم إلى تركيا، اضطروا جميعًا لقطع كل هذه الكيلومترات سيرًا على الأقدام، أطفالا ونساء وشيوخًا، الكل عليه أن يسير إلى ما لا نهاية، حتى صار أنس غير قادر على حمل قدميه، يغلبه النوم وهو يسير، يسند أباه العجوز بين الحين والآخر، ويحمل الماء عن أمه، تطلع إلى الطفلين في أول الصف، الطفلين اللذين يحملان علمًا أبيض، ويسيران به في مقدمة المسيرة خوفًا

من القصف أو إطلاق النار، كان عليهم أن يستعينوا بهم حتى تحن قلوب المتوحشين من حولهم إذا ما اكتشفوهم أو هاجموهم.

بقيت آشيا وحدها ملاذه من الحزن والألم، يفكر بها ليهدأ، ليطمئن. لديه الكثير ليخبرها به، لم يتمكن من الرد على اتصالاتها في يوم رحيله، لأنه كان يعلم أنه قد يتراجع إن استمع لصوتها، خاف ضعفه، وحدها نقطته الأضعف، وحدها في حياته الأجمل، ظل يهدئ نفسه بأنه سيرتاح ذات ليلة على فخذيها، وهو يحكي لها كم المعاناة التي مر بها حتى يصل إلى سوريا، كيف لم يصدق نفسه وهو يعانق أمه وأباه عندما وجدهم بخير، وكيف تركوا المنزل كما هو بكل حاجياتهم، وهرب بهم في الليل، سيحكي لها ويمسح دمعه بأصابعها الناعمة الحنون، كيف بكى في أحضان أمه، وكيف جاع وعطش في الطريق، سيحكي لها عن معنى الخوف الحقيقي، لأن كل ما عاشه في حياته لا يساوي شيئًا أما السير في الظلام في طريق مجهول مخيف يتطلع بحذر إلى كل ركن قد تأتيه منه رصاصة، سيبكي حتى يُخرج كل ما في أعماقه من ألم وحزن وخوف بين أحضانها وينسى، وحدها كانت جنته وكل أمله، ها هو يسير لأيام، حتى يخرج من الجحيم بأهله.

يتمنى لو يقدر على خلع ملابسه المبتلة بفعل المطر، ولكنه لا يستطيع، حين يشعر بالإحباط والألم وعدم القدرة على الاستمرار، يتطلع إلى تلك المرأة التي تحمل رضيعيها التوأم وطفلها البالغ من العمر أربع سنوات، تسافر وحدها بعد أن اعتقلوا زوجها وتركوها وأطفالها جياعا، مع ذلك لم تتعب ولم تتوقف عن السير، بقيت قوية صامدة، كلما نظر إليها خجل من تعبه وشحذ قوته للمزيد، كلما تمسك بذراعه أهله ودعوا له، شعر بالعجز والخزي، تلك الأيام السوداء التي مرت جعلته يغير قناعته كليًا، رغم كل هذا العدد الذي هرب معه، فهناك أكثر منهم فضلوا البقاء والدفاع عن كل ما يخصهم، أناس الموت أخافهم فهربوا، وآخرون خسارتهم لأحبائهم صغرت الموت في عيونهم، باتوا ينتظرونه وكأنه صديق، منقذ، بقوا ليثأروا، بقوا ليظلوا شوكة في حلق الظالم ورجاله جميعًا، كل شيء اتضح له، مثل تلك السماء الصافية التي ترتفع فوق رأسه، دعا ربه في سره أن يلهمه الصبر، ويلهم أهله بعد فراقه.

صار هاتف آشيا جزءًا لا يتجزأ من جسدها، أينما تذهب يظل معها، تنتظر أي شخص يتصل بها ليُطمئنها، تحاول أن تمنع نفسها من مراقبة المظاهرات في البلاد، ومعرفة إلى أي حد وصلوا، تحاول أن تتجاهل عدد القتلى والجرحى، تحاول أن تتجاهل تحديدًا القصف الذي يصيب النازحين في طريقهم، تحاول أن تقول لنفسها إنها مجرد أيام ويتصل بها أنس من تركيا ليخبرها أنهم بخير، وجاءها فعلًا الاتصال المنتظر، رأت رقم مفتاح تركيا فطار قلبها فرحًا، كان الوقت فجرًا عندها، حين سمعت صوت هاشم، هل كان يبكي؟ بالفعل إنه يبكي، بل إنه يصرخ، قال لها تفاصيل كثيرة لم تفهمها، لم تفهم الكلمات وهي تتكسر قبل أن تخرج من فمه، أخبرها أن أبويه عبرا الحدود دون أنس، أنهم بكوا ورجوه، ولكنه صمم أن يرجع ليساعد الناس مع مجموعة من الشباب، قال لها باكيًا:

- هلأ مابعرف وينه.... ماشفته.... آخر مرة شوفته كان عندك بالبيت آشيا.... يالله ما خلاني حتى شوفه.... كيف يسوي هيك؟

هرعت ميرديث وفاطمة ومازن إلى غرفة آشيا بعد أن سمعوا صرختها المدوية كالقصف، دخلوا عليها فوجدوها تحطم كل شيء حولها، كيف يبقى كل شيء سليمًا مهما حصلت من مصائب، بينما قلوبنا تتمزق أشلاءً؟! كيف تبقى الوجوه كما هي لا يشوهها الألم؟ كانت تصرخ وتسب أنس، تسبه حبًا وشوقًا واحتياجًا، خائن غشاش مخادع ظالم أناني تافه أرعن، لف مازن ذراعيه حولها ليهدئها، فظلت تقاوم وتدفعه هو الآخر، لكنها استسلمت أخيرًا وهي تقول:

- أنا بحب أنس.... بحبه ياناس... رجعولي أنس.... الله يخليكن رجعولي حبيبي.

لم أفهم معنى ذلك الموت

لا أفهم معنى للموت..

لكن ما دام محتمًا فلنفعل شيئًا يبرر حياتنا.

فلنترك بصمة على هذه الأرض

قبل أن نغادرها

بهاء طاهر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

هناك بعض الأيام تمر بحياتنا، نجزم فيها أننا لم نكن أحياء ولا موتى، بين بين، هذا ما أحسه أنس حين قبضوا عليه، كان يتوضأ لصلاة العصر، وسمع طلقًا ناريًا في الجامع، تطلع إلى يمينه نحو الباب، فوجد الجثث في كل مكان، والدم يفر في كل الجوانب، وعلى الحوائط، بعد أن يخترق الجسد الرصاصة، تطلع إلى نفسه، فوجد الدماء قد طارت وغطته، وجد نفسه يصرخ ويصرخ، وهم يسحبونه ويضربونه برأس البنادق على كتفيه وصدره ورأسه، لم يُسكِت صراخه سوى الضرب المبرح الذي أفضى إلى إغمائه، منذ تلك اللحظة وكلما أفاق شعر أنه في حلم، وأن جسده يتحرك وحده، لم تعد روحه في الجوار، حتى الروائح الكريهة حوله شعر أنها من عالم آخر، كان عالمه يلف وهو لا يدرك أهو في الصحو أم في النوم، يرى زملاءه يُضرَبون ويُعلَقون من أرجلهم، يرى شيخًا في زنزانته يبصق دمًا، ومع هذا يستمرون في دعس رقبته، رأى الأحذية تقترب منه وتشوه صدغيه وتهشم فكه دون أن يقدر على النطق أو المقاومة، كان يشعر بالألم ولكنه يشعر كأنه يصيب شخصًا آخر ليس هو، رأى ضباط الشرطة يعتبرون زنزانته حمامهم، فيبولون فيها دون أن يكترثوا أين يسقط بولهم، أدرك سبب هذه الرائحة العفنة.

مرت الساعات وصنعت أيامًا دون أن يفطن حقيقة لما يحدث له، لا يفارق فمه طعم الدم، كان يشعر بزملائه وهم يغطونه أو يدسون في فمه بعض الطعام، كان يتقيأ معظمه لكن الجوع عذبه طويلًا، حاول أن يتذكر الجُرم الذي ارتكبه ليلقى مثل هذا العذاب، فقط قرر الرجوع لإغاثة كل من يتعرض للقصف، فقط قرر أن يحمل الجثث التي تصاب وتملأ الشوارع، تذكر فجأة أن الأغلبية حذروه من إنقاذ أحد وإيصاله للمشفى، لأن من يفعل هذا يُعتقل ويُقتل مثله مثل أي مجرم، يومها قال مشمئزًا إنه لن يتمكن من ترك أحد ينزف حتى الموت في الشارع حتى لو كان هذا آخر عمل يقوم به، بالفعل كانت مجموعته مهمتها فقط ملاحقة صوت الرصاص وانتشال الجثث ومحاولة إنقاذها، أو إرسالها لأقرب عيادة، وحين ذهبوا للصلاة تم القبض عليهم، قتلوا من المصلين الكثير، وقبضوا على شباب مجموعته بمن فيهم هو أحياء، كأنهم أرادوا ألا يشهد أحد عليهم حتى يستمتعوا بتعذيبهم كيفما أرادوا.

لم يكن ليسأل عنهم أحد، فجميعهم إما فقدوا ذويهم موتًا أو نزوحًا لدولة أخرى، نصف عقله كان غائبًا عن الوعي، والنصف الآخر يبقي عينيه مفتوحتين لتسجل كل ما تراه، شعر برغبة شديدة في الصراخ والنهوض والتقيؤ وهو يشاهد زملاءه يُعذبون، لكن كان كل ما استطاع فعله أن أغلق جفنيه بعد أن حاول مرارًا أن يحرك رقبته تجاه الحائط الآخر، ولم يفلح، تذكر أهله فارتاح لأنهم الآن بعيدون كل البعد عن الجحيم التي ذابت عظامه بحممها، تذكر آشيا فظل يعتذر لها بينه وبين نفسه، مستلقيًا، مغلقًا عينيه، يشعر أن جسده كله مهشم ويتشاغل عن صوت صراخ الرجال من حوله وعويلهم بتذكر صوتها، همستها وهي تقوله له إنها تعشقه، يحاول أن يتجاهل كل ما حوله، ويحصر عالمه في ذكراها، حتى لا ينهار، يجد تنفيسًا وحيدًا لما يعج بداخله حين تهبط دموعه، حتى ارتفاع صدره وهبوطه بالبكاء يؤلمه كثيرًا، ولكن كتم البكاء يؤلمه أكثر، كل ما شاهده على يوتيوب لم يكن شيئًا أمام ما

يشاهده بأم عينيه من تعذيب لشباب لم تكن جريمتهم سوى عدم قدرتهم على تحمل ترك جثث المارة النازفة هكذا في الشوارع، ومحاولة نقلهم لمن يقدر على مساعدتهم، لم يقفوا في صف أحد، ولا حاربوا أحدًا سوى الموت، وها هم الآن يُشنقون ويحاكمون على إنسانيتهم.

أشهرٌ مرت وهو محبوس في ذلك المكان، يخرجونه فقط ليلقوا بجسده عاريًا لتُجمد الرياح الباردة أطرافه وجسده، كان يسمع واحدا ممن حوله يستجديهم أن يعذبوا أحدًا سواه، قادرًا على الوقوف أو النهوض أو الحركة، لأن مظهره ووجهه وعدم قدرته على الحراك مطلقًا أثار شفقتهم جميعًا، وهون عليهم عذابهم، لم يستمعوا لهم، وفي كل ليلة يتلذذون بمظهر جسده غير القادر على الارتعاش، لشدة عجزه عن تحريك نفسه، لم يصبه شلل أو كسور وإنما كان عجزه عن الحركة نفسي، لهول ما مر به، وكأن جسده قد أعلن العصيان على الشعور لهول الموقف، وهذا ما أكده طبيب السجن بعد أن فحصه أكثر من مرة، مما جعلهم يكيلون له العذاب والضرب، ويستمتعون بعدم قدرته على الحركة أو الصراخ أو أي شيء، كل ما كان يفكر به هو أنه غير قادر على الوضوء، أو حتى التيمم ليصلي، لكنه كان يستغفر ربه ويصلي بعينيه، كلما تعاقب عليه الضوء والظلمة، كلما تمنى الموت.

جاءه ذاك العجوز الوحيد بينهم، جلس جواره، ووضع رأس أنس على فخذه، ظل يرتل القرآن بصوت خفيض وهو يمسح على وجهه، كان يشعر بطمأنينة كبيرة وهو يفعل هذا، تمنى لو أنه يظل هكذا للأبد، قال له العجوز كلامًا لينًا ليخفف عنه، ذاكرًا أنه يشبه ابنه الذي قتلوه منذ أسابيع، كان يهمس بالآيات في أذنه ويقول له:

- مشان الله لازم تنهض.... ماتستسلم.... ماتتركهم يفرحوا بموتك.... لساتك شاب ولسه العمر بيعطيك قد مابياخد منك.... الفرج جاي عن قريب.... لا تستسلم.... قوم يازلمة.... استعذ بالله وقوم.

كان يحثه ويدعو له ويطمئنه، فلم يكن يستطيع أن يجيبه سوى ببعض الدموع، إذا كان هذا حاله هنا، فما حال الناس بالخارج وهم يواجهون الدبابات والرصاص؟ ما حال أهله طوال تلك المدة التي لا يعرفون فيها عنه شيئًا؟ وآشيا؟ كيف هو قلبها؟ هل تبكي؟ لا! يجب أن ينهض حتى من أجلها، يجب أن يعود إليها، في البداية حرك ذراعه اليمنى، ليمسك بيد العجوز، فهلل الجميع من حوله، ساعدوه على النهوض واتخاذ وضعية الجلوس، كل خطوة له ناحية التحسن كان يقابلها عذاب جسماني مضاعف من الشرطة، لكنه لم يأبه لهذا، كان زملاؤه يشجعونه بالدعاء والآيات القرآنية، عرف أسماءهم، وخصوصًا ذلك العجوز الذي صادف أن يكون مؤذن الجامع يوم توضئوا من أجل صلاة العصر فيه، كانوا يُمعنون في ضربه أمامهم لأنهم يعلمون مقدار الجرح الذي يصيب رجولتهم وهم غير قادرين على حمايته، كان أنس يدفع بجسده ليتلقى الضرب عنه فيُعاقب بتعليقه من قدميه لساعات طويلة حتى يفقد وعيه، عرف العجوز بهذا، فتوسل إليه مرارًا ألا يهب لمساعدته، كان يدعوهم أن يتماسكوا ويصبروا ويدعو الله حتى ينصر سوريا، صار مصدر أمان كبير لهم، مما جعل الضباط يقتلوه، قتلوه وقطعوا ذراعه ورموها لهم في الزنزانة قائلين:

- كنتو ناطرين خبر عن الختيار الملعون... هلأ جاكم الخبر.

في تلك اللحظة بالذات شعر أنس بآلام غير عادية في جسده، وظل يصرخ ويبكي وكأن موت هذا العجوز قد جعل السد الذي يحميه من آلامه ينهار، فتجتاحه أمواج الألم في كل خلية في جسده، كم بكوا هذا العجوز وكم شعر أنس بالغضب يأكله حيًا من الداخل، ولم تكن هذه نهاية المصائب، فقد فرقوهم، كل شاب منهم في زنزانة منفردة، ومنهم من نُقل إلى سجن آخر، نُقل أنس هو الآخر لسجن منسي تحت الأرض، لا يعلم أحد بوجوده، كان ما رآه في هذا السجن جعله يدرك أن ما سبق أفضل عشرات المرات مما هو على وشك أن يمر به، وما إن دخل سجنه الانفرادي حتى غطوا وجهه بقماش أسود وقالوا له:

- راح نعميك بالبطيء... مارح تشوف النور من جديد يا كلب.

فتحة ضئيلة عند رقبته كانت ترسل له بعض ذرات الهواء، كان يتمنى لو صموا أذانه أيضًا عن سماع أصوات الصراخ من حوله، بعد أسبوعين بدأوا التحقيق معه، سألوه الكثير من الأسئلة، اندهش لكونهم اتهموه بانضمامه لجماعة مسلحة منشقة عن الجيش، كان خبرًا سعيدًا بالنسبة له أن بعض جنود الجيش السوري لا يزالون يحملون شيئًا من الإنسانية بداخلهم ورفضوا تنفيذ الأوامر بقتل كل من تقع أعينهم عليه، لشدة تعذبيهم له، وذلك الكيس الأسود يغطي وجهه، اتهمهم أنهم أخطأوا، وأنهم يعنون شخصًا آخر.

في هذا اليوم تركوه كما هو، ولم يعيدوه لزنزانته، سمعهم يهمهمون فيما بينهم أنهم ينتظرون ضابط المساء، لأن لديه وسائل أعمق في استخلاص الاعتراف من المجرمين، بدأ جسده كله يرتعد وهو يستمع لصوت ارتطام حذاء الضابط بالأرض، مقتربة منه شيئًا فشيئًا، شعر به يجلس أمامه، مر في ذهن أنس كل ألوان العذاب التي سمع عنها في سجون جوانتانامو وغيرها مما لم يسمع به بعد، وهو يشعر بأنفاس هذا الضابط على وجهه، قريب جدا منه وصامت ولم يفعل به شيئًا بعد، قال له الضابط بهدوء:

- حكيت أننا غلطانين.... وأنك مو المجرم ياللي عم نقصده.... ومابدك تعترف بأسماء بقية المجموعة وأماكنهم.... شو اسمك ياوسخ؟

لم يجبه على الفور، فرفع الضابط رجله وركله في جنبه فصرخ أنس وقال لها لاهثًا:

- أنس... أنس السامي.

فجأة رفع الضابط الغطاء عن وجهه، أغلق عينيه بألم، فهي المرة الأولى منذ أسابيع التي يرى فيها النور، لم يتبين ملامح الضابط بوضوح في البداية، كلما اتضحت له الرؤية، ظهرت له ملامح الضابط الشاب الذي بدا وكأن وجهه غرق في دوامة من الصدمة، ظل الرجلان يحدقان في بعضهما لدقائق دون كلمات، تطلع أنس إلى من حوله وهو لا يدرك سر صدمة الضابط لرؤيته، وجد الضباط يحملون عصيًا وأسلاكا كهربية على وشك تعذبيه بها، تطلع إلى الضابط أمامه، وإلى يديه،

فوجدهما خاليتين، فجأة وضع الضابط فوهة مسدسه في فم أنس في حركة خاطفة، وقال له:

- ها المسدس فيه تمان طلقات.... بيكفوا لحتى يهشموا الجزمة ياللي في جمجمتك.... شو نوع الأسلحة اللي فرقوها عليكن؟ شو اسم قائدكن؟

قال بصوت مبحوح إنه لم ينضم لأي مجموعة، ولم يفعل شيئا، فأكمل والمسدس لا يزال في فمه يمنعه من النطق الصحيح:

- وين كنت قبل أحداث سوريا؟.. انطق!

- كنت بقطر...

- وليش رجعت؟...

- مشان أهلي...

- كويس انك ودعتهم.... ها الليلة آخر يوم بعمرك... بس ماراح تموت برصاصة... مارح تموت بسهولة.... راح خليك تترجاني موتك!

ثم بصق في وجهه، فجأة شعر أنس بألم حاد في بطنه، وظل يصرخ ولم يجد الوقت ليعرف ما يؤلمه فقدْ فقدَ وعيه.

بعد ساعات فتح عدنان بريده الإلكتروني من موقعه بالسجن، كان يريد أن يتأكد، راجع تواريخ رسائل آشيا، وجد الحديث الذي كان يبحث عنه، وجد صورة حبيبها أنس التي أرسلتها له، تطلع إلى ابتسامته التي استفزته مرارًا في ذاكرته منذ ذلك اليوم، تشوه وجهه قليلًا بالكدمات والخدوش، لكنه هو، أثار ضحكه ضجة أدهشت عساكر الممر وتطلعوا إلى وجوه بعضهم بعضا باستنكار، كانوا يدركون أن الضابط عدنان مجنون، لكن هل وصل جنونه إلى الحد الذي يجعله يقهقه بهذا الشكل، بينما سكان الزنازين حوله يئنون ويصرخون؟ لكنهم لم يعلموا المصادفة العجيبة التي جمعته بغريمه، الرجل الذي اختطف قلب حبيبته، الذي فعل في أشهر ما لم يقدر على فعله في سنوات، كل منهما كان في دولة وها هما الآن تفصل بينهما بضعة أمتار، هل هذا كان سبب تلذذه بضربه؟ أم بكاء آشيا الذي ظل يرن في أذنيه هو ما جعله يحس بالذنب؟ ظل يسير حول مكتبه، وهو يتذكر تفاصيل لقائه الغريب بحبيبها، هل يتصل بها ويخبرها أنه الآن تحت رحمته؟ أم يقتله ببساطة ولن تقدر على معرفة أنه من قتله، شعر بالصداع يغزو جانبي رأسه، أمسك بهما ضاغطًا، لعل الألم يهدأ وهو يفكر، لو لم تبعث له بصورته منذ شهور لما تعرف عليه، لولا غضبه وحنقه الشديد لأنه سرق منه محبوبته لما تذكر ملامحه، لماذا حدث كل هذا؟ فكر قليلًا ثم التفت بجسده ليخرج ويعود لزنزانة أنس، وقف مترددًا عند الباب ثم عاد يجلس بهدوء على مكتبه متراجعًا عن نيته، ستكون زيارته أفضل في أواخر الليل.

لم يفهم أنس ما حصل له تحديدًا، بعد ساعات من إفاقته وجد نفس الضابط يزوره من جديد، عرفه من رائحته التي تمزج السجائر بالخمر بنوع رديء من المخدرات،

ما أدهشه أنه شعر أنه كان وحيدًا، أمسك به من قميصه وجره على الأرض، حاول أنس أن يقف لكن سرعة جر عدنان كانت كبيرة، حتى عندما نجح في الوقوف، تعثر من جديد، شعر بالهواء يلفحه فأدرك أنه أخذه إلى الخارج، فوجئ حين دفعه داخل سيارة، شعر بها تتحرك بسقوطه بداخلها ثم اندفعت السيارة في سرعة كبيرة بعيدًا، كان القماش الأسود لا يزال يغطي وجهه وهو يصرخ إلى أين تأخذونني؟

دون أن يجيبه أحد، بعد أن كرر العبارة مرات، تلقى من عدنان سبابًا بأن يخرس وحرك يده تاركًا المقود ووضعها على رأس أنس ودفع به إلى الأسفل حتى لا يظهر من زجاج السيارة، فجأة توقفت السيارة بشكل حاد، ثم هبط عدنان منها وشد أنس وجره على الأرض، ثم بجنون بدأ يركله ويضربه ويصفه بأبشع وأقذر السباب حتى لم يعد أنس يملك صوتًا ليصرخ، شعر عدنان بالتعب وبدأ يلهث ثم شد رأس أنس نحوه، أخرج المسدس وظل يحدث نفسه بجنون:

- اقتله... اقتله.. لا تكن جبانًا.

تهدج صوته حين اجتاحه عطر آشيا، ورمى أنس كالملدوغ، وظل يلف ويدور حول نفسه، أمسك برأسه يكاد يمزقها، التفت مجددًا إلى أنس وقال له لاهثًا دون أن يملك دليلًا على أنه ما زال يحتفظ بوعيه ويسمعه:

- سلملي على آشيا.

ثم دفعه أرضًا وركب سيارته ورحل، بقي أنس على هذه الحال لساعات، حتى شعر بحرارة أشعة الشمس على جسده، لم يتحرك قط من مكانه، لكنه شعر باقتراب بعض الناس منه، أزاحوا عنه القماش، فصرخ من ضوء الشمس في عينيه، حملوه وأخذوه داخل أحد البيوت، فكوا وثاقه وجلبوا له ثياب أحد السكان، قدموا له الطعام والشراب، وحاولوا التهوين عليه ومداواة جروحه، ظل يردد طوال الوقت كلمات الشكر بامتنان غير مصدق أنه لم يُقتل، حاول مرارًا أن يفهم الجُمَل التي قالها هذا الضابط، لكنه فشل، سألوه عن أشياء كثيرة، عن كيفية وصوله إلى هنا، وعما جرى له، لكنه لم يجبهم، سألهم فقط عن اتجاه القبلة ليشكر ربه.

تطلعت آشيا لصور إبراهيم قاشوش الذي كان يصيغ شعارات الثورة في غناء تلتف حوله الصفوف، كان غناؤه الخيط الذي يتمسك به الجميع ليربط على قلوبهم ويدب في خلاياهم الحماسة، دمعت عيناها وهي تشاهده عبر الفيديو، ها هو الآن جثة أمامها، ذبحوه منتزعين حنجرته تنكيلًا بصوته الذي هاجمهم به، وبعد أسبوع واحد من هذه الفاجعة اقتحم الجنود قريتها القديمة، دير مقرن ومنطقة الزبداني كافة، تخيلت أن الدبابات والمدرعات سارت في طرقاتها الضيقة غير الممهدة، حاولت أن تتذكر اسم مدينة لم يحلق بها الخراب، فلم تجد، المزيد من المدن المهدمة والقتلى والجرحى، المزيد من صور جثث الأطفال، أي انتصار يمكن أن يحققه إنسان بقتل الأطفال؟ إن كان يجد بعض الدعم من دولٍ ما فها هم الآن خجلون من قرارهم، موقفهم ضعيف لأنهم يدعمون قاتلًا للأطفال.

المزيد من الشعارات والحوارات وقذف المتظاهرين بأنهم عصابات منظمة من الشبيحة أو وصفهم بأنهم جماعات إسلامية سلفية، مما أسفر عن فتنة طائفية كبرى كان الإعلام بطلها والمستفيد الوحيد منها بشار، وضحاياها أناس لا يريدون سوى العيش، ووعود بشار التي لا تُنفذ، أشهر ثلاثة عجاف تفصلها عن آخر مرة تحدثت فيها إلى أنس، لا تعلم عنه أي شيء منذ ذلك الحين، تحدث هاشم يوميًا لعله يحمل لها في أحد الأيام خبرًا عنه، دون جدوى، حالته كانت مؤلمة هو الآخر وكذلك والداه، لم تر هاشم القوي الواثق بنفسه بهذا الحزن وهذه الحسرة، تقف دموعه دائمًا على حافة جفونه، بمجرد أن يُذكر اسم أخيه أمامه، ينخرط في بكاء دام، حتى والديه تمنوا لو أنهم لم يهربوا قط، لو أنهم بقوا هناك في دائرة الخطر حتَّى ينقذهم الله بأمره أو تُكتب لهم الشهادة، لكن أن يكون هذا سببًا في عودة أنس إلى سوريا، وفقدانه كما هو الحال الآن، فقد صارت حياتهم مشئومة.

تحدثت آشيا إلى أمه، كان هاشم قد أخبرهم عنها، كلمتها الأم بصوت مبحوح ولم تقدر على قول شيء، ولا آشيا، تشاركتا البكاء فقط، والدعاء له، كان موقفًا لا يمكن أن تنساه، كم خطط أنس للقاء بينها وبين أمه ليجمع أقرب امرأتين لقلبه في رابطة لا تُقطع، وها هي الآن تحدثها دونه، كلتاهما تبكيان عليه، طوال تلك الأشهر حاولت ميريديث كثيرًا التخفيف عن ابنتها، فكانت تحتضنها في الليل الوقت الذي كانت تمضيه فيما مضى في الحديث معه، من أقسى الأوقات على قلبها لا تستطيع فيه الراحة أو النوم أو حتى التنفس، بمجرد أن تدق الساعة في موعدهم اليومي حتى يرتجف جسدها، وتظل تتطلع إلى اسمه والأيقونة بجانبه منطفئة، تتمنى لو ينير اسمه على بريدها الإلكتروني ظلمة حزنها وقلقها عليه، كان جسدها في تلك اللحظة يستسلم لبرد نفسي، فيرتجف، تشعر ميريديث بها وهي ترتجف في أحضانها، وتظل تمسح على شعرها وتؤكد لها أنه سيعود، لم ينطق الجميع بالفكرة التي زرعها اليأس في أعماقهم وهي أنه قد استُشْهد، حتى خالد الصغير كان يقول دائمًا لأمه ببراءته:

- مستر أنس لو مات بتموت خالتو آشيا معه مو هيك؟

كان غريبًا بالنسبة للكبار أن يدركوا أن هذا الفكر تستوعبه عقول الصغار في مثل سن خالد، لكن فاطمة نفسها لم تستغرب، لأنها منذ عاد موسى للظهور في حياتها وقد أدركت أنها تقلل من شأن خالد، يومًا بعد يوم كانت تشعر أنها أنجبته رجلًا يحافظ عليها، ويقول لها جملة بين الحين والآخر تجعلها تندهش لعمق معرفته بمشاعرها، حتى حين بدأت تتقبل فكرة أن يتعرف على والده قال لها فجأة:

- ماما انت منيحة؟

- إيه يا حبيبي.... ليش عم تسأل؟

- كنت بأشوفك عم تبكي كتير بالمسا يوم يجي بابا يحكي معك.... بس هلأ مابتعصبي لما تشوفينا نحكي سوى.

- حبيبي انت ياخالد.... إذا بتضل سعيد بأضل سعيدة... سعادتك أهم شي عندي بالكون.

- يعني بترجعي لبابا؟

انقبض قلبها، ولكنها منعت هذا الانقباض من الوصول لتعابير وجهها وقالت بهدوء:

- مابعرف حبيبي.... بس هلأ انتو صرتوا رفقات وهاد هو المهم.

- انت ماعدتِ تلتقي في مستر سليم... لهيك فكرت إنك بترجعي لبابا.

بقيت تتطلع إليه بفخر، إنه يفهمها ويحس بها، ويدرك بواطن الأمور رغم عمره هذا، ولكن هل حقًا في يوم من الأيام يمكن أن تعود لموسى؟ إنها على استعداد أن تضحي بكل شيء من أجل سعادة ابنها، لكن يا ترى كيف تمضي الروتين اليومي مع قاتلك بعد أن تجاوزتَ طعنته وعدتَ للحياة؟ في تلك الأشهر الثلاثة استطاع أن يخرج من القالب القذر الذي وضعته فيه بأعماقها، في البداية كانت تشمئز من ابتسامته المهذبة، وذوقياته التي اكتسبها في السنوات التي رماها فيها خلفه، لكنها اعتادتها ولم تعد تشعر أنها تمثيل، في البداية لم تقبل الهدايا التي كان يشتريها لها، لكنها شيئًا فشيئًا بدأت تحس بمسحة ذنب تمر على قلبها إن خيبت أمله ولم تأخذ هديته، موقف مازن كان متوقعًا، فقد كان ضد رجوع هذا الشخص لحياتهم جميعًا من جديد، أما آشيا فلم تبال بشيء، لم تكن تحس بشيء حولها مطلقًا، ميريديث هي الوحيدة التي جلست ساعات تتناقش معها في هذا الموضوع، موقفها كان حياديًا، كانت تذكرها دائمًا أنها هي وحدها صاحبة القرار لأنها وحدها من سيتألم منه، حذرتها من أن تعطي أملًا كاذبًا لابنها ومن ثم تتراجع عنه لأن هذا خطأ على نفسيته، استمعت فاطمة لنصائح أمها، وهي تتذكر السنوات التي أمضتها في سوريا، هنا يهتمون كثيرًا بنفسية الأطفال حتى يرزق من كانوا أطفالًا بأطفال، فيهتموا بنفسيتهم، وهكذا تسير الحياة بشكل طبيعي، شعرت بالحسرة لكل ما تحطم في أعماقها وصار ندبة منذ الطفولة قد تلتئم، لكنها ستبقى تشوه قلبها مدى الحياة وكان السبب فقط والدها.

لم تكره ساندرا أختها غير الشقيقة، ولم تحملها المسئولية، خصوصًا حين كانت تقابلها بين الحين والآخر في منزلهم، بل كانت تشفق عليها، فكرت مع نفسها أنه رغم أن ساندرا تعيش في أكثر الدول تحضرًا واهتمامًا براحة ونفسية الأطفال فقد ا ترعرعت مثلهم ممزقة مهشمة من الداخل، تتطلع لهم بحسد دائم، فأدركت أن الدولة ليس لها علاقة بالتربية أو النفسية وإنما الزوجان السعيدان القادران على بث الدفء بين جدران منزلهم، وحدهم الأبوان وليست الظروف هي التي تشكل نفسية صغيرهم، وهذا فقط ما جعلها تتقبل موسى، بل جعلها تبتسم في وجهه وتبادله المزاح أحيانًا، وجعلها تفكر جيدًا في الرجوع إليه يومًا ما، حين تشعر أنها تملك من القوة ما تسامحه به، على الجهة الأخرى في العالم لا تهم الشجارات بين الزوجين حين يأتي القصف، حين يفرقهم الموت والعذاب والألم، لكنهم هنا بأمان، أحياء يعيشون في هدوء، مراقبتها للموت يغلف كل مكان عاشت فيه في سوريا، جعلتها تقدر ثمن نجاتهم جميعًا وحكمة ربها، من يدري لو أنه أحبها وبقي معها وما تركها، لكانوا الآن جثثا تحت الركام، حمدت ربها كثيرًا لهذا الخاطر وهي تقبل رأس ابنها قبل أن يغفو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقولون إننا في عصر هجرته المعجزات، أدركت آشيا أن هذه الجملة غير صحيحة حين رأت اسم أنس منيرًا على بريدها الإلكتروني أمامها، يشير إلى وجوده، في البداية شعرت أنها تهلوس لكنها سمعت بأذنيها صوت اتصاله، حين قبلت اتصاله وظهرت صورته أمامها تجمدت ولم تدر ماذا تقول أو تفعل، فقط زلازل وبراكين تفجرت، لا تذكر عدد المرات التي قال لها فيها إنه يحبها، لا تذكر كيف وصف شوقه لها، تتذكر فقط خطى الدموع على وجهه، تتذكر ضعفه وهو ينادي اسمها، وتتذكر كيف مدت أصابعها تلامس وجهه في الشاشة، وضعت إصبعها فوق ندبة خده الأيسر، تغير شكله وصار أنحف ووجهه مليء بآثار الكدمات واللكمات التي مر عليها زمن، قدرته على الاتصال بها عبر الإنترنت بينما كل الاتصالات مقطوعة في سوريا جعلتها تدرك أنه في دمشق، لا تذكر ماذا قالت له، تذكر فقط أنها ظلت تصرخ حمدًا لله عشرات المرات وتبكي، لم تصدق أنه لا يزال حيًا.

وجدت هاشم يتصل بها في نفس اللحظة التي كلمها فيها أنس فلم تجبه، أخبرها أنس أنه قام بطمأنة أهله على صحته، شعرت أن ذراعه اليسرى لا تتحرك كما يجب، خاف أن تسأله عما ألمَ به في هذه الأشهر، واكتفى بقوله إنه كان يتماثل للشفاء من حادثة أصابته مما أخر اتصاله بهم، قالت له آشيا:

- مابتعرف كيف مرت علي ها الأشهر.... ماتعرف كيف بيكون الشك ياللي عم يترنح بين الموت والحياة... ماحاولت حتى فكر كيف بتكون حياتي لو أنك متت أنس..... أنا كنت ميتة... ميتة بس من مجرد تخيل فكرة فقدانك... شو كنت بسوي لو عرفت بموتك؟.. أنس.... ليش سويت هيك؟.... ليش؟.... انت وعدتني بترجعلي.... لها الدرجة أنس حزني ما بيعنيلك؟.... وأمك ياللي كانت بتموت كل ثانية انت فيها بعيد.... شو ذنبها؟... رحت تنقذها ولا تقتلها فيك؟..... الله يخليك بيكفي..... أترك سوريا وارجع الله يخليك....

كانت تكلمه بصوت مبحوح ضعيف متضرع، مسح دموعه هو الآخر، وحاول أخذ نفس عميق ثم قال:

- بعرف إني سببتلكم ألم وحزن كتير..... بأعرف أني عذبتكن.... بأعرف إنك كل ليلة كنت عم تبكي.... بأعرف آشيا.... والله بأعرف.... أنا كنت متلك آشيا وأكتر.... بكل دقيقة كم مرة بأهمس بيني وبين حالي اشتقتلك آشيا... كم مرة بكيت وتمنيت لو كنت بحضنك.... كم مرة خفت اتصل على هاشم ليحكيلي أنه ماعرف يوصل لأبوي وأمي.... بكل ها الظروف اللي مريت فيها... ماغبتوا عن بالي ثانية واحدة.... آشيا... يشهد الله أني ما حبيت صبية متل ماحبيتك.... مابدي تعويض بالكون إلا انتِ.... مابدي من الجنة في الأخرى نعيم غيرك انتِ.... تكوني معي بحضني....

كانت تشهق وهي تبكي، وتغطي فمها الملتوي بألم وهي تستمع لكلام حبه، وتراقب ملامحه شديدة التأثر، صمت قليلًا ثم تحركت عيناه نحو اليسار وهو يتذكر شيئًا ما، فقست ملامحه كثيرًا ثم أكمل:

- انت ماشوفت شو حال البلد هون.... ماشوفت حال الناس... أو اللي كانوا ناس.... هلأ كلنا تشوهنا.... كلنا متنا.... عم تحكي عن فقدان.... تعي لهون دقايق لتشوفي شو هو الفقدان.... الناس بتظن أنك لماتفقد إنسان بيكون شي صعب كتير وغير محتمل.... هلأ شو بدي قول لناس فقدوا كل من حولهم؟!... كلاتهم.... وفقدوا بيوتهم... وفقدوا أشياءهم وأثاثهم.... بل وفقدوا شوارعهم وحاراتهم... فقدوا أمانهم وفرحتهم... والأهم من كل شي فقدوا حالهم.... هون الحزن أكبر من البكا... صمت الموت هون أعلى من الصراخ.... انسي كل اللي تسرب على النت عن الجثث والموتى والشهدا والدبابات والجنود.... اللي شوفته أنا مابينحكى ولا بيتصور ولا في لغة أو كاميرا بالوجود في مقدورها توصفه.... شو بدي قلك؟.... عن أي أسرة بدي أحكيلك؟... بأي مصيبة بدي أفهمك الوضع هون؟.... عم تتخيلي أن الموت فاجعة؟... بالعكس الموت رحمة.... لأنه اكتشفت آشيا أنه في أشياء أسوأ بكتير من الموت.

ثم صمت يبتلع ريقه، وبعض الكلمات المؤلمة حتى لا يجرحها أكثر من هذا، كان قلبها يحس إلى أي فاجعة سينتهي كلامه هذا، فهي تعرف مقدماته، لكنها لم تُرد أن تصدق حتى يقولها، ينطقها وتسمعها بأذنيها، لم يمهلها طويلًا حتى قال:

- مارح أرجع آشيا.... مستحيل أخرج من هون.... مارح أترك الكلاب يستمروا باللي عم بيسووه.... هلأ صار في جبهة معاكسة.... هلأ في أفراد انشقوا عن الجيش بأسلحتهم وفيهم يردوا عاللي بيصير.... نصر الله قريب أنا حاسس آشيا.... على قد ما فقدنا... على قد ما كسبنا إيمان بالله باللي خرجنا من كل ها المصاعب أحياء.... إذا بقيت حي سوريا فيها تضل حية.... فيها تنهض... أنا فكرت أن بلدي خلاص راحت... بس لسة ابناءها عم يقاموا لهيك بتضلها موجودة جميلة طول ما أحنا صامدين.... بالأول رجعت مشان أنقذ أهلي... كنت كتير أناني.... لكن هلأ.... باعرف أن كل سوري هو أهلي... مافيني اترك حدا هون.... مافيني اترك الوضع هيك.... راح ضل لحتى يقتلوني أو أقتلهم....

فانفجرت آشيا بالبكاء، وغطت وجهها عاجزة عن الرد عليه، فأكمل:

- آشيا... بعدك صغيرة وحلوة.... بعدو عطرك بيحرك حواسي.... بعدي بِحُبك حاسس أني عايش..... ومارح أتوقف لحظة عن حبك لحد ما ألفظ أنفاسي.... لاتبكي ياحبيبتي.... ولا تنطريني آشيا.... عيشي كرمالي.... إذا بدك أرجع إدعي الله سوريا تنهض والكلاب ينهزموا.

كان وجعها أكبر من أن تتمكن من الرد عليه، أو تحاول إثناءه عن قراره، لم تكن لتصدق أن هذه ستكون آخر مرة تراه فيها، وتحدثه، كلما استمعت لأخبار القصف، تأكدت أنه لن ينجو، اتصاله الأخير قضى على عقلها كليًا، قضى على صبرها وانتظارها وتحملها، وتوقف العالم عن الدوران، كانت تعلم أن هذا سيحدث، ليس فقط لأنها تعلم وطنيته، بل لأنها هي نفسها أصبحت تشعر بضيق حياتها، لم تعد تستمتع بالسلام والهدوء الذي تعيش فيهما ليل نهار وهو هناك، تسللت وطنيته خفية لشرايينها، حتى إنها كانت تسأل فاطمة ما إن كانت سمعت أي أخبار من موسى عن

أسرته بدير مقرن، لكن الأخبار انقطعت تماما عنهم، لم تدر هل أحبت سوريا لأنها سورية أم لأن أنس حبيبها سوري، لم تدر أكان الغضب الذي يشتعل بأعماقها مما يحدث من جرائم في سوريا كان وليد مشاعرها تجاه أنس، أم أنها حقًا لم تعد تتحمل ما يحدث وهي تعيش هنا ولا تستطيع أن تساعدهم بشيء، كانت بحاجة لمعرفة الإجابة، لكنها لم ترد أن تزعج أحدا..

لهذا رحلت!

في أسبوعين أنهت أوراقها في سرية تامة، ورحلت في رحلة طيران ليلية، هربت من جنتها لتعود لجحيمها، تركت قارب النجاة وفضلت الغرق، ما فائدة النجاة دون أحبائك من حولك؟ دخلت سوريا على أنها مواطنة أمريكية، أمضت ليلتها الأولى في فندق، وأيقظتها شمس الصباح فارتدت العباءة القطرية التي أهداها لها سابقًا، رحلت نحو نهايتها مرتدية حبه، كانت تريد أن ترى بعينها العالم الذي حُبس فيه أنس، أن ترى بأم عينيها حواجز الفاجعة التي وقفت بينهما، حين هربت في المرة الأولى كانت تعلم أنها لو عادت لسوريا فلن تقدر على الخروج منها من جديد، وقتها كان سببا آخر هو ما يعطيها هذا الشعور، والآن هي تعرف لماذا لن تعود، كيف قسم امتلاك السلاح شعب بلدتها فجعلهم فئتين، فئة القتلة وفئة الضحايا، تطلعت إلى الدبابات تتمنى لو تُذكّرهم أنها صُنعت لتحارب العدو الخارجي، أي رئيس يشهر أسلحة اشتراها بمال شعبه في وجه شعبه؟

كانت تسير على قدميها في الشوارع المرصوفة بالدم، المأهولة فقط بالدبابات، تتعثر فتظن أنها حجارة، وما تلبث أن تكتشف بقايا جثة، إما قطعا ممزقة من ثياب، وإما قطعا ممزقة من جسد، أقفرت أرض الوطن حتى بات سمادها دم أولادها، حين وصلت الحي الذي يحمل منزلها القديم تاهت، ببساطة لأنه لم يعد هناك وجود للشوارع التي كانت تدلها على طريقها، بل لم يعد هناك بيوت، لم يعد هناك ناس، أين ذهبوا؟ ماذا حل بهم؟ كانت تحاول أن تعد نفسها حين تعلم بخبر وفاة أحد أفراد أسرتها، لكنها لم تعد نفسها لوفاة طفولتها كاملة، وفاة قريتها بالكامل وعدم وجود أي أثر لبيتها وحديقته ومزرعته والحيوانات التي ربوها فيه، ولا الجيران ولا المحلات القديمة ولا عيادة الطبيب خالد الذي أحبته فاطمة أختها، لم تتعرف فقط سوى على بقايا مدرستها.

سارت من عند بابها وأغلقت عينيها، وحاولت أن تتذكر عدد الخطوات والانحناءات حتى تصل بيتها، كما كانت تسير برفقة عدنان في زمن بريء سحيق، كم تعثرت ونهضت حتى توقفت قدماها لتعلن لها وصولها إلى مرادها، ما وجدته كان التراب، التراب الذي يحيط بها من كل صوب مع أطلال مبانٍ قديمة، أمضت الساعات تلف حول نفسها محاولة أن تجد طرف الخيط لمنزلها، لم تجد شيئا ولم تجد أحدا، جاءها خاطر مجنون أن كل ما عاشته في سوريا كان حلمًا اختلقته، وإلا كيف لم يعد له وجود الآن على الإطلاق!

هبطت على ركبتيها وحاولت أن تتعرف بأصابعها على بيتها عن طريق لمس التراب، بقيت تحرك التراب بيديها، حتى صارت عباءتها السوداء بلون الأرض

وهي تبكي، ولا تصدق ما تراه، تستطيع أن ترى بعض الدماء تحت كل حجر متهدم، لكنها لا تريد أن ترفعه لترى أي جثة أسفله، خارت قواها تمامًا وصغُرت الحياة في عينيها، لم تكن عباءة حبها الوحيدة التي فسدت، سعادتها فسدت، حلمها مات، حبها ضاع، فكيف يريد أنس أن تستمر بحياتها وتنساه وتعيش؟ لمن تعيش وكيف تعيش؟ تساءلت ما هو هدف حياتها الآن بعد أن فقدت كل شيء، بقيت تبكي لساعات، حتى جفت دموعها، تصاعد الغضب من أعماقها إلى جسدها، شيء واحد أعاد لها توازنها، ألا تستسلم، أن تحارب من أجل سوريا، أنس فضل الموت هنا على الموت في حضنها، وهي كذلك نضجت وما عادت تهرب من عذابها، من الآن فصاعدًا ستحارب عذابها وتصرعه، ستبقى، مرت أمها وإخوتها بذهنها، فابتسمت بوهن، تذكرت الرسالة التي تركتها لهم، دعت ربها ألا يبكوا ولا يتألموا كثيرًا لأجلها، تذكرت أنها كتبت لهم:

سأعود إلى وطني... لأعيش!

الآن فقط أدركت معنى الوطن، وهو يحتضر أمام عينيها، أدركت أن تلك الطمأنينة التي ظل يصفها أنس بانتمائه لهذه الأرض شعور لا تعرف كيف عاشت دونه سنوات عمرها، لكن طعمه الآن التحم بحلقها، سارت بثبات وقررت ألا تستسلم، وتحارب لأجل حبيبها وبلدها وناسها، حتى يغطيها هذا التراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء

مقدّمة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

Notes

[←1]

منوب: أبدًا.

[←2]

هلق: الآن.

[←3]

بقة: حشرة صغيرة.

[←4]

طلطميس ما بيعرف الجمعة من الخميس، مثل سوري يدل على الغباء.

[←5]

دلال رجل في السوق يبيع وهو ينادي.

[←6]

لا تقارشني: لا تتحرش في..... هي تراثيات سورية قديمة.

[←7]

الرشتاية: معكرونة مع عدس أو اللبنية، أي الكبة باللبن.

[←8]

عجئة: ضجة.

[←9]

مثل سوري يدل على جمال السمراء.

[←10]

مثل سوري قديم، يعني خرجنا من مصيبة، لنقع فيما هو أسوأ منها.

[←11]

ختیار: عجوز

[←12]

قوسوه: قتلوه ضربًا بالرصاص.